الأكثر مبيعًا بشهادة نيويورك تايمز

هارلان كوبن

رسالة من شبح

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

نوفل

رسالة من شبح

هارلان كوبن

نقله من الإنكليزية أدونيس سالم

نوفل

twitter @baghdad_library

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2013 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2013
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّة وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: **معجون**
صورة الغلاف: **Shutterstock**
اقتباس التصميم: **ماري تريز مرعب**
متابعة نشر: **نجلاء رعيدي شاهين**
طباعة: **Chemaly & Chemaly**

ساهمت في الترجمة: **ندى عبيد**

ر.د.م.ك.: 978-9953-26-390-8

Copyright © 2001 by Harlan Coben

All rights reserved.

Originally published in the United States by Delacorte Press, an imprint of The Random House Publishing Group, a division of Random House, Inc., in 2001, under the title *Tell No One.*

This edition published by arrangement with The Aaron M. Priest Literary Agency, Inc.

لذكرى ابنة شقيقي الحبيبة
غابي كوبن
1997 – 2000
ميتزكا، طفلتنا الرائعة...

«وماذا سيحدث بعد آخر الزمان؟ هل سيعيش الحبُّ بعد الإنسان؟»
«تعالَ يا حبيبي، انظر معي من الشبّاك، القمر باسم والنجوم ترقص هنا وهناك. هذا النُّور هو حبٌّ آتٍ من سماء بعيدة، ليضيء قلوبنا ويجعلها سعيدة.
هذا الحبُّ سيعيش من بعدنا، وسيصبح نورًا لأولادنا.
الحبُّ سيبقى عبر الزمان، الحبُّ سيبقى مهما كان.»

ديبي جليوري، من كتاب «مهما كان» (*No Matter What*)
تعريب محمود جعفر، دار بلومزبوري – مؤسسة قطر للنشر

twitter @baghdad_library

شكر وتقدير

طيّب. قبل أن نبدأ، أودّ أن أقدّم إليكم المجموعة التي أسهمت في ظهور هذه الرواية:

– المحرّرة المميّزة بث دوغوزمان، وأيضًا سوزان كوركوران، شارون لوليك، نيتا توبليب، إرفين أبلبوم، وسائر أعضاء الفريق المخضرمين في منشورات بانتام ديل.

– ليزا إرباك فانس وأرون بريست، وكيلايَ.

– الدكتورة آن أرمسترونغ-كوبن، جين ريهل، جيفري بدفورد، غويندولين غروس، جون وود، ليندا فيرشتاين، ماغي غريفن، ونيلز لوفغرين، شاكرًا لهم نصائحهم وتشجيعهم.

– جويل غوتلر، التي حثّتني وشجّعتني وألهمتني.

twitter @baghdad_library

كان يجب أن يكون في الريح صفير ينذر بالخطر، أو ربما أن يكون في العظام قشعريرة عميقة. كان يجب أن يكون هناك شيء ما. أغنية أثيرية وحدنا إليزابيت أو أنا يمكننا سماعها، توتر في الجو، أو شر مستطير على وشك الوقوع كالذي نقرأ عنه في الروايات. في الحياة مصائب نكاد نتوقع حدوثها – كالذي حدث لوالديّ، مثلًا – لكن ثمة لحظات أخرى قاتمة، لحظات من العنف المفاجئ التي تُغير كل شيء. كانت لي حياة قبل المأساة. وها حياتي كما هي الآن. وبين هاتين الحياتين أوجه شبه قليلة إلى حدّ مؤلم.

كانت إليزابيت صامتة بالنسبة إلى ما كان متوقعًا في رحلة بالسيارة نقوم بها للاحتفال بذكرى لقائنا، ولكن هذا ليس بالأمر غير الاعتيادي. فحتى في طفولتها، كانت ذات نزعة إلى السوداوية لا يمكن توقعها. فتصمت وتنجرف إلى حالة من التأمل العميق أو الاكتئاب العميق. لم أدرِ قط أيًا منهما كانت تعيشه. أظنه جزءًا من السر، لكنني وللمرة الأولى، شعرتُ بالشرخ بيننا. كانت علاقتنا قد صمدت في وجه الكثير الكثير، وتساءلت عما إذا كانت تستطيع الصمود في وجه الحقيقة، أو بالأحرى في وجه الأكاذيب الدفينة.

كان مكيف الهواء في السيارة، والذي شغلتُه على درجة البرودة القصوى، يطلق أزيزًا مرتفعًا. فطقس ذلك اليوم كان طقس يوم كلاسيكي من شهر آب، أغسطس، حارًّا ودبقًا. اجتزنا ممر ديلاوير المائي عند جسر ملفورد،

twitter @baghdad_library

حيث رحب بنا في بنسلفانيا الجابي اللطيف في كشك رسوم المرور. سرنا نحو خمسة عشر كيلومترًا، ثم لمحت اللافتة الحجرية التي كُتب عليها «بحيرة شارماين – أملاك خاصة»، فانعطفتُ بالسيارة إلى الطريق الترابي.

إنغرزت العجلات في التراب، فأثارت حولها غبارًا وكأنها قطيع خيول عربية تفر مُجفلة. أطفأت إليزابيت ستيريو السيارة. ولاحظتُ بطرف عيني أنها تمعن النظر في جانبي. فتساءلتُ عما عساها رأت، وأخذ قلبي يخفق. كان إلى يمين الطريق غزالان يقضمان بعض أوراق الأشجار. فتوقفا، ونظرا إلينا، وعندما وجدا أننا لا نضمر لهما الأذى، عادا إلى وجبتهما. تابعتُ القيادة حتى ظهرت البحيرة أمام أعيننا. وكانت الشمس تلفظ آخر أنفاسها وقد صبغت السماء ببقع برتقالية وبنفسجية متداخلة، وبدت قمم الأشجار وكأن ألسنة اللهب تتطاير منها.

قلت: «لا أستطيع أن أصدق أننا ما زلنا نفعل هذا.»

– أنت من بدأ هذا الأمر.

– أجل، عندما كان عمري اثني عشر عامًا.

لم تكتم إليزابيت ابتسامتها. قليلًا ما كانت تبتسم، ولكنها حين تفعل، فإن ابتسامتها تخترق قلبي مباشرة.

أصرت قائلة: «إنه أمر رومانسي.»

– إنها بلاهة.

– أنا أحب الرومانسية.

– بل أنت تحبين البلاهة.

– كلما فعلنا هذا تتاح لك ممارسة الحب.

– سميني السيد «رومانسي».

ضحكت إليزابيت وأمسكت يدي قائلة: «هيا بنا يا سيد رومانسي، لقد حل الظلام».

بحيرة شارماين. كان جدي هو من أطلق عليها ذلك الاسم، الأمر الذي أغضب جدتي بشدة. فقد أرادت أن تحمل البحيرة اسمها هي، «بيرتا». «بحيرة بيرتا». لكن جدي لم يقبل نقاشًا في الأمر قط. وفي النهاية كان له ما أراد.

منذ نحو خمسين عامًا، كانت بحيرة شارماين مكانًا لمخيمٍ صيفي خاص بالفتيان الأثرياء. ثم أفلس مالكه، فاشترى جدي كامل البحيرة والمساحة المحيطة بها بثمنٍ زهيد. وأصلح منزل مدير المخيم، وهدم معظم المباني على ضفة البحيرة، لكنه ترك للعفونة أن تقضي مع الزمن على مهاجع الفتيان الخشبية في قلب الغابة، حيث لم يعد أحد يذهب. وقد اعتدتُ وشقيقتي ليندا استكشاف تلك المهاجع، فنبحث وسط خرائبها عن كنوز قديمة، ونلعب لعبة الغمضية، ونتحدى أنفسنا للبحث عن غول من نسج خيالنا، كنا على يقين من أنه يراقبنا متربصًا بنا. ولكن نادرًا ما كانت إليزابيت تنضم إلينا في مغامراتنا تلك، فهي تحب أن تعرف مكان كل شيء، كما أن الاختباء كان يثير فيها الرعب.

ما إن خطونا خارج السيارة حتى سمعتُ الأشباح. كان في المكان الكثير منها، بل أكثر مما ينبغي، تحوم وتتعارك على لفت انتباهي. لكن شبح أبي تغلب على الأشباح الأخرى. كان السكون التام يخيم على البحيرة، ومع ذلك كدتُ أقسم أنني أستطيع سماع صيحة البهجة التي كان أبي يطلقها وهو يقذف بنفسه عن جسر البحيرة إلى الماء، وركبتاه مضمومتان بشدة إلى صدره، وعلى وجهه ضحكة مجنونة، لتتراءى آنذاك انفلاشة الماء الوشيكة الحدوث، كموجة مدية في عينَي ابنه الوحيد. كان أبي يحب دائمًا الهبوط قرب الطوف الذي تستلقي عليه أمي لتأخذ حمامًا شمسيًا. وكانت تؤنبه على ذلك، بدون أن تتمكن من إخفاء ضحكتها.

طرفت بعينيّ فتلاشت الرؤى من أمام ناظري. ولكنني لم أنسَ كيف كانت تلك الضحكة، وصيحة البهجة، وانفلاشة الماء، تتموج ويتردد صداها وسط سكون بحيرتنا. وتساءلتُ عما إذا كانت تلك التموجات والأصداء تنتهي بأن تتلاشى على نحو كامل، وعما إذا كان صدى صيحات أبي المملوءة بالبهجة ما زال يرتد بهدوء عن الأشجار، في مكانٍ ما في الغابة. فكرة سخيفة ولكن...

إن الذكريات، كما تعلمون، مؤلمة، وأكثرها إيلامًا هي الذكريات الجميلة.

سألتني إليزابيت: «بِكْ، هل أنت بخير؟»

twitter @baghdad_library

استدرت إليها قائلًا: «سأمارس الحب، أليس كذلك؟»

علقتْ: «منحرف».

بدأت تمشي عبر الدرب، مرفوعة الرأس، مستقيمة الظهر. راقبتها لبرهة وأنا أتذكر المرة الأولى التي رأيتها فيها تسير بهذه الطريقة. كنت أبلغ من العمر سبع سنوات يومذاك، ومندفعًا بجنون بدراجتي – تلك الدراجة ذات المقعد الشبيه بالموزة، وعليها رسم الرجل الوطواط – عبر طريق غودهارت. كان ذلك الطريق حادّ الانحدار ومعرضًا للريح، أي بتعبير آخر، كان مثاليًا لهواة السرعة المخَضرمين. ركبت دراجتي على الطريق المنحدِر رافعًا يدي عن مقودها، وشاعرًا بالزهو إلى أقصى ما يستطيع أن يشعر به فتى في السابعة من عمره. كانت الريح تدفع بشعري إلى الخلف وتجعل عينيّ تدمعان. ثم لمحتُ شاحنة نقل الأثاث أمام منزل آل راسكن القديم. واستدرت – وآنذاك كانت الاختراقة الأولى لقلبي – لأرى إليزابيت، حبيبتي، تسير بجذعها المستقيم والمشدود سيرًا متوازنًا جدًا، حتى آنذاك، حتى بالنسبة إلى فتاة صغيرة في السابعة من عمرها، تنتعل حذاءَي «ماري جاين» الصغيرين خفيضي الكعب، وتضع سوار صداقة حول معصمها، وعلى بشرتها الكثير من النمش.

بعد أسبوعين التقينا من جديد في الصف الثاني الابتدائي، الذي تتولى التعليم فيه الآنسة سوبيل، ومنذ ذلك الحين – أرجو ألا تسخروا بي عندما أقول هذا – أصبحنا توأمَي روح. وجد البالغون ناحية لطيفة وغير صحية في علاقتنا، التي انتقلت من صداقة صبيانية لاهية إلى حب أول، فَهَوَس مراهقة، وأخيرًا إلى مواعدة بين تلميذين في المرحلة الثانوية، تثور فيهما هورموناتهما. لبث الجميع ينتظرون منا أن نملّ علاقتنا مع مرور السنوات، وحتى نحن لبثنا ننتظر ذلك. كنا كلينا من اللامعين، وخصوصًا إليزابيت، وتلميذين متفوقين، وعقلانيين حتى في مواجهة حب غير عقلاني، وكنا ندرك جميع الاحتمالات التي تنطوي عليها علاقتنا.

ولكن ها نحن الآن، في الخامسة والعشرين من عمرنا وقد مضى على زواجنا سبعة أشهر، نعود إلى البقعة نفسها التي تبادلنا فيها أول قبلة حقيقية بعمر الثانية عشرة.

أعرف أن هذا أمر مثير للغثيان.

شقينا طريقنا وسط أغصان الأشجار، وعبر رطوبة كثيفة جدًا. كانت رائحة الصنوبر الصمغية تجرح الهواء، وواصلنا سيرنا المجهَد وسط الأعشاب الطويلة. كان البعوض وكل أنواع الحشرات تطلق أزيزها في أثرنا. والأشجار تلقي ظلالًا طويلة يمكن للمرء أن يفسرها كيفما يحلو له، كما نحاول أن نتكهن ماذا تشبه السحابة، أو ماذا تعني إحدى بقع الحبر في اختبار «رورشاش».

تحولنا عن الدرب وأكملنا طريقنا بصعوبة عبر أجمة أشد كثافة. سارت إليزابيت في المقدمة وتبعتها أنا على بعد خطوتين. عندما أفكر في الأمر الآن، أجد فيه حركة تكاد تكون رمزية. لطالما اعتقدتُ أن شيئًا لا يسعه أن يفرق بيننا – ما من شك بأن تاريخنا قد أثبت الأمر، أليس كذلك؟ – ولكن بدا الآن، وأكثر من أي وقتٍ مضى، أن الشعور بالذنب يدفعها بعيدًا عني.

شعوري أنا بالذنب.

على بعد خطوات إلى الأمام، استدارت إليزابيت إلى اليمين عند الصخرة الكبيرة التي توحي بأنها تشبه قضيبًا. وهناك، إلى اليمين، كانت شجرتنا. نعم، كانت الأحرف الأولى من اسمينا محفورة على جذعها:

إ. ب.

+

د. ب.

وأيضًا نعم، كانت الأحرف محاطة بقلب. وتحت القلب اثنا عشر خطًا، كل منها يؤرخ لعام مر على قبلتنا الأولى تلك. كنت على وشك أن أعلق هازئًا بتصرفنا المثير للغثيان، ولكن عندما رأيت وجه إليزابيت، وقد زال منه النمش أو دكن لونه، واستدارة ذقنها الناعمة، وعنقها الطويل والجميل، وعينيها الخضراوين الهادئتين، وشعرها الداكن المجدول كحبلٍ سميك حتى ظهرها، توقفتُ. كدتُ أن أخبرها، في تلك اللحظة وذلك المكان، لكن شيئًا ما منعني.

قلت لها: «أحبك».

– ستمارس الحب، هذا مفروغ منه.

– أوه.

twitter @baghdad_library

قلتُ لها: «وأنا أيضا أحبك.» وتابعتُ، متظاهرًا بأن حماستي قد خبت: «حسنًا، حسنًا. أنت أيضًا ستمارسين الحب».

إبتسمت إليزابيت ولكنني شعرت بأن في ابتسامتها شيئًا من التردد. ضممتُها بين ذراعي. عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها، واستجمعنا أخيرًا شجاعتنا لقبلتنا الأولى، كان عطر رائع يفوح منها، هو مزيج من رائحة شعرها النظيف، وعيدان سكاكر «بيكسي ستيكس» بنكهة الفراولة. كنت آنذاك مأخوذًا بتلك التجربة الجديدة، طبعًا، وبالإثارة والاستكشاف. أما اليوم فكانت رائحة أزهار الليلك والقرفة تفوح منها. كانت قبلتنا كشعاع دافئ من النور انطلق من صميم قلبي. وحين التقى لسانانا، شعرتُ حتى بعد كل هذه السنوات بما يشبه صعقة الكهرباء. إبتعدت إليزابيت عني، مقطوعة الأنفاس.

سألتني: «هل تريد أن يكون لك شرف القيام بالأمر؟»

ناولتني السكين، فحفرتُ الخط الثالث عشر. ثلاثة عشر. عند التفكير لاحقًا في ما جرى، أتبين أن الرقم ربما كان نذير شؤم.

عندما عدنا إلى البحيرة كان الظلام قد حلّ. واخترق القمر الشاحب سواد الليل الحالك، نورًا يتيمًا وسط الظلام. لم يكن ثمة صوت هذه الليلة، ولا حتى أصوات الجنادب. تجردتُ وإليزابيت من ملابسنا بسرعة. نظرتُ إليها على ضوء القمر وشعرت بغصة في حلقي. قفزتْ قبلي في المياه، وبالكاد أحدثت قفزتها تموجًا في صفحة البحيرة. قفزتُ بعدها قفزة خرقاء، وفاجأني دفء مياه البحيرة. سبحت إليزابيت بضربات قوية وثابتة الوتيرة تشق المياه، التي بدت كأنها تفتح لها طريقًا. وتبعتُها متخبطًا وناثرًا من حولي رذاذ الماء بغزارة. تقافزت أصواتنا على صفحة البحيرة كتقافز حصاتين قُذفتا إلى الماء. إستدارت إلي وأسلمت نفسها إلى ذراعي. كانت بشرتها دافئة ومبللة، وكنت أعشق بشرتها. تعانقنا بقوة، وألصقت نهديها بصدري. أمكنني أن أشعر بخفقات قلبها وأن أصغي إلى صوت أنفاسها. أصوات الحياة. إلتحمت شفاهنا، وتنقلت يدي برفق عبر انحناءة ظهرها المغرية.

بعد أن انتهينا – وعندما شعرنا أن كل شيء قد عاد مثاليًا من جديد – اختطفتُ زورقًا مطاطيًا وارتميت عليه. كنت ألهث، وخرجت ساقاي عن طرفَي الزورق وتدلت قدماي في مياه البحيرة.

قطبت إليزابيت حاجبيها، وسألتني: «ماذا؟ هل ستغفو الآن؟»

– بل سأنام حتى أشخر.

– يا لك من رجل.

إستلقيت على ظهري واضعًا يدي خلف رأسي. مرت سحابة من أمام القمر محولة زرقة الليل إلى لون رمادي شاحب. وكان الهواء ساكنًا. كان بإمكاني أن أسمع إليزابيت وهي تخرج من البحيرة وتصعد إلى جسرها الخشبي. حاولت عيناي أن تتكيفا مع الظلام، كنت بالكاد قادرًا على تمييز خيال جسدها العاري. كانت، وببساطة، تخطف الأنفاس. راقبتها وهي تنحني حتى خصرها وتعصر شعرها، ثم انتصبت وأعادت رأسها الى الخلف بحركة رشيقة.

إنجرف زورقي مبتعدًا عن الشاطىء. حاولت أن أعيد التفكير في كل ما حدث لي، ولكن حتى أنا نفسي لم أفهم كل ما حدث. تابع الزورق ابتعاده، وبدأت إليزابيت تغيب رويدًا رويدًا عن نظري. وحين اكتنفها الظلام تمامًا، اتخذت قراري: سوف أخبرها. سوف أخبرها كل شيء.

هززتُ برأسي لنفسي موافقًا، وأغمضت عينيّ شاعرًا بأن عبئًا ثقيلًا قد انزاح عن صدري. ورحت أصغي إلى صوت الماء يرتطم بزورقي برقة.

ثم سمعت صوت باب سيارة يُفتح، فانتصبت جالسًا.

«إليزابيت؟»

كان صمت مطبق يسود المكان لا يقطعه سوى صوت أنفاسي.

من جديد بحثت عيناي عن طيفها. كان من الصعب أن أميزها، لكنني رأيتُ طيفها لبرهة، أو اعتقدت أنني رأيته. لم أعد متأكدًا من هذا الأمر الآن، أو حتى من أن له أهمية. في كلتا الحالتين، كانت إليزابيت واقفة بثبات تام، ولعلها كانت تواجهني.

لعلي طرفتُ بعينيّ – لست متأكدًا من هذا الأمر أيضًا – وعندما نظرت ثانية، كانت إليزابيت قد اختفت.

twitter @baghdad_library

شعرت بقلبي يكاد يقفز من بين ضلوعي. «إليزابيت!»

لا حياة لمن تنادي.

إشتد ذعري، فقفزت عن الزورق وبدأت بالسباحة نحو جسر البحيرة. ولكن ضربات ذراعي في الماء بدت صاخبة في أذني، صاخبة إلى درجة جنونية. لم يعد بإمكاني أن أسمع ما يحدث، إن كان هناك ما يحدث. فتوقفت.

«إليزابيت!»

مرت فترة لم أسمع فيها صوتًا. ما زالت تلك السحابة تحجب نور القمر. لعل إليزابيت دخلت الكوخ، أو لعلها ذهبت لتأتي بشيءٍ ما من السيارة. فتحت فمي لأناديها مرة أخرى.

وفي تلك اللحظة بالذات سمعت صرختها.

خفضت رأسي وبدأت أسبح بكل قوتي، وذراعاي تخوضان الماء بحركة مضخة، وساقاي تركلانه بعنف. ومع ذلك وجدتُني لا أزال بعيدًا عن جسر البحيرة. فيما كنت أسبح حاولت أن أنظر، ولكن الظلام اشتد كثيرًا، والقمر يلقي أشعة باهتة لا تضيء شيئًا.

سمعت صوتًا يوحي بأن أحدًا ما يسحب شيئًا ثقيلًا على الأرض.

بات بإمكاني أن أرى جسر البحيرة أمامي، على بعد عشرين قدمًا لا أكثر. واصلت السباحة بقوة أكبر، وشعرت باحتراق شديد في رئتي، وابتلعت بعض الماء. كانت ذراعاي تندفعان ممدودتين إلى الأمام، ويداي تتخبطان في الظلام باحثتين عن شيء ما. ثم وجدته. السلم. تمسكت به، ورفعت نفسي، وتسلقته خارجًا من الماء. كان الجسر مبللًا بالمياه التي سقطت عن جسد إليزابيت. نظرت باتجاه الكوخ، وكان الظلام حالكًا، فلم أرَ شيئًا.

«إليزابيت!»

شعرت بشيء يشبه مضرب البايسبول يصيبني بقوة في معدتي. فجحظت عيناي، وانثنيت على نفسي من شدة الألم وشعرت بأني أختنق. باغتتني ضربة أخرى على رأسي، فسمعت تصدعًا في جمجمتي، وشعرت وكأن أحدًا ما قد دق مسمارًا اخترق صدغي. خارت ساقاي وسقطتُ على ركبتي.

ذهلتُ تمامًا، ووضعت يدي على جانبَي رأسي، محاولًا أن أرد عن نفسي الضربات. الضربة التي تلت، وكانت الأخيرة، أصابتني مباشرة في الوجه.

ترنحت إلى الخلف وسقطت في البحيرة من جديد، وعيناي مغمضتان.

سمعت إليزابيت تصرخ مجددًا – وهذه المرة كانت تصرخ منادية باسمي – ولكن صوت صرختها وكل ما عداه من الأصوات تلاشت فيما رحت أغرق تحت الماء.

twitter @baghdad_library

1

بعد ثماني سنوات...

كانت فتاة أخرى على وشك أن تحطم قلبي.

كانت فتاة ذات عينين بنيتين، وشعر أجعد منتفخ، وابتسامة تظهر منها أسنان كبيرة. كما كانت تضع مقوم أسنان ولها من العمر أربعة عشر عامًا و...

سألتُها: «هل أنت حامل؟»

أجابت: «نعم، دكتور بِكْ.»

تمالكت نفسي لكي لا أغمض عينيّ تأثرًا. لم تكن هذه المرة الأولى التي أعاين فيها مراهقة حاملًا. ولا هي حتى المرة الأولى اليوم. أمارس طب الأطفال في هذه العيادة الواقعة في منطقة واشنطن هايتس، منذ أن أنهيت تخصصي منذ خمس سنوات في مركز كولومبيا الطبي المَشْيَخي، غير البعيد من هنا. كانت العيادة مخصصة للمستفيدين من برنامج «ميديكايد للرعاية الطبية» (أي الفقراء)، وتغطي الخدمات الطبية العائلية التي تشمل طب التوليد، والأمراض الداخلية، وبالطبع طب الأطفال. يعتقد الكثيرون أن عملي هذا يجعلني فاعل خير ذا قلب يقطر تعاطفًا، ولكن الأمر ليس كذلك. فأنا أحب أن أكون طبيب أطفال، لكنني لست مولعًا بأن أمارس هذه المهنة في ضواحي المدينة، التي يسكنها أفراد الطبقة المتوسطة، حيث الأمهات

twitter @baghdad_library

المرفهات، والآباء المتأنقون ذوو الأظافر المدرمة في مؤسسات التجميل، وحيث... حسنًا، حيث أمثالي من الناس.

سألتها: «ما الذي تنوين فعله؟»

– أنا وتيريل سعيدان حقًا، يا دكتور بِكْ.

– كم يبلغ تيريل من العمر؟

– ستة عشر عامًا.

رفعت نظرها إلي سعيدة باسمة. ومجددًا تمالكت نفسي لكي لا أغمض عينيّ.

ما يثير دهشتي باستمرار – باستمرار – هو أن معظم حالات الحمل هذه ليست وليدة خطأ أو إهمال. فهؤلاء المراهقات يرغبن حقًا في إنجاب الأطفال. لا أحد يفهم ذلك. يتحدثن عن وسائل منع الحمل والامتناع عن الجنس، وكل ذلك حسن، ولكن حقيقة الأمر هي أن صديقاتهن الرائعات والمميزات ينجبن أطفالًا، ويحظين بكل أنواع الرعاية. ولذلك أخالها قالت لحبيبها: «هيا يا تيريل، لمَ لا يكون لنا ذلك؟»

قالت لي الفتاة ذات الأربعة عشر عاما: «إنه يحبني.»

– هل أخبرتِ والدتك؟

– لا، بعد.

تلوت مرتبكة، وبدت على ما هي عليه، طفلة في الرابعة عشر من العمر. أضافت: «كنت آمل أن نخبرها معًا.»

هززت رأسي موافقًا: «بكل تأكيد.»

لقد تعلمت ألا أطلق أحكامًا على الناس. بت أصغي، وأضع نفسي مكان الآخر، بعدما كنت في مرحلة التخصص أعظ المرضى، فأنظر إليهم من عليائي، وأتحِفهم بالمعرفة حول المدى الذي بلغه سلوكهم في تدمير ذواتهم. ولكن ذات يوم بارد في مانهاتن، نظرت إلي شابة منهكة القوى في السابعة عشرة من عمرها، تنتظر مولودها الثالث من الوالد الثالث، نظرة مباشرة، وقالت حقيقة لا جدال فيها: «أنت لا تعرف شيئًا عن حياتي.»

أخرستني تلك العبارة تمامًا. وبت الآن أصغي. وتوقفت عن لعب دور الرجل الأبيض المُحسن، وأصبحت طبيبًا أفضل. سوف أمنح هذه الفتاة ذات

الأربعة عشر ربيعًا وطفلها أفضل عناية ممكنة. لن أقول لها إن تيريل لن يبقى معها أبـدًا، وإنها قضت على مستقبلها، وإن حالها إذا كانت كحال معظم زائرات العيادة، فستجد نفسها في وضعٍ مشابه مع رجلين آخرين على الأقل، قبل أن تبلغ عامها العشرين.

الواقع أن مَن يفكر في الأمر كثيرًا يفقد صوابه.

تحادثنا لبعض الوقت، أو على الأقل هي تحدثت وأنا أصغيت. كانت غرفة فحص المرضى – وهي في الوقت نفسه مكتبي – بحجم زنزانة (ولا أعني أنني عرفتُ الزنازين شخصيًا). وكانت جدرانها مطلية باللون الأخضر المعتمد في المؤسسات الرسمية، كلون جدران الحمامات في المدارس الابتدائية. كانت ثمة لوحة لفحص العيون – تلك التي ينبغي علينا أن نشير فيها إلى اتجاهات الأحرف المرسومة – معلقة على الباب من الجهة الخلفية. وكان أحد الجدران مزينًا برسوم لشخصيات من عالم ديزني، بهت لونها. واكتسى جدار آخر بملصق ضخم للهرم الغذائي. جلست مريضتي ذات الأربعة عشر عامًا على طاولة الفحص المغطاة بالورق الصحي، الذي نمد مقدارًا جديدًا منه لكل طفل جديد نعاينه. لسبب ما ذكرتني الطريقة التي كان الورق الصحي يتدحرج فيها من اللفافة، بتغليف الساندويتشات في مطعم كارنيغي للوجبات السريعة.

كانت الحرارة المنبعثة من جهاز التدفئة المركزي خانقة، ولكن ذلك ضروري في مكان يخلع فيه الأطفال ملابسهم باستمرار. وكنت أرتدي هندام طبيب الأطفال الاعتيادي الخاص بي: سروال جينز أزرق اللون، حذاء مطاطي، قميص ذو ياقة مزررة، وربطة عنق لماعة تحمل رسوم «أنقذوا الأطفال»، زاهية اللون، تشي بوضوح بأنها من موضة العام 1994. لم أرتدِ المبذل الأبيض، لأنني أظنه يخيف الأطفال.

كانت فتاتي ذات الأربعة عشر عامًا – أجل، لم أكن قادرًا على تجاوز مسألة سنها – طفلة لطيفة حقًا. الطريف هو أنهم جميعًا أطفال لطفاء. أحلتها إلى طبيب توليد أحبه. ثم تحدثت إلى والدتها، وهذا أمر ليس بجديد ولا يبعث على الدهشة. فكما قلتُ، أفعل هذا كل يوم تقريبًا. تعانقنا حين هممتُ

twitter @baghdad_library

بمغادرة العيادة، ومن فوق كتفها تبادلتُ ووالدتها نظرة سريعة. يأتي إلي كل يوم حوالى خمس وعشرين أما لأعاين أولادهن. وفي نهاية الأسبوع لا يتجاوز عدد المتزوجات من بينهن عدد أصابع يدٍ واحدة.

كما قلت سابقًا، أنا لا أطلق الأحكام، ولكنني ألاحظ.

بعد أن غادرتا رحت أدون بعض الملاحظات في سجل الفتاة الصحي. عدت بضع صفحات إلى الوراء، فأنا أتابعها منذ أن كنت طبيبًا متمرنًا، أي أنها تزورني منذ أن كانت في الثامنة من عمرها. نظرت إلى الرسم البياني لنموها، كما رحت أتذكر كيف كانت تبدو وهي طفلة في الثامنة. ومن ثم فكرت في ما بدت عليه منذ قليل، ووجدتُ أنها لم تتغير كثيرًا. أخيرًا أغمضتُ عينيّ وفركتهما.

قاطعني هومر سيمبسون وهو يزعق : «البريد! لقد وصل البريد! أوو أووا!»

فتحتُ عينيّ واستدرت نحو شاشة الكمبيوتر. رأيتُ هومر سيمبسون بذاته، تلك الشخصية الشهيرة من برنامج الكرتون التلفزيوني «ذا سيمبسونز». لا بد من أن أحدهم استبدل عبارة الكمبيوتر المملة «وصلتك رسالة» بصوت هومر. إلا أن الأمر راقني... راقني كثيرًا.

كنت على وشك أن أتفحص بريدي الإلكتروني، عندما قاطعني الأزيز الحاد للهاتف الداخلي، فتجمدت يدي حيث هي. قالت واندا موظفة الاستقبال متلعثمة: «إنها... همم... شونا على الخط.»

فهمتُ ارتباكها، وشكرتها، ثم ضغطت على الزر الوامض، وقلتُ: «مرحبًا يا عزيزتي.»

– دعك من هذا، أنا هنا.

أقفلت شونا هاتفها الخلوي، فنهضتُ وسرت عبر الممر، فيما كانت هي تدخل العيادة قادمة من الشارع. من عادة شونا أن تدخل كعاصفة مباغتة، وكأنها تقتحم مكانًا عدوا. كانت شونا عارضة أزياء من القياسات الكبيرة، وإحدى العارضات القلائل اللواتي اشتهرن باسم واحد فقط. شونا، تمامًا مثل شير أو فابيو. كان طولها 186 سنتمترًا وتزن 86 كيلوغرامًا. وكانت – وكما قد تتوقعون – ذات جمال يفتن الأنظار، ومن الطبيعي أنها شدت إليها أنظار كل مَن في قاعة الانتظار.

لم تكلف شونا نفسها عناء التوقف عند مكتب الاستقبال، كما أن موظفة الاستقبال كانت أكثر حكمة من أن تحاول إيقافها. فتحت شونا الباب على مصراعه وحيتني قائلة: «سنتناول الغداء، الآن»

– قلت لك إنني سأكون مشغولًا.

– إرتدِ معطفًا. الجو بارد في الخارج.

– أنا بخير. الذكرى تقع غدًا على أي حال.

– الغداء على حسابك.

ترددتُ لبرهة، وأدركت شونا أنها نالت مني.

– هيا يا بِكْ، سيكون الأمر ممتعًا تمامًا، كأيام الجامعة. ألا تتذكر كيف كنا نخرج ونصطاد الحسناوات؟

– أنا لم أكن أصطاد الحسناوات على الإطلاق.

– صحيح، أنا التي كنت أفعل ذلك. إجلب معطفك.

ولمّا هممتُ أعود إلى مكتبي، استوقفتني إحدى الأمهات، وأخذتني جانبًا وابتسامة كبيرة تملأ وجهها، وهمست لي: «إنها حتى تبدو أكثر جمالًا عن قرب.»

قلت: «إيه.»

سألتني: «هل أنتما...» وجمعت يدًا إلى يد.

– لا، إنها مرتبطة بشخص.

– حقًا؟ ومن يكون؟

– شقيقتي.

تناولنا الطعام في مطعم صيني رخيص، فيه نادل صيني لا يجيد سوى الإسبانية. وبدت شونا في غاية الأناقة ببذلة زرقاء اللون، ذات تقويرة تغوص عميقًا حتى صدرها. ثم قطبت حاجبيها وسألتني: «أتريد لحمًا بالصلصة الحلوة والحامضة، مع التورتيلا»؟ قلت لها: «غامري بعض الشيء.»

إلتقينا في يومنا الأول في الجامعة، بعدما أخطأ أحد موظفي مكتب التسجيل، وظن أن اسمها «شون»، وهو اسم رجل، فخصص لنا غرفة واحدة. كنا نتهيأ لإبلاغ المسؤولين عن الخطأ حين بدأنا نتحادث، وقدمتْ لي البيرة،

twitter @baghdad_library

وبـدأتْ تروقني. بعد ذلك بساعات، قررنا تجاهل موضوع الشكوى، فمن يدري؟ لربما كان شريكا غرفتينا اللذان سيأتيان من الحمقى.

إلتحقتُ بـ«آمهيرست كولدج»، وهو معهد جامعي صغير خاص بالطبقة الثرية، يقع في غرب ولاية ماساتشوستس. ولا أظن أن في العالم مكانًا أكثر نخبوية من ذلك المعهد. أما إليزابيت، الطالبة المتفوقة في مدرستنا الثانوية، فقد اختارت جامعة يال. كان بإمكاننا أن نرتاد الجامعة نفسها، ولكننا تناقشنا الأمر، وقررنا أن اختيار جامعتين مختلفتين سيكون اختبارًا ممتازًا آخر لعلاقتنا. من جديد، اخترنا أن نتصرف بطريقة ناضجة. وما كانت النتيجة؟ بلغ الشوق بنا حد الجنون، وعمق الفراق التزامنا وأعطى حبنا بُعدًا جديدًا، على قاعدة أن المسافة تجعل القلب أكثر ولهًا.

أمر مثير للغثيان، أعلم ذلك.

سألتني شونا أثناء الطعام: «هل بإمكانك أن تهتم بمارك هذا المساء؟»

مارك هو ابن شقيقتي، البالغ من العمر خمس سنوات. خلال عامنا الجامعي الأخير، بدأت شونا بمواعدة شقيقتي الكبرى، ليندا. وقد أقامتا حفلة ارتباطها الرسمي منذ سبعة أعوام. وكان مارك ثمرة... حبهما، عبر عملية تلقيح اصطناعي. فحملته ليندا في أحشائها وتبنته شونا. وبحكم كونهما امرأتين من الطراز القديم بعض الشيء، فقد أرادتا لابنهما أن يحظى بمثال ذكوري أعلى في حياته. وهنا أتى دوري.

بالمقارنة مع الأمور التي أصادفها في محيط العمل، تظهر علاقة شونا بليندا ومارك أقرب إلى العائلة الأميركية النموذجية، كما يجسدها برنامج «أوزي وهارييت» الكوميدي.

قلت لها:

– لا مشكلة لدي، فعلى أية حال، أرغب في مشاهدة فيلم ديزني الجديد.

– إن فتاة ديزني الجديدة رائعة للغاية، إنها الأكثر إثارة منذ ظهور بوكاهونتاس.

– يسرني أن أعلم ذلك. إذًا، أين ستذهبين وليندا؟

– وما أدراني؟! بعدما أصبح السحاق آخر صيحة، باتت مفكرتنا الاجتماعية حافلة إلى حدّ السخافة. أكاد أحن إلى الأيام التي كنا لا نجرؤ خلالها على كشف ميولنا.

طلبتُ زجاجة بيرة. ربما لم يكن علي أن أفعل ذلك، ولكن زجاجة واحدة لن تضرني.

كذلك طلبت شونا زجاجة، وقالت:

– إذًا أنهيتَ علاقتك بـ... ما كان اسمها؟

– براندي.

– أجل صحيح. اسم جميل. للمناسبة، هل لديها شقيقة تدعى «ويسكي»؟

– تواعدنا مرتين فقط.

– هذا حسن. كانت امرأة كريهة ونحيلة. كما أنني وجدت امرأة مثالية لك.

– لا، شكرًا.

– جسدها مثير جدًا.

– لا ترتبي لي مواعيد مع نساء يا شونا، رجاءً.

– لماذا؟

– أتتذكرين آخر موعد رتبتِه لي مع امرأة؟

– مع كساندرا.

– صحيح.

– ما خطبها؟

– أوّلًا، كانت سحاقية.

– يا إلهي يا بِكْ! كم أنت متزمت!

رن هاتفها الخلوي، فاستوت في كرسيها وأجابت، لكن عينيها لم تفارقا وجهي قط. زعقت بمحدثها، ثم أغلقت بحدة الجزء المتحرك من الهاتف منهية الاتصال، وقالت: «علي أن أذهب.»

أشرتُ للنادل طالبًا الفاتورة.

twitter @baghdad_library

قالت بوضوح: «سوف تأتي إلى منزلنا مساء غد.»

تظاهرتُ بأنني تعجبت، وسألتُها: «أليست للسحاقيتين أية مشاريع؟»

– أنا لا، بعكس شقيقتك. فهي ذاهبة بدوني لحضور الحفل الرسمي الكبير لمؤسسة براندون سكوب.

– ألن ترافقيها؟

– لا.

– لماذا؟

– لا نرغب في ترك مارك وحده لليلتين على التوالي. ليندا مضطرة إلى الذهاب، فهي التي تتولى إدارة المؤسسة الآن. أما أنا فسأمنح نفسي إجازة. تعال مساء غد، موافق؟ سأطلب طعامًا جاهزًا، ونشاهد أفلام فيديو مع مارك.

«الغد» كان ذكرى لقائي بإليزابيت. لو بقيت حية لكنا سنحفر غدًا الخط الحادي والعشرين على تلك الشجرة. قد يبدو ما سأقوله غريبًا، ولكن الغد لن يكون شاقًا بالنسبة إلي. فمن عادتي في المناسبات والأعياد وذكرى ميلاد إليزابيت، أن أتهيأ تمامًا، ما يسمح لي بأن أعيشها بدون مشاكل. الأيام العادية هي التي كانت شاقة. عندما أقلب مثلًا محطات التلفزيون بجهاز التحكم عن بعد، لأصادف حلقة كلاسيكية من برنامج ماري تايلور مور أو تشيرز، أو عندما أسير في مكتبة وألمح رواية جديدة لأليس هوفمان أو آن تايلور، أو حين أستمع إلى موسيقى أوجايز أو فور توبس أو نينا سيمون. تفاصيل الحياة العادية هي التي كانت مؤلمة.

أجبتُ: «وعدتُ والدة إليزابيت بأنني سأزورها.»

«آه يا بِكْ...» كانت شونا تنوي الدخول في جدال، لكنها استدركت قائلة: «ما رأيك في أن تأتي بعد انتهاء الزيارة؟»

أجبتُ: «طبعًا.»

أمسكتني شونا من ذراعي، وقالت لي: «أنت تختفي من جديد، يا بِكْ.»

لم أجب.

أضافت: «أنا أحبك، تعرف هذا. لو كنت تتمتع بشيء من الجاذبية الجنسية، فلربما كنت اخترتك أنت عوضًا عن شقيقتك.»

– أشعر بالإطراء، حقًا.

– لا تستبعدني. إذا استبعدتني، تستبعد الجميع. تحدّث إلي. حسنًا؟

– حسنًا.

لكنني لم أكن قادرًا على ذلك.

كدت أمحو الرسالة الالكترونية.

كنت أتلقى كل يوم في بريدي الإلكتروني قدرًا كبيرًا من الرسائل التافهة والدعايات والمنشورات العشوائية، لدرجة أنني أصبحت بارعًا باستخدام زر الحذف. وأسلوبي في ذلك أن أبدأ بقراءة عنوان المُرسل، فإذا كان شخصًا أعرفه أو من المستشفى، أتابع القراءة، وإلا ألجأ إلى زر «حذف» بحماسة كبيرة.

جلست إلى مكتبي وألقيت نظرة على جدول مواعيدي لفترة بعد الظهر. كان مليئًا حتى الاختناق، وهو ما لم يكن مفاجئًا. درتُ بكرسي دورة كاملة وأعددتُ إصبعي للحذف. بقيت رسالة إلكترونية واحدة فقط، هي تلك التي جعلت هومر سيمبسون يزعق قبل قليل. ألقيت على الرسالة نظرة سريعة شاملة، فتجمدت عيناي عند الحرفين الأولين من موضوعها.

قلت: «تبًا، ما...؟»

كانت تهيئة النافذة لا تسمح لي إلا برؤية ذينك الحرفين وعنوان البريد الإلكتروني للمرسل. لم يكن العنوان مألوفًا لدي، فقط عدد من الأرقام ينتهي بـ @comparama.com.

ضاقت عيناي وضغطتُ زر التنقل الأيمن. راح الموضوع يظهر حرفًا بعد الآخر، ومع كل نقرة، كانت خفقات قلبي تتسارع أكثر، واضطرب تنفسي. أبقيتُ إصبعي فوق زر التنقل ورحت أنتظر.

عندما انتهيتُ وظهرت كل الحروف، قرأت مجددًا موضوع الرسالة، فشعرت وكأن ضربة هائلة مكتومة تهوي على قلبي.

twitter @baghdad_library

«دكتور بِكْ؟»

خانتني الكلمات.

– دكتور بِكْ؟

– مهلًا دقيقة واحدة، يا واندا.

ترددت واندا. سمعتُها لبرهة عبر جهاز الاتصال الداخلي، ثم سمعته يُغلَق.

واصلتُ التحديق في الشاشة.

إلى: dbeckmd@nyhosp.com

من: 13943928@comparama.com

الموضوع: إ. ب. + د. ب. /////////////////////

واحد وعشرون خطًا. عددتُها أربع مرات.

لقد كانت مزحة قاسية، سقيمة. أدركتُ ذلك. شددتُ قبضتي، وتساءلتُ عمن عساه يكون ذلك النذل الجبان الذي أرسل الرسالة. من السهولة بمكان أن يبقى المرء مجهول الهوية في عالم الرسائل الإلكترونية، أفضل ملجأ للجبناء الضليعين بالتكنولوجيا. ولكن الحقيقة أن قلة قليلة جدًا من الناس كانت تعلم بأمر الشجرة أو ذكرى لقائنا. لم يكن هذا الموضوع قد تسرب إلى وسائل الإعلام قط. كانت شونا تعلم بالطبع، وكذلك ليندا. لعل إليزابيت أخبرت والديها أو عمها. ولكن خارج تلك الدائرة الصغيرة...

إذًا من عساه أرسلها؟

كنت أرغب بالطبع في قراءة الرسالة، ولكن ثمة ما منعني. في الحقيقة، أفكر في إليزابيت أكثر بكثير مما أظهِر للناس. لا أظنني أخدع أحدًا بذلك، ولكنني لا أتحدث عنها ولا عما جرى أبدًا. يظنني الناس أبالغ في التظاهر بالرجولة، أو شجاعًا، أو أحاول أن أجنب أصدقائي عبء الموقف، أو أهرب من شفقة المحيطين بي، أو أي هراء من هذا القبيل. ولكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق، فقد كان الحديث عن إليزابيت يؤلمني كثيرًا، فأسمع مجددًا

صرختها الأخيرة. وتعود إلي كل الأسئلة التي بقيت بدون إجابات. وأعود إلى التفكير في ما كان ممكنًا أن يكون. صدقًا، إن القليل فقط من الأشياء يحطم الفؤاد كما يفعله التفكير في «ما كان ممكنًا أن يكون». كان الحديث عنها يعيد إلي الشعور بالذنب، والإحساس، بالرغم من لا عقلانية هذا الاحساس، بأن رجلًا أقوى مني – بأن رجلًا أفضل مني – لربما استطاع إنقاذها.

يقولون إن استيعاب مأساة يستغرق وقتًا طويلًا. فالحواس تكون مخدرة، ونكون عاجزين عن تقبّل الواقع المأساوي بشكل ملائم. أيضًا، هذا الأمر غير صحيح، بالنسبة إلي على أي حال. أدركت على الفور كل المضاعفات لحظة عثروا على جثة إليزابيت. أدركت تمامًا أنني لن أراها ثانية أبدًا، وأنني لن أضمها إلى صدري ثانية أبدًا، وأننا لن ننجب أطفالًا أبدًا، وأننا لن نشيخ معًا. أدركت أن الأمر نهائي، ولا رجوع عنه، وأن شيئًا لا يمكن استعادته بالمقايضة ولا بالمفاوضة.

بدأت بالبكاء على الفور، وانتحبت بحرقة وبشكل خارجٍ عن السيطرة. تواصل نحيبي على هذا النحو لمدة أسبوع تقريبًا، بدون توقف. إنتحبتُ طوال الجنازة، ولم أدع أحدًا يلمسني، ولا حتى شونا أو ليندا. نمت وحدي في سريرنا، دافنًا رأسي في وسادة إليزابيت، محاولًا أن أشم رائحتها. بحثتُ في خزائنها، ودفنتُ وجهي في ملابسها. ولم أجد في كل ذلك أي عزاء، كان تصرفًا غريبًا ومؤلمًا. ولكنه كان عطرها، وجزءًا منها، وقد فعلتُ ما فعلتُ.

كان الأصدقاء حسني النيّة – وهم غالبًا أسوأ أنواع الأصدقاء – يتوجهون إلي بالعبارات التقليدية. لذلك أجدني في موقع مناسب تمامًا لتحذيركم: إكتفوا بتقديم تعازيكم العميقة. لا تقولوا لي إنني لا أزال في مقتبل العمر. لا تقولوا لي إنني سأصبح أفضل حالًا مع مرور الوقت، وإنها الآن في مكان أفضل. لا تقولوا لي إن هذا جزء من تدبير إلهي. لا تقولوا لي إنني كنت محظوظًا لأني عرفت حبًا عظيمًا كهذا. كانت كل تلك العبارات السطحية تغيظني. كانت تجعلني – وما سأقوله الآن سيبدو مجردًا من الإنسانية – أحدق إلى الأحمق الذي يتفوه بها وأتساءل لماذا لا يزال – أو لا تزال – يتنفس في حين أن حبيبتي إليزابيت تتفسخ.

twitter @baghdad_library

لطالما سمعتُ أيضًا تفاهات نحو «خير لك أن تحب وتخسر...» فكرة زائفة أخرى. صدقوني، ليس الأمر أفضل أبدًا. لا تجعلوني أرى الجنة، ثم تحرقونها. هذه هي الناحية الأنانية من الألم. ما كان يؤلمني أكثر – إلى درجة العذاب – هو أن إليزابيت قد حُرِمت الكثير. لن تتخيلوا كم مرة أرى أو أفعل شيئًا ما، وأجدني أفكر في أنها كانت لتحبه، فيعود جرح الألم لينزف من جديد.

يتساءل الناس عما إذا كنت نادمًا على شيء. الجواب: على أمر واحد فقط، أنا نادم على كل لحظة أهدرتها في القيام بأمر غير إسعاد إليزابيت.

– دكتور بِكْ؟

– مهلًا، ثانية واحدة بعد.

وضعت يدي على فأرة الكمبيوتر حتى أصبح المؤشر فوق أيقونة القراءة، فنقرتها وظهرت الرسالة:

إلى: dbeckmd@nyhosp.com

من: 13943928@comparama.com

الموضوع: إ. ب. + د. ب. ////////////////////

الرسالة: أنقر هذا الرابط التشعبي، وقت القبلة، ذكرى اللقاء السنوية.

أُطبقت على صدري كتلة من الرصاص.

وقت القبلة؟

هذه مزحة. لا بد من أنها كذلك. لم أكن ماهرًا في فك الألغاز، ولا كنت بالشخص الصبور.

أمسكت فأرة الكمبيوتر ثانية، وحركت المؤشر فوق الرابط التشعبي. نقرته، فسمعتُ خشخشة المودم، وكأنها دعوة وصال خاصة بالآلة. كان نظام المعلوماتية في العيادة قديمًا، وتأخر ظهور متصفح الشبكة. لبثتُ أنتظر متسائلًا: **«ساعة القبلة؟ ما أدراهم بساعة القبلة؟»**

ظهر المتصفح، وعليه إشعار «خطأ».

عقدت حاجبي. تبًا لشياطين الجحيم، مَن أرسل هذا؟ حاولت مرة أخرى فتح الرابط، ومن جديد ظهر إشعار الخطأ. كان الرابط معطلًا.

تبًا لشياطين الجحيم، مَن كان على علم بأمر وقت القبلة؟

لم أخبر أحدًا بذلك قط. لم نتطرق، إليزابيت وأنا، إلى الأمر كثيرًا، ربما لأنه لم يكن ذا أهمية كبيرة. من شدة رومانسيتنا كنا نتكتم على هذه الأمور. في الواقع كان الأمر محرجًا، ولكننا حين تبادلنا قبلتنا الأولى تلك منذ واحد وعشرين عامًا، سجلتُ الساعة، من قبيل التسلية. ابتعدتُ قليلًا عن إليزابيت، ونظرت إلى ساعة يدي وقلتُ: «السادسة والربع».

قالت إليزابيت: «وقت القبلة.»

نظرت إلى الرسالة من جديد. بدأ الغضب ينتابني. كان الأمر أكثر بكثير من مجرد مزحة. أن يرسل أحدهم رسالة قاسية هو شيء، ولكن...

وقت القبلة.

حسنًا، وقت القبلة هو الساعة السادسة والربع من مساء الغد. لا مفر من الانتظار حتى ذلك الحين.

فليكن.

حفظت الرسالة الالكترونية على قرص مرن، تحسبًا. فتحتُ على الشاشة خيارات الطبع ونقرت «طباعة الكل». لا خبرة لي في الكمبيوتر، ولكنني أعلم أن من الممكن أحيانًا تعقب مصدر الرسائل الإلكترونية بواسطة تلك الكلمات المبهمة في أسفلها. سمعتُ خرير الطابعة. ألقيت نظرة أخرى على موضوع الرسالة، وعددتُ الخطوط من جديد. لا تزال واحدًا وعشرين.

رحت أفكر في تلك الشجرة وفي قبلتنا الأولى تلك. وهناك في مكتبي الضيق الخانق بدأتُ أشم رائحة سكاكر «بيكسي ستيكس» بنكهة الفراولة.

twitter @baghdad_library

2

في المنزل، كانت بانتظاري صدمة أخرى من الماضي.

أسكن بلدة غرين ريفر في نيوجرسي، في الناحية المقابلة لجسر جورج واشنطن من جهة مانهاتن، وهي بلدة نموذجية ترقى إلى أن تكون الضاحية الأميركية الحلم. لكن تلك البلدة، واسمها يعني «النهر الأخضر»، لا تشبه اسمها في شيء. فلا نهر فيها، كما أن مساحاتها الخضراء تتضاءل يومًا عن يوم. «المنزل» هو منزل جدي، الذي انتقلتُ إليه لأسكن معه ومع مجموعة من الممرضات الأجنبيات اللواتي يتبدلن باستمرار – واحدة تأتي والأخرى تغادر، بعدما ماتت جدتي منذ ثلاثة أعوام.

كان جدي مصابًا بمرض ألزهايمر، ويشبه ذهنه قليلًا جهاز تلفزيون أبيض وأسود قديمًا ذا هوائي معطل، من ذلك النوع الذي يرتفع بقضيبين منفرجين كأذني الأرنب. أي أنه كان كصورة التلفاز، يظهر ثم يختفي، وفي بعض الأيام بصورة أفضل مما في أيام أخرى، حين يجب تثبيت الهوائي بوضعية معينة، بدون أن نتحرك. ولكن حتى في تلك الوضعية تُواصل الصورة تقلبها العمودي المتقطع. على الأقل، هذا ما كان عليه الوضع في السابق. أما مؤخرًا – ولكي نبقى في إطار الاستعارة عينها – فنادرًا ما بات التلفزيون يومض.

لم أحب جدي حبًا حقيقيًا قط. فقد كان شخصًا متسلطًا، قديم الطراز، بذل جهودًا هائلة لتحقيق ذاته، لا يسبغ عاطفته على الأفراد إلا بمقدار

نجاحهم. كما كان فظا، قليل التعبير عن مشاعره، ومبالغًا، شأن رجال الزمن الغابر، في التمسك بصفات الذكورة. وبالنسبة إلى رجل كهذا، فإن حفيدًا مرهف المشاعر، هش البنية وقليل الاهتمام بالرياضة، لم يكن ليحظى باهتمامه أبدًا حتى ولو كان متفوقا في الدراسة.

لم يدفعني للموافقة على السكن معه إلا معرفتي بأن شقيقتي كانت ستأتي به للإقامة في منزلها لو لم أفعل. هكذا هي ليندا. في مخيم بروكلايك الصيفي، وخلال غناء تلك الأغنية «هو يحمل العالم كله بين يديه»، كانت تأخذ كلمات الأغنية بمعناها الحرفي إلى حدّ المبالغة أحيانًا. كانت ستشعر بأن من واجبها أن تأخذ الأمر على عاتقها. ولكن لليندا ابنًا وشريكة حياة ومسؤوليات، على عكسي أنا. فاستبقتُها وانتقلتُ للإقامة مع جدي. كما أنني أحب السكن هنا، فالمكان هادئ.

ركضت كلبتي كلوي لاستقبالي وهي تهز ذيلها. حككتُها خلف أذنيها المتدليتين. استسلمت لذلك لهنيهة، ثم أخذت تنظر إلى رسنها نظرات ذات معنى.

قلت لها: «دقيقة واحدة.»

لم تكن هذه العبارة تروق كلوي، فرمقتني بنظرة معاتبة، وليس ذلك بالأمر السهل على مَن يغطي الشعر عينيه تمامًا. كانت كلوي كلبة من فصيلة الكولي الملتحي، وهي فصيلة تشبه الكلاب الرعاة أكثر من أي نوع آخر رأيته من كلاب الكولي. اشتريتُ وإليزابيت كلوي بُعيد زواجنا، فهي كانت تحب الكلاب، على عكسي. ولكنني الآن صرت أحبها.

أسندت كلوي جسدها إلى الباب الأمامي، ونظرتْ إلى الباب، ثم إلي، ثم إلى الباب مجددًا. كان ما تلمح إليه في غاية الوضوح.

تراخى جدي جالسًا أمام برنامج ألعاب يُعرض على التلفاز. لم يستدر نحوي، كما لم يبدُ عليه أنه ينظر إلى الشاشة كذلك. تجمد وجهه في هيئة قناع شاحب لا حياة فيه، كقناع الموت. لم أرَ ذلك القناع يختفي إلا عند تغيير حفاضه، فآنذاك كان يزم بشفتيه، وترتخي عضلات وجهه، وتغرورق عيناه حتى أن دمعة كانت تسيل أحيانًا. برأيي أن تفكيره يكون في أوج صفائه في تلك اللحظات، حيث لا شك بأنه يفضل خرف الشيخوخة.

twitter @baghdad_library

حقًا إن الله يمتلك روح دعابة.

تركت الممرضة رسالة على طاولة المطبخ تقول: «إتصل بالشريف لويل.» وتحتها رقم هاتف مكتوب على عجل.

راح رأسي ينبض على نحو مؤلم. منذ الهجوم وأنا أعاني صداع الشقيقة، فالضربات التي تلقيتها أحدثت شقا في جمجمتي. عولجتُ في المستشفى لخمسة أيام، برغم أن طبيبًا اختصاصيًا – وهو زميل لي في كلية الطبْ – كان يعتقد أن مصدر آلام الشقيقة نفسي أكثر منه جسدي، ولعله على حق. مهما يكن من أمر، فإن الألم والإحساس بالذنب قد لازماني. كان يجب أن أنحني وأتجنب الضربات. كان يجب أن أراها، وألا أسقط في الماء. وأخيرًا، ما دمت قد استجمعت ما يكفي من القوة لإنقاذ نفسي، أما كان يجب أن أجد القوة الكافية لإنقاذ إليزابيت؟

أعلم جيدًا أنه لا جدوى من التفكير في كل هذا.

أعدت قراءة الرسالة مرة أخرى. بدأت كلوي تئن مجددًا، فرفعتُ إصبعي في وجهها محذرًا. توقفتْ عن الأنين لكنها راحت تنقل نظراتها بيني وبين الباب مجددًا.

لم أسمع خبرًا من الشريف لويل منذ ثماني سنوات، لكنني ما زلت أتذكره ينحني فوق سريري في المستشفى، وقد ارتسمت على وجهه بوضوح إمارات الشك والسخرية.

ما عساه يريد بعد كل هذه السنوات؟

رفعتُ سماعة الهاتف وطلبت الرقم. أجاب صوت بعد الرنة الأولى:

– دكتور بِكْ، شكرًا على معاودتك الاتصال.

لم أكن من المعجبين بخدمة كشف هوية المتصل، فهي تُشعرني بأنني أخضع للمراقبة أكثر من اللازم. تنحنحتُ لأنقي حلقي، وتجاوزت عبارات المجاملة قائلًا:

– ماذا بوسعي أن أفعل لمساعدتك أيها الشريف؟

– أنا في مكان قريب منك، أود كثيرًا أن أعرج عليك، ما لم يكن لديك مانع.

– هل هي زيارة لياقة؟

– في الواقع، لا.

إنتظر مني أن أعلق على الموضوع، ولكنني لم أفعل. فسألني:

– هل يناسبك استقبالي الآن؟

– هلا تخبرني ما الأمر؟

– أفضل الانتظار إلى أن...

– أنا لا أفضل الانتظار.

شعرتُ بقبضة يدي تشتد بغضب على سماعة الهاتف.

– حسنًا يا دكتور بِكْ، أتفهم الأمر.

قال هذا وتنحنح بطريقة أوحت بأنه كان يحاول أن يكسب بعض الوقت. وأضاف:

– لعلك شاهدت في نشرة الأخبار خبر العثور على جثتين في مقاطعة رايلي.

لم أكن قد شاهدت الخبر، فسألته:

– إذًا، ما الأمر؟

– عُثر عليهما بالقرب من ملكيتك.

– إنها ليست ملكيتي بل ملكية جدي.

– لكنك الوصي القانوني عليه، أليس كذلك؟

– لا، شقيقتي هي الوصية عليه.

– أرجو منك الاتصال بها. أرغب في محادثتها أيضًا.

– لم يُعثر على الجثتين في بحيرة شارماين، أليس كذلك؟

– صحيح، عثرنا عليهما في قطعة أرض قريبة، تعود ملكيتها للمقاطعة.

– إذًا، ماذا تريد منا؟

مرت لحظة صمت. ثم قال لويل:

– إسمع، سوف أصل بعد ساعة. أرجو منك أن ترتب حضور ليندا. هلا تفعل؟

ثم أقفل الخط.

twitter @baghdad_library

كانت السنوات الثماني قد تركت آثارها القاسية على وجه الشريف لويل، برغم أنه لم يكن في البداية بوسامة ميل غيبسون. فهو، برأسه الشبيه برأس البولدوغ، يذكرني بهيئة كلب أجرب، حتى يكاد وجه نيكسون، إذا ما قورن به، يبدو وكأنه خضع لعملية تجميل. كما كانت نهاية أنفه منتفخة كرأس البطاطا. وكان يُخرج باستمرار منديلًا باليًا، ويفتحه بعناية ليمسح أنفه، ومن ثم يعيد طيّه بعناية، ليدسه عميقًا في جيبه الخلفي.

كانت ليندا قد وصلت، وجلست مائلة بجسدها إلى الأمام على أريكة، مستعدة لحمايتي. غالبًا ما تجلس هكذا. كانت واحدة ممن يولون الآخر اهتمامهم بالكامل، فتحدق إليه بعينيها البنيتين الكبيرتين، حتى لا يعود يرى سواهما. لا شك في أن موقفي متحيز كليًا، ولكن ليندا هي أفضل شخص أعرفه. صحيح أن ما أقوله مبتذل، ولكن وجودها يمنحني أملًا في العالم، وحبها لي هو كل ما تبقى لديّ.

جلسنا في غرفة الاستقبال الخاصة بجدي، والتي أبذل في العادة قصارى جهودي لأتجنبها. كانت تلك الغرفة بالية وتبعث القشعريرة، كما تفوح منها رائحة أرائك المسنين. شعرت بصعوبة في التنفس فيها. أخذ الشريف لويل وقته ليستقر قي جلسته، ثم مسح أنفه بضع مرات أخرى، وأخرج من جيبه دفتر ملاحظات صغيرًا، ولعق إصبعه، وبحث عن الصفحة المطلوبة. بعد ذلك، توجه إلينا بألطف ابتساماته، وبدأ الكلام.

– هلا تخبرانني متى كانت آخر مرة ذهبتما فيها إلى البحيرة؟

أجابت ليندا: «كنت هناك الشهر الماضي.»

لكن نظراته كانت موجهة إلي، فسألني:

– وأنت يا دكتور بِكْ؟

– منذ ثماني سنوات.

هز برأسه كما لو أنه كان يتوقع هذا الجواب، وأضاف: «كما ذكرت عبر الهاتف، عثرنا على جثتين عند بحيرة شارماين.»

سألته ليندا: «هل استطعتم التعرّف عليهما؟»

– كلا.

– أليس هذا غريبًا؟

فكر لويل في الأمر وهو يميل إلى الأمام ليسحب منديله مجددًا. وأضاف: «نعلم أن الجثتين تعودان لرجلين بالغين أبيضين. نفتش الآن في أسماء المفقودين لنرى ما قد نجده. لكنهما قديمتان.»

سألتُه: «كم تعني بـ«قديمتان»»؟

مجددًا، التقى نظرانا، وأجاب: «يصعب الجزم بذلك. لا يزال أفراد الشرطة الجنائية يجرون التحاليل، لكننا نعتقد أن الوفاة حدثت منذ خمس سنوات على الأقل. لقد أُخفِيَتا بشكل جيد أيضًا، وما كنا لنجدهما لولا انزلاق التربة الذي سببته الأمطار الغزيرة، ولولا أن دبًا عثر على ذراع.»تبادلت وشقيقتي النظرات.

قالت ليندا: «عفوًا؟»

هز الشريف لويل رأسه، وأجاب: «قتل صياد دبًا، ووجد عظمة بجانب جثته، كانت في فم الدب، ليتبين لاحقًا أنها ذراع بشرية. فتشنا عن بقية الجثة، وقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا. كما أننا لا نزال نحفر في المنطقة.»

– هل تعتقدون أن هناك المزيد من الجثث؟

– لا أستطيع أن أجزم بذلك.

إستويتُ في مقعدي، بعكس ليندا التي حافظت على تركيزها. وسألتُه:

– إذًا هل أتيتَ تسأذننا للحفر في عقار بحيرة شارماين؟

– هذا بعض ما أريد.

إنتظرنا أن يضيف الشريف شيئًا. تنحنح، ونظر إلي مجددًا، وسألني: «دكتور بِكْ، فئة دمك هي باء إيجابي، أليس ذلك صحيحًا؟»

فتحت فمي لكن ليندا وضعت يدها على ركبتي وكأنها تحاول حمايتي، وسألتْه:

– ما علاقة هذا بأي شيء؟

– وجدنا أشياء أخرى عند موقع القبر.

– أية أشياء؟

– آسف. الأمر سري.

twitter @baghdad_library

قلت له: «إذًا، اخرج من هنا حالًا.»

لم يبدُ على لويل أن فورة غضبي فاجأته كثيرًا، وعقب يقول:

– أحاول فقط أن أجري...

– قلت لك: اخرج.

لم يتحرك الشريف لويل من مكانه، بل قال لي:

– أعلم أن قاتل زوجتك قد سُلم إلى العدالة ليلقى جزاءه، وأعلم أن إثارة هذا الموضوع مجددًا أمر مؤلم للغاية.

– دعني من شفقتك.

– لم تكن هذه نيتي.

– منذ ثمانية أعوام، ظننتَني أنا قاتلها.

– هذا ليس صحيحًا. كنتَ زوجها، وفي قضايا كهذه، يكون احتمال ضلوع أحد أفراد العائلة...

– لو لم تهدر الوقت في هراء كهذا، لربما كان بوسعك العثور عليها قبل أن...

إنتفضتُ منتصبًا، وأنا أشعر بالاختناق. أشحت بوجهي بعيدًا. اللعنة! اللعنة عليه! حاولت ليندا أن تلمسني ولكنني ابتعدتُ.

تابع قائلًا بصوت رتيب: «كان واجبي البحث في جميع الاحتمالات. وطلبنا مساعدة السلطات الفدرالية. حتى والد زوجتك وشقيقه أُبقيا على اطلاع على مجريات التحقيق. لقد فعلنا كل ما بوسعنا.»

لم أعد أحتمل سماع المزيد. وسألته: «سحقًا! ما الذي تريده الآن، يا لويل؟»

هب واقفًا ورفع سرواله إلى خصره، أظنه أراد بوقوفه أن يبدو مسيطرًا، ليثير فيّ الرهبة. وقال:

– أريد عينة دم، منك أنت.

– لماذا؟

– عندما خُطفت زوجتك، تعرضتَ للاعتداء.

– إذًا؟

– وضُربتَ بأداة غير حادة.

– أنت على علم بكل هذا.

– أجل.

مسح لويل أنفه مجددًا، ثم دس المنديل في جيب سرواله وراح يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وأضاف:

– عثرنا مع الجثتين على مضرب بايسبول أيضًا.

عاد الألم ينبض بشدة في رأسي مجددًا. سألتُه: «مضرب؟»

أومأ لويل برأسه إيجابًا، وأضاف: «كان ثمة مضرب خشبي مدفون مع الجثتين.»

قالت ليندا: «لا أفهم ما علاقة أخي بهذا الأمر.»

أجاب: «وجدنا عليه دمًا جافا، تبين أن فئته هي باء إيجابي.» ثم مال برأسه نحوي، وأضاف: «أي فئة دمك يا دكتور بِكْ.»

إستحضرنا تفاصيل ذلك اليوم مجددًا، منذ بدايتها. الذكرى السنوية لحفر الخطوط على الشجرة، السباحة في البحيرة، صوت باب السيارة، سباحتي المذعورة والمثيرة للشفقة حتى الشاطئ.

سألني:

– هل تتذكر أنك عدتَ للسقوط في البحيرة؟

– نعم.

– وسمعت زوجتك تصرخ؟

– نعم.

– ومن ثم غبت عن الوعي؟ في الماء؟

أومأت برأسي إيجابًا.

– كم يبلغ بتقديرك عمق المياه؟ أعني حيث سقطت.

– ألم تتحقق من ذلك منذ ثماني سنوات؟

– تحمل أسئلتي قليلًا، دكتور بِكْ.

– لا أعلم. كانت عميقة.

twitter @baghdad_library

– عميقة إلى ما فوق رأسك؟

– نعم.

– حسنًا. ماذا تتذكر بعد ذلك؟

– المستشفى.

– ألا تتذكر شيئًا بين لحظة سقوطك في الماء، ولحظة استيقظت في المستشفى؟

– صحيح.

– ألا تتذكر خروجك من الماء؟ ألا تتذكر سيرك إلى الكوخ أو الاتصال بسيارة إسعاف؟ تعلم أنك فعلت كل هذا. وجدناك على أرض الكوخ، وسماعة الهاتف لا تزال متدلية.

– أعلم هذا. ولكنني لا أتذكر.

قالت ليندا: «هل تعتقد أن ذينك الرجلين هما أيضًا ضحيتان لـ...» ترددت قليلًا وأضافت: «لروي السفاح؟»

قالت ذلك في ما يشبه الهمس. روي السفاح. كان مجرد ذكر اسمه يبعث في الغرفة برودة.

سعل لويل في قبضة يده، وأجاب: «لسنا متأكدين من ذلك، سيدتي. ضحايا روي السفاح المعروفات هن فقط من النساء. كما لم يِسبق له أن أخفى جثة قط. أقله، بحسب علمنا. وقد تفسخ جلد ذينك الرجلين، فلم يعد بوسعنا معرفة ما إذا وُسما.

وُسما. شعرتُ برأسي يدور، وأغمضت عينيّ محاولًا ألا أسمع المزيد.

3

أسرعت إلى عيادتي باكرًا في الصباح التالي، ووصلت إليها قبل ساعتين من موعد المريض الأول. شغلتُ الكمبيوتر، ووجدت الرسالة الإلكترونية الغريبة، ثم نقرت الرابط التشعبي. من جديد ظهر إشعار «خطأ»، ولم تكن تلك بمفاجأة. أمعنت النظر في الرسالة، وأعدت قراءتها مرة تلو الأخرى وكأنني قد أجد بين سطورها معنى جديدًا أعمق. عبثًا فعلت.

أعطيتُ في العشية عينة من دمي. الوصول إلى نتيجة فحص الحمض النووي يستغرق أسابيع، ولكن الشريف لويل يعتقد أن من الممكن معرفة نتيجة أولية خلال فترةٍ أقل. حاولت الضغط عليه لمعرفة معلومات جديدة، لكنه كان متكتمًا للغاية. ثمة شيء كان يخفيه عنا، ولم أدرِ قط ما هو.

جلستُ في غرفة الفحص أنتظر المريض الأول، ورحت أستعيد في ذهني تفاصيل زيارة الشريف لويل. وفكرتُ في الجثتين، وفي مضرب البايسبول الخشبي المضرج بالدماء. حتى أنني فكرتُ في الوسم.

عُثر على جثة إليزابيت عند حافة الطريق 80 بعد خمسة أيام من اختطافها. وقدر الطبيب الشرعي أن الوفاة حدثت قبل يومين، أي أنها أمضت ثلاثة أيام حية مع إلروي كيلرتون، المعروف بـ«روي السفاح». ثلاثة أيام، وحيدة برفقة وحش. ثلاثة أيام بشروق شمسها وغروبها مرت عليها، مرمية في الظلام تعاني خوفًا وعذابًا هائلين. أحاول جاهدًا أن أتجنب

twitter @baghdad_library

التفكير في الموضوع. ثمة أماكن خير للعقل ألا يذهب إليها، لأنه سيتوه فيها بلا شك.

قُبض على روي السفاح بعد ثلاثة أسابيع. واعترف بقتل أربع عشرة امرأة في سلسلة جرائم، بدأت بطالبة في آن آربور وانتهت ببائعة هوى في برونكس. وُجدت جثث النساء الأربع عشرة جميعهن ملقاة على حافة الطريق كأكوام النفايات، وقد وُسمن جميعًا بحرف «ك»، تمامًا كما توسم الماشية. أي أن إلروي كيلرتون أتى بمسعر معدني، حماه في نار متأججة، ثم وضع يده في قفاز وقاية، وانتظر حتى تحول لون المسعر اللاهب إلى الأحمر، ووسم به بشرة حبيبتي إليزابيت الجميلة، حتى تصاعد منها نشيش اللحم المحترق.

من جديد، انحرف ذهني في أحد تلك الاتجاهات الخطأ، وبدأت الصور المؤلمة تتدفق. أغمضت عينيّ بشدة محاولًا طردها، لكن ذلك لم يجدِ نفعًا. للمناسبة، لا يزال «روي السفاح» حيًا. كان نظام الاستئناف في محاكمنا يمنح هذا الوحش فرصة لكي يتنفس، ويقرأ، ويتحدث، وتُجرى معه مقابلة تلفزيونية على محطة «سي.أن.أن»، ويتلقى زيارات فاعلي الخير، ويبتسم، في حين أن جثث ضحاياه تهترئ. إن الله، كما قلتُ، يمتلك روح دعابة.

رششتُ وجهي بماء بارد ونظرت إلى نفسي في المرآة، فوجدتني في حالة يرثى لها. بدأ المرضى يصلون ابتداءً من التاسعة، إلا أنني كنت شارد الذهن طبعًا. ظللت أرقب ساعة الحائط، منتظرًا وقت القبلة عند السادسة والربع مساءً. لكن العقربَين كانا يتحركان ببطء شديد وكأنهما وسط سائل دبق.

إنغمستُ كليًا في العناية بالمرضى. لطالما كنت أتمتع بتلك القدرة، ففي صباي، كان بوسعي الدراسة لساعات طويلة. وكطبيب، أستطيع الآن إغراق نفسي في العمل. هذا ما فعلته بعد موت إليزابيت. يشير البعض إلى أنني ألوذ بعملي، وأنني اخترت العمل بدلًا من الحياة، فأرد على تلك الاستنتاجات المكررة بعبارة بسيطة: «ما غايتك؟»

عند الظهر، أكلت شطيرة من الجانبون وشربت «دايت كوك»، ثم عاينت المزيد من المرضى. كان ثمة فتى في الثامنة من عمره قام بزيارة أحد المعالجين اليدويين، من أجل تقويم عموده الفقري، حوالى الثمانين

مرة خلال العام الذي فات، وهو لا يشكو من أي آلام في الظهر. تلك عملية احتيال يمارسها عدد من المعالجين اليدويين المحليين، فيقدمون للأهالي جهاز تلفزيون أو فيديو مجانيًا مقابل إحضارهم أطفالهم للزيارة، ثم يرسلون فواتير معاينة إلى برنامج «ميديكايد للرعاية الطبية». إن ذاك البرنامج هو أمر رائع وضروري، لكنه يتعرض للاستغلال الشديد. وذات مرة، هُرع إلي بفتى في السادسة عشرة من عمره في سيارة إسعاف، من أجل حروق شمس روتينية. ولماذا جيء به في سيارة إسعاف بدلًا من سيارة أجرة أو بقطار الأنفاق؟ عللت لي والدته الأمر بأنها كانت ستضطر هي إلى دفع أجرة النقل أو تنتظر الحكومة لتعوضها عليها، في حين أن برنامج «ميديكايد للرعاية الطبية» يدفع نفقة النقل بسيارة الإسعاف في الحال.

عند الخامسة مساءً، ودعت آخر مريض لي. ثم غادر موظفو المركز الطبي عند الخامسة والنصف. إنتظرت أن أصبح وحدي تمامًا في العيادة قبل أن أجلس أمام شاشة الكمبيوتر. كنت أسمع من بعيد رنين أجراس الهواتف في العيادة. وكان ثمة مجيب آلي يتلقى المكالمات الواردة ابتداءً من الخامسة والنصف ثم يقدم للمتصل خيارات عدة. ولكن المجيب الآلي لم يكن، ولسبب ما، يعمل قبل الرنة العاشرة، فكادت أصوات الرنين المتواصل تفقدني صوابي.

إتصلت بالإنترنت، وبحثت عن الرسالة الإلكترونية، ثم نقرت مجددًا الرابط التشعبي، فوجدته لم يعمل بعد. رحت أفكر في هذه الرسالة الغريبة وفي تينك الجثتين. لا بد من وجود علاقة ما. كان عقلي يعود مرة تلو الأخرى إلى تلك النقطة البسيطة في ظاهرها، وبدأتُ أستعرض الاحتمالات.

الاحتمال الأول: القتيلان هما ضحيتان لروي السفاح. صحيح أن ضحاياه الأخرى كن من النساء، وتم العثور عليهن بسهولةٍ، ولكن هل هذا ينفي إمكانية قتله أناسًا آخرين؟

الاحتمال الثاني: روي السفاح أقنع هذين الرجلين بمعاونته على اختطاف إليزابيت. وهذا الاحتمال قد يفسر الكثير من الأمور، كمضرب البايسبول مثلًا، إذا ما ثبت أن الدم الذي وجد عليه هو دمي. كما أن هذا

twitter @baghdad_library

الاحتمال أجاب على سؤال محير يتعلق بعملية الخطف برمتها. من الناحية النظرية، كان روي السفاح، شأنه شأن كل القتلة التسلسليين، يعمل منفردًا. ولكنني لطالما تساءلت كيف تمكن من سحب إليزابيت إلى السيارة، وفي الوقت نفسه، تربص بي منتظرًا خروجي من الماء؟ قبل العثور على جثة إليزابيت، افترضت السلطات أن عملية الاختطاف نفذها أكثر من شخص. ولكن تلك الفرضية أُهمِلت بعدما ظهرت الجثة موسومة بالحرف «ك». وقيل إن روي السفاح ربما قام بالأمر بمفرده، وافترض المحققون أنه قيد إليزابيت أو أخضعها بطريقة ما، ثم أتى إلي. لم تكن تلك الفرضية مقنعة تمامًا، غير أن من الممكن قبولها.

أما الآن فقد أصبح لدينا تفسير آخر للموضوع. كان لديه شريكان وقد قتلهما.

أما الاحتمال الثالث فكان الأبسط: الدم الذي وجد على مضرب البايسبول ليس دمي. فئة «باء» إيجابي ليست شائعة كثيرًا، ولكنها أيضًا ليست نادرة. ومن المحتمل أن ما من صلة بين تينك الجثتين وموت إليزابيت.

عجزت عن إقناع نفسي بهذا الاحتمال.

نظرت إلى ساعة الكمبيوتر، المتصلة بقمر اصطناعي يظهر التوقيت الصحيح.

6:04.42 بعد الظهر.

بقيت عشر دقائق وثماني عشرة ثانية.

علامَ؟

إستمر رنين الهواتف، لكنني تجاهلتُه، ورحت أنقر المكتب بأصابعي. بقي أقل من عشر دقائق. حسنًا، إذا كان تغيُر ما سيطرأ على الرابط التشعبي، فلربما قد جرى الآن. وضعت يدي على فأرة الكمبيوتر وأخذتُ نفسًا عميقًا.

دوى صوت جهازي الطنان.

لم أكن الطبيب المناوب لهذا المساء. أي أن هذا الاتصال هو ربما خطأ، الأمر الذي يكرره كثيرًا عاملو الهاتف الليليون في العيادة، أو أنها مكالمة

شخصية. دوى صوت الطنان مجددًا، مرتين، أي أنه أمر طارئ، فألقيت نظرة إلى شاشة الجهاز.

كان الاتصال من الشريف لويل، ويحمل إشعار «طارئ».

بقيت ثماني دقائق.

ترددتُ، لكن ترددي لم يدُم طويلًا. فكل شيء كان أفضل من أن أتقلب على جمر أفكاري، وقررت الاتصال به.

مجددًا، عرف لويل هوية المتصل قبل أن يجيب، فقال لي: «آسف لإزعاجك يا دوك.» أصبح يناديني الآن «دوك»، كما يُنادى الأطباء تحببًا بدلًا من «دكتور» أحيانًا، وكأننا صديقان. أضاف: «لكن لدي سؤالًا صغيرًا أطرحه عليك.»

وضعت يدي على فأرة الكمبيوتر ثانية، وحركت المؤشر فوق الرابط التشعبي، ونقرته، فدبت الحياة في متصفح الويب.

قلت له: «أنا أصغي.»

إستغرق متصفح الويب وقتًا أطول هذه المرة. ولم تظهر إشارة «خطأ».

– أيعني لك اسم سارة غودهارت شيئًا؟

كاد الهاتف يسقط من يدي.

– دوك؟

أبعدت سماعة الهاتف عني وحدقت اليها وكأنها تجسدت في يدي. استجمعتُ نفسي قطعة تلو الأخرى. وحين استعدت صوتي، رفعت سماعة الهاتف مجددًا إلى أذني، وسألته:

– لماذا تطرح علي هذا السؤال؟

بدأ شيء ما بالظهور على شاشة الكمبيوتر. ضيقتُ عينيّ وحدقتُ فيها. كانت الصورة من إحدى كاميرات المراقبة الخارجية المنتشرة على الشبكة الإلكترونية. حتى أنني كنت أحيانًا أتصل بكاميرات حركة المرور، خصوصًا للتحقق من الازدحام على جسر واشنطن خلال ساعات الصباح.

قال لويل: «إنها مسألة يطول شرحها.»

كنت بحاجة لكسب المزيد من الوقت، فعقبتُ عليه: «إذًا، سأعاود الاتصال بك».

twitter @baghdad_library

أنهيت الاتصال. سارة غودهارت. كان الاسم يعني لي شيئًا. كان يعني لي الكثير.

تبًا للجحيم، ماذا يجري؟

توقف متصفح الويب عن التحميل. رأيت على الشاشة مشهدًا بالأبيض والأسود لشارع، فيما بقية الشاشة خالية تمامًا. لا لافتات ولا عناوين. أعلم أنه من الممكن برمجة الصورة بحيث لا يظهر منها إلا مقدار معين، وهذا ما كانت عليه الحال هنا.

نظرت إلى ساعة الكمبيوتر.

6:12.18 بعد الظهر.

كانت الكاميرا موجهة إلى تقاطع مزدحم بعض الشيء، من ارتفاع نحو ثمانية أمتار، تقريبًا، عن سطح الأرض. لم أعرف أي تقاطع كان، أو أية مدينة أنظر إليها. ولكن ما من شك في أنها كانت مدينة كبيرة. كان المشاة يتدفقون في غالبيتهم من اليمين إلى اليسار، خافضي الرؤوس ورازحي الأكتاف، وفي أيديهم حقائب مستندات صغيرة، يسيرون منهكين في نهاية يوم عمل شاق. ربما يتجهون إلى محطة قطار أو حافلات. وإلى أقصى يمين الصورة رأيتُ المنعطف، حيث كان المشاة يصلون أمواجًا أمواجًا، ربما على إيقاع تَبدل ألوان إشارة المرور.

قطبت حاجبي. وتساءلت لماذا أرسل لي أحدهم هذا البث.

كانت الساعة تشير إلى 6:14.21 بعد الظهر. بقي أقل من دقيقة.

تسمرت عيناي على الشاشة وانتظرت العد العكسي كما لو أنها ليلة رأس السنة. بدأ نبضي يتسارع. عشرة، تسعة، ثمانية...

مرت موجة أخرى من البشر من اليمين إلى اليسار. أبعدت عينيّ عن الساعة. أربعة، ثلاثة، اثنان. حبست أنفاسي وانتظرت. عندما نظرت إلى الساعة من جديد، كانت تشير إلى:

6:15.02 بعد الظهر.

لم يحدث شيء. ولكن ماذا كنت أتوقع؟

إنحسرت الموجة البشرية، ومجددًا، ولثانية أو اثنتين، لم يظهر في الصورة أحد. أحكمتُ جلوسي في كرسي، مبتلعًا الهواء بفمي. فكرت في إنها مزحة. مزحة غريبة طبعًا، بل سقيمة، ومع ذلك...

آنذاك، خرج شخص ما من مكان ما تحت الكاميرا مباشرة، بدا وكأنه كان مختبئًا هناك طوال الوقت.

ملت بجسدي إلى الأمام.

كانت امرأة. تبينتُ ذلك برغم أنها تدير لي ظهرها. الشعر قصير، ولكنها امرأة قطعًا. حتى الآن لم أستطع من زاويتي أن أميز أي وجه، ولم يختلف الأمر معها. فقط في البداية.

توقفت المرأة عن السير . أمعنت النظر في قمة رأسها من الخلف، أكاد أستحثها على النظر إلى الأعلى. تقدمتْ خطوة، فأصبحت وسط الشاشة تمامًا. مر بجانبها أحدهم، لكنها بقيت بلا حراك. ثم استدارت ورفعت ذقنها ببطء حتى واجهت الكاميرا تمامًا.

توقف قلبي عن الخفقان.

أقحمتُ قبضة يدي بداخل فمي لأخنق صرخة. كنت عاجزًا عن التنفس. كنت عاجزًا عن التفكير، واغرورقت عيناي بالدموع ثم سالت على خدي، لكنني لم أمسحها.

حدقتُ إليها. وبدورها، حدقت إلي.

عبرت الشاشة موجة أخرى من المشاة. إصطدم بعضهم بالمرأة، لكنها لم تتحرك. بل بقيت نظرتها مسمرة في الكاميرا. رفعت يدها وكأنها تمدها إلي. بدأتُ أشعر بالدوار، وبدا الأمر وكأن كل ما يربطني بالواقع قد قُطع.

وتُركت تائهًا على غير هدى.

أبقت يدها مرفوعة. ورويدًا رويدًا تمكنتُ من رفع يدي. لامست أصابعي الشاشة الدافئة محاولًا ملاقاتها في منتصف المسافة. سالت من وجهي دموع جديدة. وداعبتُ وجه المرأة بلطف، وشعرت بقلبي ينهار ويشتعل لهفة في آن واحد.

همستُ: «إليزابيت».

twitter @baghdad_library

بقيت حيث هي ثانية أو اثنتين، ثم قالت شيئًا للكاميرا. لم يكن بوسعي سماعها ولكنني تمكنت من قراءة شفتيها.

قالت زوجتي الميتة: «أنا آسفة.»

ثم سارت مبتعدة.

4

نظر فيك ليتي يمنة ويسرة قبل أن يدخل بمشية يشوبها بعض العرج إلى مكاتب «صناديق البريد إلخ.» في المجمع التجاري. جال بنظره في أرجاء الغرفة، فلم يرَ أحدًا يراقبه. ممتاز، لم يتمالك فيك نفسه من الابتسام. كانت عمليته الدنيئة محكمة وغير قابلة للفشل. فهي لا تدع أي مجال لتعقبه، كما أنها على وشك تحقيق ثروة ضخمة له.

أدرك فيك جيدًا أن الأساس يكمن في الإعداد الدقيق، فهو ما يفصل بين الرجل الجيد والرجل العظيم. فالعظماء يخفون آثارهم، ويعدون أنفسهم لجميع الاحتمالات.

كان أول ما فعله فيك الحصول على بطاقة هوية مزيفة من نسيبه الفاشل طوني. بعد ذلك استخدم الهوية المزيفة لاستئجار صندوق بريد بالاسم المستعار «مؤسسة يو.واي.إس». أترون مدى البراعة؟ إستخدام بطاقة هوية مزيفة واسم مستعار. وهكذا حتى لو رشا أحدهم المغفل الجالس إلى المكتب، وحتى لو اكتشف أحدهم مَن استأجر صندوق بريد اسم «مؤسسة يو.واي.إس»، فلن يجد سوى اسم «روسكو تايلور»، الذي يظهر على بطاقة هوية فيك المزيفة.

من المستحيل الوصول إلى فيك شخصيًا.

نظر فيك إلى الفتحة الصغيرة لصندوق البريد 417 في الجهة المقابلة من الغرفة. لم تكن الرؤية ممكنة، لكن بدا واضحًا أن في الصندوق شيئًا ما.

twitter @baghdad_library

رائع. لم يكن فيك يقبل سوى المال نقدًا أو بواسطة حوالات، وكان يرفض الشيكات طبعًا. لا يمكن القبول بشيء يسمح بتقفي أثره. كان فيك يتخفى كلما ذهب لاستلام المال، تمامًا كما يفعل الآن. فيعتمر قبعة بايسبول ويضع شاربين مستعارين. كذلك كان يتصنع العرج، فقد قرأ ذات مرة أن الناس يلاحظون الأشخاص العُرج. وهكذا، إذا طُلب من أحد الشهود وصف مستخدِم الصندوق 417، فماذا سيقول؟ هذا بسيط، سيقول إن الرجل ذا شاربين وأعرج. وإذا ما رُشي موظف المكتب الأحمق، فسيقول إن اسم الرجل روسكو تايلور، وهو ذو شاربين وأعرج.

لكن فيك ليتي الحقيقي لا شاربين له ولا يشكو عرجًا.

إلا أن فيك يأخذ احتياطات أخرى أيضًا. فهو لا يفتح الصندوق أبدًا بوجود آخرين. أبدًا. إذا رأى أن شخصًا آخر يستلم بريده، أو يقف قريبًا، يتظاهر بأنه يفتح صندوقًا آخر، أو بأنه يملأ استمارة بريد، أو بشيء من هذا القبيل. وعندما يكون المكان آمنًا تمامًا، فقط عندذاك، يفتح فيك الصندوق 417.

كان فيك يدرك أن ما من شيء اسمه حذر زائد عن اللزوم.

حتى في الوصول إلى هنا، كان يأخذ احتياطاته. فيأتي بشاحنة العمل، وهو موظف في قسم التصليحات والتجهيزات في «كابل آي»، أضخم شركة لتقديم خدمة التلفاز الكابلي في الساحل الشرقي للولايات المتحدة. لكنه يركنها في مكان يبعد أربعة شوارع، ثم يمر خلسة عبر زقاقين للوصول إلى هنا. كما يرتدي معطفًا واقيًا من الريح أسود فوق لباس العمل لئلا يرى أحد اسم «فيك» مخيطًا على جيب القميص الأيمن.

راح يفكر في المبلغ الضخم الذي قد يكون بانتظاره الآن في الصندوق 417، على مسافة أقل من ثلاثة أمتار من حيث يقف. نملت أصابعه. تحقق من الغرفة بنظراته مجددًا.

كانت هناك امرأتان تفتحان صندوقيهما، التفتت إحداهما وابتسمت له ابتسامة خاطفة. إتجه نحو الصناديق في الجانب الآخر من الغرفة، ممسكًا بعلاقة مفاتيحه. كان يستعمل إحدى العلاقات التي تُربط بسلسلة إلى حزامه، فتظاهر بأنه يبحث فيها عن مفتاح، وواصل النظر إلى الأسفل، مديرًا لهما ظهره.

الحذر واجب.

بعد دقيقتين، كانت السيدتان قد أخذتا رسائلهما وغادرتا المكان. أصبح فيك وحيدًا، فعبر الغرفة مسرعًا وفتح صندوقه.

رائع!

ثمة طرد مرسل إلى «مؤسسة يو.واي.إس»، ملفوف بورق أسمر، ولا يحمل عنوان ارتجاع. وكان سميكًا بما يكفي ليحتوي على مبلغ كبير من النقود.

إبتسم فيك وتساءل: «أهكذا تبدو الخمسون ألف دولار؟»

مد يديه المرتجفتين وأخذ الطرد، فأحس بثقله مريحًا في يده. وأخذ قلبه ينبض بقوة. يا إلهي! إنه يمارس عملية الابتزاز هذه منذ أربعة أشهر. وقد أوقع في شباكه أسماكًا كبيرة. أما هذه المرة فقد اصطاد حوتًا ضخمًا!

مجددًا تحقق فيك من الغرفة، ودس الطرد في جيب معطفه وغادر المكان مسرعًا. سلك طريقًا مختلفًا للعودة إلى شاحنته، ومضى عائدًا إلى الشركة. بحث بأصابعه عن الطرد وتحسسه. خمسون ألفًا. خمسون ألف دولار. الرقم وحده أفقده صوابه.

كان الليل قد أسدل ستاره عندما وصل فيك بشاحنته إلى شركة «كابل آي». ركن الشاحنة في الجهة الخلفية وسار عبر جسر المشاة للوصول إلى سيارته. وهي «هوندا سيفيك» صدئة من طراز 1991. نظر إلى السيارة مقطبا حاجبيه، وفكر: «لن يطول الأمر كثيرًا.»

كان السكون يلف موقف سيارات الموظفين، وأخذ الظلام يلقي بثقله أكثر فأكثر حول فيك. كان بإمكانه أن يسمع بوضوح الوقع الرتيب لحذائه على الزفت. واخترق البرد معطفه. خمسون ألف دولار. في جيبه خمسون ألف دولار.

دفع فيك رأسه بين كتفيه وحث خطاه.

الحقيقة أن فيك كان خائفًا هذه المرة. لقد آن الأوان لكي يضع حدا لما يقوم به. ما من شك في أنها عملية جيدة، بل عظيمة. لكنه بدأ باستهداف أشخاص كبار. كان قد تساءل حول حكمة القيام بهذه الخطوة، ووازن بين

twitter @baghdad_library

إيجابياتها وسلبياتها، وقرر في النهاية أن العظماء، الذين يغيرون حياتهم حقًا، لا يتراجعون أمام المخاطر.

كان فيك يرغب في أن يكون واحدًا من العظماء.

كانت عملية الابتزاز بسيطة، وهذا ما جعلها خارجة عن المألوف إلى حدّ مذهل. في كل منزل مشترك بخدمة التلفاز الكابلي علبة تحويل على خط الهاتف. وحين يرغب المرء في الاشتراك في قنوات مميزة مثل: «إيتش. بي.أو» أو «شوتايم»، يأتي عامل خدمة الكابل الودود والقاطن في الحي، ويقوم بضبط بعض مفاتيح التحويل. أي أن علبة التحويل تلك تحتوي أدق تفاصيل المشاهدات عبر خدمة الكابل، ومَن يمتلك تفاصيل مشاهدات إنسانٍ ما عبر خدمة الكابل، يمسك بتفاصيل حياته كاملة.

تحرص شركات خدمة التلفاز الكابلي والفنادق التي جهزت غرفها بتلك الخدمة، على ألا تسجل في فواتيرها أسماء الأفلام السينمائية التي يشاهدها المرء. قد يكون هذا صحيحًا، ولكنه لا يعني على الإطلاق أن تلك الشركات والفنادق لا تعلم ما يُشاهده زبائنها. جربوا الاعتراض على قيمة فاتورة، تقدم لكم لائحة كاملة بكل ما شاهدتم وبأدق التفاصيل، حتى الإحراج.

ما تعلمه فيك منذ البداية، بدون الاسترسال في الأمور التقنية، هو أن اختيارات المشاهدات عبر خدمة الكابل تُسجل بواسطة رموز، تنقل طلب المشاهدة عبر علبة تحويل الكابل إلى أجهزة الكمبيوتر في المحطة الرئيسية لشركة خدمة الكابل. فكان يتسلق أعمدة الهاتف، ويفتح علب التحويل ويسجل الأرقام. ولدى عودته إلى المكتب، يتحقق من الرموز ويكتشف كل شيء.

بوسعه أن يعرف مثلًا أن شخصًا ما قد استأجر وعائلته عند السادسة من مساء 2 شباط، فبراير، فيلم «ليون كينغ» (الأسد الملك) لمشاهدته. وفي مثل ذي دلالة أكبر بكثير، سيعرف أيضًا أن الشخص عينه طلب عند العاشرة والنصف من مساء 7 فبراير مشاهدة فيلمَي «البحث عن ملكة جمال أكتوبر» و«الشقراء الذهبية»، عبر قناة «سيزل تي.في» الإباحية.

هل اتضحت لكم عملية الابتزاز؟

في البداية كان فيك يختار المنازل بشكل عشوائي، فيبعث إلى رب المنزل برسالة مقتضبة ومثيرة للقشعريرة، تتضمن قائمة بأسماء الأفلام الإباحية التي شاهدها وفي أية ساعة من أي يوم. كما توضح الرسالة أن نسخًا من تلك المعلومات ستُرسَل إلى كل أفراد عائلة الرجل، وجيرانه، ورب عمله. ثم يطلب فيك 500 دولار ثمنًا لصمته. لعل المبلغ ليس كبيرًا جدًا، ولكن فيك ظنه مناسبًا تمامًا. فهو كبير بما يكفي لضمان كسب محترم له، وفي الوقت نفسه ضئيل بما يكفي بحيث لا ترفض غالبية ضحاياه الدفع.

ومع ذلك، فإن نحو عشرة بالمئة فقط من الأشخاص قد استجابوا، وهذا ما أثار دهشة فيك في البداية، لكنه لم يكن واثقًا من السبب. لعل مشاهدة الأفلام الإباحية لم تعد وصمة عار كما كانت في السابق. أو لعل زوجة الرجل على علم بالأمر. مَن يدري؟ لعلها شاهدت تلك الأفلام معه. ولكن المشكلة الحقيقية كانت في أن عملية الابتزاز التي يمارسها فيك عشوائية للغاية.

عليه أن يكون أكثر تركيزًا، وأن يختار ضحاياه بدقة.

آنذاك خطرت بباله فكرة التركيز على أشخاص يعملون في مهن معينة، قد يخسرون الكثير إذا ما ذاعت عنهم هذه المعلومات. ومن جديد، وجد فيك في أجهزة الكمبيوتر التابعة لشركة خدمة الكابل كل المعلومات التي يحتاج إليها. فبدأ باستهداف المدرسين، وموظفات دور حضانة الأطفال، وأطباء الأمراض النسائية، وكل مَن يعملون في وظائف حساسة لهذا النوع من الفضائح. كان المدرسون هم الأكثر تعرضًا للهلع لكنهم الأقل مالًا. كذلك، جعل رسائله أكثر تحديدًا وخصوصية، فكان يذكر الزوجة ورب العمل بالاسم. وكان يهدد المدرسين بأنه سيُغرق مجلس التربية وأولياء طلابهم «بأدلة على انحرافهم»، وهي عبارة ابتكرها فيك شخصيًا. أما الأطباء فكان يهددهم بإرسال «الدليل» إلى مجلس نقابة الأطباء، والصحف المحلية، والجيران، والمرضى.

بدأ المال يتدفق بسرعة أكبر.

حتى اليوم، عادت على فيك عمليات الابتزاز التي قام بها بما يقارب الأربعين ألف دولار. لكنه اصطاد هذه المرة أكبر سمكة له حتى تاريخه. كانت كبيرة إلى حدّ جعلته يفكر في البداية في الانسحاب والتخلي عن

twitter @baghdad_library

العملية برمتها. ولكنه لم يستطع. لم يكن في وسعه أن يتخلى عن أكبر ضربة في حياته.

أجل، اصطاد فيك هذه المرة شخصية مرموقة جدًا، ومشهورة جدًا. راندال سكوب. كان راندال شابا، ووسيمًا، وثريًا، وذا زوجة حسناء، وعائلة نموذجية، وطموحات سياسية، والوريث المنتظر لأمبراطورية عائلة سكوب المالية. ولم يكن سكوب قد طلب فيلمًا واحدًا فقط، أو حتى اثنين.

خلال فترة لا تتعدى شهرًا واحدًا طلب راندال سكوب ثلاثة وعشرين فيلمًا إباحيًا.

يا للهول!

أمضى فيك ليلتين كاملتين في كتابة طلباته، ولكنه في النهاية عاد إلى الصيغة الأساسية لرسائله، أي المقتضبة، والمثيرة للقشعريرة، والمحددة جدًا. طالب سكوب بخمسين ألف دولار، على أن تكون في صندوقه البريدي اليوم. وما لم يكن فيك مخطئًا، فالخمسون ألفًا هي الآن في جيب معطفه.

كان فيك يتحرق لإلقاء نظرة إلى المال، وحالًا. لكن الانضباط الصارم هو من طباعه. سينتظر حتى يعود إلى المنزل ويقفل الباب، ويجلس على الأرض، ويفتح الطرد، ويدع الدولارات تتدفق.

هذه العملية كانت كبيرة جدًا.

ركن فيك سيارته في الشارع وسار في الدرب المؤدية إلى منزله. أثار فيه الاكتئاب منظر مسكنه الكائن في شقة، فوق مرأب قذر وحقير. لكنه لن يمكث هناك طويلًا. فبجانب الخمسين ألف دولار أربعون ألفًا أخفاها في الشقة، وعشرة آلاف يدخرها...

تلك الفكرة جعلته يتوقف. مئة ألف دولار. كان يملك مئة ألف دولار، نقدًا. اللعنة!

أراد أن يأخذ ماله في الحال، ويرحل إلى أريزونا، حيث صديقه سامي فيولا. سيؤسس وسامي مشروعهما الخاص، أو يفتتحان مطعمًا أو ناديًا ليليًا، لقد سئم فيك نيوجيرسي.

حان الوقت للمضي قدمًا. لبداية جديدة.

صعد فيك الدرج متجهًا إلى شقته. يجب التذكير بأن فيك لم ينفذ تهديداته قط، ولم يرسل قط رسائل إلى أحد. وحين يمتنع أحد مَن يستهدفهم عن الدفع، فالأمر يتوقف عند ذلك الحد. لأن إيذاءه من بعد ما جرى لن يفيد بشيء. كان فيك فنانًا في الابتزاز، يعتمد على عقله. صحيح أنه كان يلجأ إلى التهديد، ولكنه لم ينفذ تهديده قط. فذلك قد يؤدي إلى إثارة غضب الآخر، كما قد يعرضه إلى افتضاح أمره.

في الواقع، هو لم يؤذِ أحدًا قط. ما جدوى ذلك؟

وصل فيك إلى منبسط الدرج، وتوقف أمام باب منزله. كان الظلام حالكًا، والمصباح اللعين فوق الباب قد احترق مجددًا. تنهد فيك وأخرج سلسلة مفاتيحه الكبيرة. ضيق عينيه في العتمة يبحث عن المفتاح، معتمدًا على حاسة اللمس خصوصًا. راح يتحسس الباب تحت المقبض حتى انزلق المفتاح في القفل. فتح الباب ودخل، لكنه شعر بأن ثمة خطبًا ما.

سمع طقطقة تحت قدميه.

قطب فيك حاجبيه. فكر في أنه يدوس شيئًا من البلاستيك. وكأن دهانًا وضعه ليحمي الأرضية. قلب مفتاح الضوء ليظهر أمامه الرجل الذي يحمل المسدس.

قال الرجل: «مرحبًا، فيك.»

شهق فيك، وتراجع خطوة إلى الخلف. بدا الرجل أمامه في العقد الخامس من عمره. كان ضخم الجثة وسمينًا ذا كرش تضغط على أزرار القميص الرسمي الذي يرتديه، إلى حدّ أن زرًا على الأقل لم يستطع مقاومة الضغط، وكانت ربطة عنقه غير محكمة. كما كانت له أسوأ تسريحة شعر يمكن تخيلها على الإطلاق، وهي عبارة عن ثماني خصلات مجدولة من الشعر، مشدودة من الأذن إلى الأذن، وملصقة بواسطة جِل الشعر على جمجمته. كانت ملامح وجه الرجل متراخية، وذقنه غائصة في ثنايا الشحم. وضع الرجل قدميه على الصندوق الذي يستخدمه فيك كطاولة قهوة. تخيلوا المشهد، مستبدلين المسدس بجهاز تحكم بالتلفزيون عن بعد، تروا في الرجل رب عائلة أنهكه التعب، وعاد قبل قليل من العمل.

twitter @baghdad_library

أما الرجل الآخر، الذي كان يسد الباب، فهو نقيض الرجل السمين تمامًا. كان شابا آسيويًا في عقده الثالث، ربع الجسم، مفتول العضلات، كأنه مقدود من الغرانيت، ذا شعر منزوع اللون، يضع في أنفه قرطًا أو اثنين، وفي أذنيه شريطَي سماعتَي مشغلة موسيقى أصفرين. لم يكن ممكنًا تخيل رؤية شخصين كهذين الرجلين معًا إلا في قطار الأنفاق، الضخم مقطب الحاجبين خلف صفحات جريدته المطوية بعناية، والفتى الآسيوي ينظر إليكم في حين يتراقص رأسه بخفة مع الموسيقى الصاخبة التي يسمعها عبر سماعتيه.

حاول فيك أن يفكر. قال يذكر نفسه: «إعرفْ ما يريدان. حدثهما بالمنطق، أنت فنان في الخداع. أنت ذكي، ستجد طريقة للتخلص من هذه الورطة.» طمأن فيك نفسه.

سألهما فيك: «ماذا تريدان مني؟»

ضغط الرجل الضخم، ذو خصلات الشعر المجدولة، الزناد. سمع فيك صوت الرصاص، ثم أحس بركبته اليمنى تنفجر. جحظت عيناه وأطلق صرخة ألم، ثم سقط أرضًا ممسكًا ركبته. وتدفق الدم من بين أصابعه.

قال الضخم عن سلاحه: «إنه مسدس 22. صغير العيار. ما أحبه فيه، كما سترى، أنني أستطيع أن أطلق عليك النار كثيرًا بدون أن أقتلك.»

بدون أن يُنزل الرجل الضخم قدميه عن الصندوق، أطلق النار ثانية. لكنه أصاب هذه المرة كتف فيك، الذي أحس فعلًا بعظمه يتحطم، وهوت ذراعه كباب حظيرة ذي مفصل مكسور. سقط فيك على ظهره وأخذ يتنفس بسرعة كبيرة، يكتنفه مزيج رهيب من الرعب والألم. ظلت عيناه جاحظتين لا تطرفان، تحدقان في ضباب، وأدرك شيئًا.

القماش البلاستيكي على الأرض.

كان يرقد عليه، بل ينزف عليه. القماش البلاستيكي هنا لهذه الغاية. لقد وضعه الرجلان حتى يتمكنا من تنظيف المكان بسهولة.

قال الرجل الضخم: «هل تريد أن تبدأ إخباري ما أريد سماعه، أم علي أن أطلق النار مرة أخرى؟»

بدأ فيك يتكلم، فأخبرهما كل شيء، ودلهما إلى حيث يخبئ بقية الأموال، ومكان وجود الأدلة أيضًا. سأله الرجل الضخم عما إذا كان لديه شركاء، فنفى. عندئذ أطلق الرجل الضخم النار على ركبة فيك الأخرى. عاد لسؤاله عما إذا كان لديه شركاء، وكرر فيك نفيه. فأطلق الرجل الضخم النار على كاحله الأيمن.

بعد ساعة، أخذ فيك يتوسل إلى الرجل الضخم لكي يقتله بطلقة في رأسه.

وبعد ساعتين، استجاب الرجل الضخم لرغبة فيك.

twitter @baghdad_library

5

حملقتُ في شاشة الكمبيوتر بدون أن يرف لي جفن.

كنت عاجزًا عن الحركة تمامًا، فحواسي كلها قد حُملت فوق طاقتها، وشعرت بالخدر يسري في كل أنحاء جسدي.

الأمر غير ممكن! أنا أدرك ذلك تمامًا. لم تكن إليزابيت قد سقطت عن يخت واعتُبرت غريقة بدون أن يعثروا على جثتها قط. كما أن جثتها لم تكن مشوهة بفعل الاحتراق، لا شيء من ذلك. عُثر على جثتها في خندق عند حافة الطريق 80. لعلها تعرضت للضرب، ربما، ولكن تم التعرّف عليها وتأكيد هويتها.

لستَ أنت من تعرّف على جثتها.

ربما كان هذا صحيحًا، ولكن مَن تعرّف عليها هما اثنان من أفراد أسرتها المقربين: والدها وعمها. الواقع أن هويت باركر، والد زوجتي، هو من أخبرني أن إليزابيت ماتت. أتى إلى غرفتي في المستشفى مع أخيه كين بعد فترة قصيرة من استعادتي وعيي. كان هويت وكين رجلين ضخمَي الجثة، حجريي الملامح، مكتنزين لحمًا، ولهما عضلات كبيرة غير محددة المعالم. أحدهما يعمل في شرطة مدينة نيويورك، والآخر عميل فدرالي. خلعا قبعتيهما، وحاولا إخباري بالأمر بذلك التعاطف الفاتر الذي يتميز به المحترفون، ولكن الأمر لم ينطلِ علي، كما أنهما لم يبذلا جهدًا كبيرًا.

إذًا، ماذا رأيتُ منذ قليل؟

على الشاشة، كانت أمواج المشاة تتوالى. نظرت في الشاشة وقتًا أطول، وكأنني أستحثها أن تعود. لكن ذلك لم يحدث. أين هذا المكان؟ مدينة مزدحمة، هذا كل ما أمكنني معرفته. ربما تكون مدينة نيويورك، لست أدري.

إبحثْ عن أدلة يا أحمق.

حاولتُ التركيز. الملابس. حسنًا، لنتحقق من الملابس. معظم الناس يرتدون معاطف أو سترات. الاستنتاج: قد تكون هذه المدينة في مكان ما في الشمال، أو أقله في مكان جوه ليس دافئًا كثيرًا اليوم. ممتاز. بإمكاني أن أستبعد ولاية ميامي.

وماذا بعد؟ حدقتُ إلى المارة. تسريحات شعرهم؟ لا، هذا لن يجدي نفعًا. رأيت زاوية مبنى من الحجارة. بحثتُ عن سمات يمكن التعرّف إليها، تجعلني أميزه عما حوله، لكن لا جدوى. بحثت في الشاشة عن شيء ما، عن أي شيء خارج المألوف.

أكياس التسوق.

كان البعض الناس يحملون أكياس تسوق. حاولت قراءة ما كتب عليها، لكن الجميع كانوا يسيرون بسرعة كبيرة. ناشدتهم في سري أن يبطئوا الخطى قليلًا، ولكنهم لم يفعلوا. واصلتُ التحديق عند مستوى رُكب المارة، لكن زاوية الكاميرا لم تساعدني. اقتربت بوجهي من الشاشة إلى حدّ جعلني أشعر بالحرارة المنبعثة منها.

رأيت راء كبيرة .R.

كان الحرف الأول المطبوع على أحد الأكياس. أما الأحرف الأخرى فقد كانت أصعب من أن أستطيع تمييزها. وبدت مكتوبة بأسلوب زخرفي. حسنًا، ماذا بعد؟ أية أدلة أخرى قد...

توقف بث الكاميرا، وتحول لون الشاشة إلى أبيض.

اللعنة! ضغطت على زر إعادة التحميل، ولكن إشارة «خطأ» عادت إلى الظهور. عدت إلى الرسالة الإلكترونية الأساسية ونقرت الرابط التشعبي، لأرى إشارة «خطأ» من جديد.

إختفى بث الكاميرا.

twitter @baghdad_library

حدقت في الشاشة الفارغة، ومن جديد نزلت علي الحقيقة كالصاعقة: لقد رأيت إليزابيت منذ قليل. إنها على قيد الحياة.

كان بوسعي أن ألجأ إلى المنطق لإبعاد هذا الواقع، ولكن ما رأيته لم يكن حلمًا. شاهدت أحلامًا كثيرة، وكثيرة جدًا، كانت فيها إليزابيت حية. وفي معظمها تقبلتُ عودتها من القبر، سعيدًا بذلك إلى درجة أفقدتني كل تساؤل أو شك. أتذكر حلمًا واحدًا كنا فيه، لا أتذكر ما كنا نفعل أو حتى أين كنا. وفجأة، ووسط ضحكة مجنونة، أيقنتُ، كمن يفطن بأنفاس مقطوعة إلى حقيقة مأساوية، أنه كان مجرد حلم، وأنني لن ألبث أن أستيقظ وحيدًا. أتذكر ذلك الحلم تمامًا، وأتذكر كيف مددت يدي في تلك اللحظة، وتمسكت بإليزابيت، أجذبها إلي في محاولة يائسة لأستعيدها.

أنا أعرف الأحلام، وما رأيته على شاشة الكمبيوتر منذ هنيهة لم يكن حلمًا.

كما أنني لم أرَ شبحًا. لا أؤمن بوجود الأشباح، ولكن عندما تراودنا الشكوك، الأجدى بنا أن نحافظ على ذهن منفتح. إلا أن الأشباح لا يتقدم بها العمر، في حين أنّ تلك الـ«إليزابيت» التي رأيتها في الكمبيوتر قد تقدم بها العمر. ليس كثيرًا، لكن ثماني سنوات قد مرت. كما أن الأشباح لا تقص شعرها. فكرتُ في تلك الجديلة الطويلة المتدلية على ظهرها في ضوء القمر، ثم فكرت في الشعر القصير المقصوص على الموضة والذي رأيته منذ قليل. فكرت أيضًا في تينك العينين، العينين اللتين لطالما نظرتُ إليهما منذ كنت في السابعة من عمري.

كانت تلك إليزابيت. لا تزال على قيد الحياة.

مجددًا اغرورقت عيناي بالدموع، ولكنني قاومتها هذه المرة. إنه لأمر طريف. لطالما كنت من النوع الذي يبكي بسهولة. ولكن بعد حدادي على موت إليزابيت بدا لي أنني قد فقدت القدرة على البكاء. ليس لأنني قد استنفدت كل حزني بالدموع، أو لأن نبع دموعي قد جف أو ما شابه ذلك من تفاهات، ولا لأن الحزن شل حواسي، برغم أن في ذلك بعضًا من الحقيقة. ما أظنه حدث هو أنني اتخذت، غريزيًا، وضعًا دفاعيًا. حين ماتت إليزابيت، شرعت كل أبوابي للألم. وتركتُني أشعر بالألم كله. وتألمت. تألمت كثيرًا لدرجة أن غريزة أساسية في داخلي لن تسمح بحدوث ذلك ثانية.

لا أعلم كم من الوقت جلست هناك. ربما نصف ساعة. حاولت أن أتنفس ببطء وأهدئ من روعي. أردت أن أكون عقلانيًا. كان علي أن أكون عقلانيًا. كان من المفترض أن أكون الآن في بيت والدَي إليزابيت، لكنني لم أستطيع أن أتخيل مواجهتهما الآن.

ثم تذكرت شيئًا آخر.

سارة غودهارت.

سألني الشريف لويل إن كنت أعرف شيئًا عن هذا الاسم. كنت أعرف.

كنت وإليزابيت نلعب في طفولتنا لعبة، لربما لعبتموها أيضًا. حيث نجعل من اسمنا الأوسط اسمنا الأول، ثم نجعل من اسم الشارع حيث نشأنا شهرتنا. مثلًا، اسمي الكامل هو دايفيد كريغ بِكْ، ونشأت في شارع داربي. وهكذا يصبح اسمي «كريغ داربي». وإليزابيت تصبح...

سارة غودهارت.

تبًا للجحيم، ماذا يجري هنا؟

أمسكت بالهاتف واتصلت أوّلًا بوالدَي إليزابيت، اللذين ما زالا يعيشان في ذلك المنزل في شارع غودهارت. أجابت والدة إليزابيت على الاتصال، فقلت لها إنني تأخرت في العمل. الناس يتقبلون عذرًا كهذا من الأطباء، إنها إحدى الفوائد الثانوية للمهنة.

عندما اتصلت بالشريف لويل أجابتني خدمة البريد الصوتي. طلبت منه أن يتصل بي عبر جهازي الطنان عندما تتاح له الفرصة. لا أملك هاتفًا خلويًا، وأدرك أن هذا يجعلني من ضمن الأقلية. لكن جهازي الطنان يصلني بالعالم الخارجي على أكمل وجه.

عدتُ للجلوس، لكن هومر سيمبسون أيقظني من انخطافتي بعبارة «لقد وصل البريد!» مرة أخرى. إندفعت بجسدي إلى الأمام وأمسكت بفأرة الكمبيوتر. كان عنوان المرسل غير مألوف، ولكنني قرأت في خانة موضوع الرسالة: «كاميرا الشارع». شعرت بضربة هائلة مكتومة أخرى تهوي على قلبي.

نقرت الأيقونة الصغيرة فظهرت الرسالة الإلكترونية:

twitter @baghdad_library

غدًا في الوقت عينه زائد ساعتين على «Bigfoot.com»، (بيغ فوت دوت كوم)

ستصلك رسالة عند:

إسم المستخدم: «بات ستريت.»

كلمة المرور: مراهقون.

وفي أسفل الشاشة، خمس كلمات أخرى:

«إنهم يراقبوننا. لا تخبر أحدًا.»

راح لاري غاندل، صاحب التسريحة البشعة، يتفرج على إريك وو ينظف مسرح الجريمة. كان وو، وهو كوري له من العمر ستة وعشرون عامًا، وذو جسد تملأه الوشوم والأقراط، أفتك الرجال الذين عرفهم غاندل في حياته. كانت له بنية دبابة صغيرة، لكن ذلك وحده لم يعنِ الكثير. كان غاندل يعرف كثيرين لهم بنية كهذه، لكن غالبًا ما يتبين أن العضلات المفتولة بلا فائدة.

ولكن إريك وو كان مختلفًا.

جميل أن يظهر الرجل وكأنه قُد من صخر، لكن السر الحقيقي لقوة وو القاتلة يكمن في يديه الغليظتين والقاسيتين، الشبيهتين بكتلتين من الإسمنت مزودتين بأصابع ككلابات من الفولاذ. فقد كان يمضي ساعات طويلة في تدريبهما، بضرب الحجارة، وتعريضهما للحرارة والبرودة الشديدتين، وممارسة تمارين الضغط بالارتكاز على إصبع واحدة. وعندما يستخدم وو أصابعه تلك، ليس بإمكان أحد أن يتخيل الضرر الهائل الذي يصيب العظام والأنسجة.

تحوم حول أمثال وو شائعات مقززة، معظمها كاذب. لكن لاري غاندل شاهده من قبل يقتل رجلًا، غارزًا أصابعه في الأماكن الحساسة من وجهه وصدره. وشاهده أيضًا يمسك رجلًا من أذنيه ويقتلعهما بحركة خفيفة واحدة. كما رآه أربع مرات يقتل بأربع طرق مختلفة، بدون أن يستخدم سلاحًا قط.

ولم تكن أية من تلك الميتات سريعة.

لم يكن أحد يعلم تمامًا من أين أتى وو. بيد أن الرواية الأكثر انتشارًا هي أنه عاش طفولة قاسية في كوريا الشمالية. لم يطرح غاندل أية أسئلة حول

ماضيه. ثمة دروب مظلمة خير للعقل ألا يجتازها. وقد كان الجانب المظلم من حياة إريك وو – وكأنما لديه أي جانب مضيء! – أحد تلك الدروب.

عندما انتهى وو من لف كتلةِ البروتوبلازما، التي كانت فيك ليتي، في قماش الحماية البلاستيكي، نظر إلى غاندل بعينيه تينك. فكر لاري: «عينان ميتتان.» بدتا كعينَي طفل في شريط إخباري حربي.

لم يتكبد وو عناء نزع سماعتي مشغلة الموسيقى من أذنيه. لم يكن جهازه يصدح بموسيقى الهيب هوب أو الراب أو حتى الروك أند رول. كان وو يستمع بدون توقف تقريبًا إلى أسطوانات الموسيقى المهدئة للأعصاب، مثل «نسائم المحيط»، و«سقسقة الجدول».

«هل آخذه إلى بيني؟» سأل وو، بصوت ذي إيقاعٍ بطيء وغريب، وكأنه من شخصيات برنامج الكرتون «بينتس».

أومأ لاري غاندل برأسه إيجابًا. كان بيني يدير فرنًا جنائزيًا لإحراق الجثث. من التراب وإلى التراب. أو، في هذه الحالة، من الحثالة إلى التراب. أضاف: «وتخلص من هذا.»

أعطى غاندل إريك المسدس عيار 22، الذي بدا ضئيلًا في يد وو العملاقة. نظر إليه هذا الأخير عابسًا. لعله شعر بخيبة أمل لأن غاندل فضله على مواهب وو الفريدة، ثم دسه في جيبه. نادرًا ما كان المسدس عيار 22 يسبب جروحًا خارجية، ما يعني أدلة أقل. وقماش الحماية المصنوع من الفينيل احتوى الدم. لا فوضى ولا جلبة.

قال وو: «لاحقًا.» ورفع الجثة بيد واحدة كما لو كانت حقيبة وحملها خارجًا.

أومأ لاري غاندل برأسه مودعًا. لم يستمتع كثيرًا بعذاب فيك ليتي، لكنه لم ينزعج كثيرًا أيضًا. لقد كانت مسألة بسيطة حقًا. كان على غاندل أن يتيقن تمامًا من أن ليتي يعمل بمفرده، وأنه لم يترك خلفه أدلة قد يكتشفها الآخرون. لذلك كان عليه دفع الرجل إلى ما بعد نقطة الانهيار. لم يكن ثمة وسيلة أخرى.

في النهاية كان يجب الاختيار بين عائلة سكوب وفيك ليتي. كان أفراد عائلة سكوب أناسًا طيبين، لم يفعلوا شيئًا قط لإيذاء فيك ليتي. لكن هذا

twitter @baghdad_library

الأخير بذل كل جهد لمحاولة إيذاء عائلة سكوب. فقط طرف من الاثنين كان بوسعه الخروج سالمًا من وضع كهذا: إما البريء، أي الضحية حسنة النية، أو الطفيلي الذي يحاول أن يستغل بؤس شخص آخر. عند التفكير في الأمر مليًا، ليس ثمة خيار.

إرتج هاتف غاندل الخلوي. فأخذه، وقال: «نعم.»

– تم التعرّف على الجثتين اللتين عُثِر عليهما عند البحيرة.

– وماذا؟

– إنهما هما. رباه، إنهما بوب وَمِل.

أغمض غاندل عينيه.

– ما معنى هذا يا لاري؟

– لا أعلم.

– إذًا، ماذا سنفعل؟

أدرك لاري غاندل أن ما من خيار أمامه. سيكون عليه أن يتحدث مع غريفن سكوب. وذلك كفيل بأن يُخرج إلى السطح ذكريات مؤلمة، بعد ثماني سنوات. هز غاندل رأسه. سيحطم ذلك قلب الرجل العجوز المسكين من جديد.

– سأتولى الأمر بنفسي.

6

حماتي، كيم باركر، امرأة جميلة. لطالما كانت تشبه إليزابيت جدًا إلى حدّ أن وجهها أصبح بالنسبة إلي أقصى «ما كان ممكنًا أن يكون.» ولكن موت إليزابيت استنزف ببطء ما فيها من حياة. فهزل وجهها واستطال وتغضنت ملامحها. وباتت لعينيها هيئة الكلل الزجاجية المهشمة من الداخل.

لم يشهد منزل عائلة باركر تغييرات كثيرة منذ السبعينيات، فحافظ على الألواح الخشبية التي تكسو جدرانه، والموكيت نصف الخشن باللون الأزرق المشرق والموشى بالأبيض، وموقد الحجارة الزائفة من النوع الرائج آنذاك. وكذلك على طاولات التلفزيون المطوية صفا واحدًا بمحاذاة أحد الجدران، بسطوحها البلاستيكية البيضاء وأرجلها المعدنية الذهبية اللون. وكذلك على بورتريهات المهرجين وصحون من مجموعة «روكويل». التجديد الوحيد الملحوظ الذي طرأ على المكان كان جهاز التلفزيون، الذي تطور عبر السنوات من جهاز صغير ذي شاشة 12 بوصة بيضاء وسوداء، وغير ثابت الصورة، إلى الجهاز العملاق بشاشة 50 بوصة بالألوان الكاملة، والقابع الآن بفخر في الزاوية.

جلست حماتي على الأريكة نفسها التي لطالما جلستُ وإليزابيت عليها لتبادل القبل المحمومة. إبتسمت وفكرت: «آه، لو أن لتلك الأريكة لسانًا لتحكي.» ولكن ذلك المقعد البشع، ذا نقوش الزهور الصارخة الألوان،

twitter @baghdad_library

يخبئ أكثر من مجرد ذكريات الشهوة. فهناك جلستُ وإليزابيت لنقرأ رسائل قبولنا في الجامعة. وهناك أيضًا جلسنا مستكنين لنشاهد «طيران فوق عش الكوكو»، و«صياد الغزلان»، وكل أفلام هيتشكوك القديمة. وهناك أيضًا، كتبنا فروضنا المدرسية، وأنا جالس مستقيم الظهر، وإليزابيت مستلقية ورأسها في حضني. قلت لإليزابيت إنني أريد أن أصبح طبيبًا، جراحًا شهيرًا، هذا ما ظننتُه. قالت لي إنها تريد نيل شهادة في الحقوق والعمل مع الأطفال. لم تكن إليزابيت تتحمل فكرة وجود أطفال يتعذبون.

أتذكر فترة تدريب أمضتها خلال الإجازة الصيفية بعد انتهاء سنتنا الجامعية الأولى، حيث عملتْ لحساب مؤسسة «كوفنانت هاوس» لإنقاذ الأطفال الهاربين والمشردين من أسوأ شوارع نيويورك. ذهبت معها ذات مرة في شاحنة المؤسسة، نجوب الشارع الثاني والأربعين جيئة وذهابًا، قبل عهد العمدة جولياني، بحثًا وسط البؤر البعيدة كل البعد عن الإنسانية، عن أطفال بحاجة إلى سقف يأويهم. لمحت إليزابيت فتاة هوى، عمرها أربعة عشر عامًا، تحت تأثير جرعة كبيرة من المخدرات إلى حدّ أنها تبولت على نفسها. كشرتُ قرفًا، لستُ فخورًا بذلك الآن. لربما كان هؤلاء الأشخاص بشرًا، ولكن القذارة تنفرني، صدقًا. لقد ساعدتها، ولكن بدون أن أخفي تكشيرتي.

لكن إليزابيت لم تكشر قط. تلك كانت موهبتها. كانت تأخذ الأطفال بأيديهم، وتحملهم. فنظفت تلك الفتاة، واعتنت بها، وتحدثت إليها طوال الليل. كانت إليزابيت تنظر في عيونهم مباشرة، وتعتقد بحق أن جميع الناس خيرون وجديرين. كانت ساذجة بطريقة أحسدها عليها.

لطالما تساءلت عما إذا حافظت إليزابيت على سذاجتها تلك حتى رمقها الأخير، وعما إذا تشبثت في خلال الألم بإيمانها بالإنسانية وبكل ذلك الهراء الجميل. أرجو ذلك، ولكني أعتقد أن روي السفاح قد حطمها.

جلست كيم باركر برصانة ويديها في حجرها. لطالما أحبتني، برغم أن والدِينا، إليزابيت وأنا، قلقوا في طفولتنا من تقاربنا. وأرادوا أن نلعب مع أولادٍ آخرين. وأن نجد لنا أصدقاء آخرين. كان هذا أمرًا طبيعيًا، كما أفترض.

لم يكن هويت باركر، والد إليزابيت، قد وصل إلى المنزل بعد، فتحادثتُ وكيم في لا شيء، أو، ولكي أقول الأمر عينه بطريقة مختلفة، تحادثنا في كل شيء، ما عدا إليزابيت. لم أبعد نظري عن كيم لأنني أعرف أن رف الموقد يعج بالصور الفوتوغرافية لإليزابيت وابتسامتها المذيبة للقلوب.

إنها حية...

لم أستطع جعل نفسي أصدق. تعلمتُ أثناء دراستي الطب النفسي في كلية الطب (ناهيكم عن ذكر تاريخي العائلي)، أن للعقل البشري قدرات تشويهية هائلة. لم أعتقدني مجنونًا بما يكفي لأستحضر صورتها في ذهني، لكن المجانين لا يعتقدون أنفسهم مجانين أبدًا. فكرت في أمي، وتساءلت إلى أي حدّ كانت تدرك حقيقة وضعها العقلي. تساءلت عما إذا كانت قادرة حتى على خوض مكاشفة جدية.

ربما لا.

تحادثت وكيم عن الطقس، وعن مرضاي، وعن وظيفتها الجديدة بدوام جزئي في متاجر مايسي. ثم باغتتني كيم بسؤال صاعق:

«هل أنت على علاقة حب بإحداهن؟»

كان ذلك السؤال الشخصي الحقيقي الأول الذي تطرحه علي على الإطلاق. أخرسني سؤالها لبرهة.،وتساءلت عما ترغب في سماعه. قلت لها: «لا.»

هزت برأسها نزولًا وبدت وكأنها أرادت قول شيء آخر. رفعت يدًا مرتعشة إلى وجهها.

قلتُ لها: «أواعد نساء.»

أجابت، وهي تهز رأسها بود مبالغ فيه: «جيد. ينبغي عليك ذلك.»

حملقتُ في يدي، ثم فاجأت نفسي بالقول: «ما زلت أفتقدها كثيرًا.» لم أنوِ قول ذلك مطلقًا، بل نويت البقاء صامتًا والتزام سكتنا الآمنة المعهودة. ألقيتُ نظرة خاطفة على وجهها، فبدا فيه الألم والشعور بالامتنان.

قالت كيم: «أعلم أنك تفتقدها، يا بِكْ، لكن عليك ألا تشعر بالذنب لمقابلتك نساء أخريات.»

قلتُ: «لا أشعر بالذنب. ليس هذا هو الأمر.»

twitter @baghdad_library

كانت كيم تكتف ساقًا فوق ساق، فأنزلتها ومالت نحوي، وسألتني: «إذًا ما الأمر؟»

لم أكن قادرًا على إخبارها. كنت أرغب في ذلك. من أجلها هي.

نظرت إلي بتينك العينين المحطمتين، بنظرة تشي بحاجتها الشديدة إلى الحديث عن ابنتها. لكنني لم أستطع فاكتفيتُ بهز رأسي.

سمعت صوت مفتاح يدور في القفل. فاستدار كلانا فجأة، واستوينا في جلستنا كعاشقين ضُبطا يتغازلان. دفع هويت باركر الباب مناديًا زوجته.، ثم دخل غرفة العائلة وأنزل من يده حقيبة الرياضة مطلقًا تنهيدة عميقة. كانت ربطة عنقه مفكوكة، وقميصه مجعدًا ومرفوع الكمّين حتى المرفقين.، يظهر منهما ساعدان كساعدَي بوباي. عندما رآنا جالسين على الأريكة، أطلق تنهيدة أخرى، لكنها كانت أعمق، وتحمل إشارات استياء جلية.

سألني: «كيف حالك يا دايفيد؟»

تصافحنِا، وكالعادة، كانت قبضته خشنة وشائكة وقوية جدًا. استأذنتنا كيم وأسرعت خارجة من الغرفة. تبادلتُ وهويت بعض عبارات اللياقة، ثم ساد بيننا الصمت. لم يشعر هويت باركر بالراحة في حضوري قط. لعل في ذلك بعضًا من عقدة إليكترا، ولكنني شعرت دائمًا أنه يعتبرني تهديدًا. كنت أتفهم شعوره، فقد أمضت طفلته كل أوقاتها برفقتي. ومع السنوات، نجحنا في فتح ثغرة في جدار امتعاضه مني، وبنينا شيئًا من الصداقة. حتى ماتت إليزابيت.

كان يلومني على موتها.

بالطبع لم يقل لي ذلك، لكنني أراه بوضوح في عينيه. كان هويت باركر رجلًا قويًا ضخم البنية، صلبًا كالصخر، يجسد نموذج الرجل الأميركي. وقد منح إليزابيت شعورًا دائمًا بالأمان غير المحدود. لقد كان يملك نوعًا من هالة الحماية، وما دام هويت الضخم بجانب طفلته، فهي لن تصاب بأي مكروه.

لا أظنني استطعتُ يومًا أن أمنح إليزابيت هذا الشعور بالأمان.

سألني هويت: «هل العمل جيد؟»

– جيد. وماذا عنك؟

– يفصلني عن التقاعد عام واحد.

أومأت برأسي، ومجددًا، ساد الصمت بيننا. في طريقي إلى هنا، قررتُ ألا أنطق بكلمة واحدة عما شاهدته في الكمبيوتر. بغض النظر عما إذا كان الأمر يبدو جنونًا، وعما إذا كان سينكأ الجروح القديمة، ويسبب لهما ألمًا شديدًا، فالحقيقة أنه لم تكن لدي أدنى فكرة عما يجري. وبمقدار ما كان الوقت يمر، راح شعوري يزداد بأن كل ما جرى غير حقيقي. كما قررت أن آخذ الرسالة الإلكترونية الأخيرة على محمل الجد. «**لا تخبر أحدًا**». لم أستطع أن أتخيل ما يجري، ولماذا. لكن كل رابط كنت أتوصل إليه بدا غاية في الهشاشة على نحو مرعب.

مع ذلك، وجدتُني أتأكد من أن كيم كانت أبعد من أن تسمع. ثم اقتربت من هويت وقلت له بصوت خفيض: «أيمكنني أن أطرح عليك سؤالًا؟»

لم يجب بشيء، بل رمقني بإحدى نظرات الارتياب التي يشتهر بها.

«أريد أن أعرف...» وتوقفتُ عن الكلام. «أريد أن أعرف كيف وجدتها».

– وجدتها؟

– لحظة دخولك المشرحة. أريد أن أعرف ما رأيته.

انهار وجهه كبناء صدعته الانفجارات.

– بربك، لماذا تطرح علي هذا السؤال؟

كان ردي متعثرًا:

– خطر الأمر ببالي، بسبب ذكرى ميلادها وما إلى ذلك.

وقف فجأة ومسح باطن كفيه على رجْلَي سرواله، ثم سألني: «هل ترغب في كأس؟»

– بالتأكيد.

– هل البوربون يناسبك؟

– يناسبني تمامًا.

مضى نحو عربة مشروبات قديمة بالقرب من رف الموقد والصور، لكني رحت أحدق في أرضية الغرفة.

twitter @baghdad_library

حاولت أن أحثه على الكلام: «هويت؟»

فتح زجاجة البوربون، ثم قال لي وهو يشير نحوي بكأس: «أنت طبيب، وقد سبق لك أن شاهدت جثثًا.»

– أجل.

– إذن تعلم.

كنتُ أعلم.

أحضر لي كأسي، فأمسكتها بسرعة كبيرة بعض الشيء. راقبني أفعل ذلك ثم قرب كأسه من شفتيه.

قلت له:

– أعلم أنني لم أسألك عن التفاصيل قط. بل أكثر من ذلك، لقد تجنبتها بعناية. سائر أفراد «عائلات الضحايا»، كما تدعونا وسائل الإعلام، كانوا يُغرقون أنفسهم في التفاصيل. كانوا يحضرون يوميًا إلى محاكمة روي السفاح، ويستمعون ويبكون. أنا لم أفعل ذلك. في اعتقادي أن ذهابهم ساعدهم في تصريف حزنهم، أما أنا فقد اخترت أن أمتص حزني.

– دعك من التفاصيل يا بِكْ.

– هل ضُربتْ؟

تأمل هويت كأسه. ثم سألني:

– لماذا تفعل هذا؟

– أريد أن أعرف.

نظر إلي من فوق الكأس. وراحت نظراته تتنقل على وجهي بإمعان، وشعرت وكأنها تتحسسني. لكنني أبقيتُ على ثبات نظرتي.

– نعم، كانت عليها كدمات.

– أين؟

– دايفيد...

– على وجهها؟

ضاقت عيناه، كما لو أنه لمح شيئًا غير متوقع، وأجاب:

– نعم.

– على جسدها أيضًا؟

– لم أنظر إلى جسدها، ولكنني أعلم أن الجواب هو نعم.

– لماذا لم تنظر إلى جسدها؟

– كنتُ هناك بصفتي والدها، لا بصفتي محققًا، بهدف التعرّف عليها فقط.

– هل كان الأمر سهلًا؟

– ما الذي كان سهلًا؟

– أعني التعرّف عليها. قلتَ إن وجهها تعرض لكدمات.

تصلب جسده، ووضع كأسه من يده، وأدركت، وسط شعور متزايد بالخوف، أنني قد تماديت كثيرًا. كان ينبغي أن أتقيد بخطتي، وألزم الصمت.

– أحقًا ترغب في سماع كل التفاصيل؟

فكرت «لا»، لكنني أومأت برأسي إيجابًا.

عقد هويت باركر ذراعيه ومال بجسده إلى الوراء مستندًا إلى عقبَي حذائه.، وقال:

– كانت عين إليزابيت اليسرى مغمضة من شدة التورم، وأنفها مهشمًا ومسطحًا كطين رطب. وعلى جبهتها جرح مفتوح، لعله بفعل سكين لفتح الصناديق. وكان فكها مخلوعًا تمامًا وأوتاره منزوعة.

كانت نبرة صوته رتيبة جدًا، وأضاف: «وقد وُسمت وجنتها اليمنى بحرف «ك» بالنار، وانبعثت منها رائحة اللحم المتفحم.»

شعرت بعقدة تتكون في معدتي.

حدق هويت في عينيّ بحدة، وسألني: «أتريد أن تعرف ما كان الجزء الأسوأ يا بِكْ؟»

تسمرت عيناي به ولبثت أنتظر.

قال: «لم يستغرق الأمر وقتًا قط، عرفت في الحال أنها إليزابيت.»

twitter @baghdad_library

7

كان رنين كؤوس الشمبانيا يتناغم وسوناتا موزارت، على أوتار قيثارة رافقت في خفوت أحاديث مدعوي الحفلة. وراح غريفن سكوب يتنقل بشكل متعرج بين بذلات التوكسيدو السوداء وفساتين السهرة المتلألئة. لطالما استخدم الناس كلمة واحدة لوصف غريفن سكوب: «الملياردير.» بعد ذلك، قد يطلقون عليه لقب رجل الأعمال أو صاحب النفوذ، أو يذكرون أنه طويل القامة، أو أنه زوج أو جد، أو أن عمره سبعون عامًا. وقد يعلقون على شخصيته أو شجرة عائلته أو أخلاقياته في العمل. ولكن الكلمة الأولى التي يوصف بها في الصحف، أو في التلفزيون، أو على لوائح المشاهير، كانت دائمًا كلمة «ملياردير». الملياردير غريفن سكوب.

وُلد غريفن سكوب ثريًا. فجده كان من الصناعيين الأوائل، وزاد والده ثروة العائلة، أما غريفن فقد جعلها أضعافًا مضاعفة. كانت معظم أمبراطوريات الثروات العائلية تنهار قبل بلوغها الجيل الثالث، بعكس أمبراطورية سكوب. والسبب الرئيسي في ذلك يعود بشكل رئيسي إلى تربية أفراد العائلة. وهكذا فإن غريفن، مثلًا، لم يرتد إحدى مدارس الأثرياء مثل «إيكسيتر» أو «لورنسفيل»، كما فعل الكثير من أترابه، بل أصر والده على أن يتلقى تعليمه في مدرسة رسمية، تقع في أقرب المدن الكبرى إليهم، وهي نيوآرك، حيث يمتلك مكاتب. لذا فلم يكن تقديم محل إقامة مزيف بالأمر العسير.

لم يكن الجانب الشرقي من نيوآرك منطقة سكنية سيئة في ذلك الحين، كما هي الحال الآن، حيث لا عاقل يقبل بالمرور بسيارته. كانت منطقة سكنية للطبقة العاملة، تتميز بالخشونة، أكثر منها بالخطورة.

وقد أحبها غريفن.

ومَن كانوا أصدقاءه المقربين في عهد المدرسة الثانوية ذاك، ظلوا أصدقاءه بعد خمسين عامًا. كان الوفاء عملة نادرة، ومتى وجدها غريفن في أحدهم، يحرص على مبادلتها بالمثل. كان كثر من ضيوف هذه الليلة أصدقاء من حقبة نيوآرك تلك. حتى أن بعضهم عمل لديه، إلا أنه حرص جدًا على ألا يكون في احتكاك مباشر معهم كرب عمل.

كانت حفلة هذا المساء احتفاءً بالقضية الأعز على قلب غريفن سكوب: «مؤسسة براندون سكوب الخيرية»، وهي تحمل اسم ابن غريفن المقتول. كان غريفن قد افتتح الصندوق بمئة مليون دولار، وسرعان ما بدأ الأصدقاء بالتبرع لهذه الغاية وأخذت الأموال بالتدفق. لم يكن غريفن غبيًا، فهو أدرك جيدًا أن الكثيرين يتبرعون من أجل كسب وده. ولكن ذلك لم يكن وحده السبب. فخلال سنوات حياته القصيرة جدًا، لامس براندون سكوب الناس، وقد كان فتىً يتمتع بالكثير من الحظ والمواهب، وبكاريزما تكاد تكون خارقة، تجذب الناس إليه.

كان ابنه الآخر، راندال، فتى طيبًا كبر ليصبح رجلًا صالحًا. لكن براندون... كان براندون ساحرًا تمامًا.

بدأ الألم يتدفق مجددًا إلى كيانه. لطالما كان الألم موجودًا، بالطبع. فما بين مصافحة هذا وذاك من الناس، أو التربيت على ظهر هذا وذاك، كان الحزن يلازمه، وينقره في كتفه، هامسًا في أذنه ليذكره بأنهما شريكان مدى الحياة.

«حفلة ساحرة يا غريف».

قال غريفن «شكرًا»، وتابع سيره. كانت السيدات قد صففن شعورهن بأناقة، وارتدين فساتين سهرة أبرزت أكتافًا عارية، انسجمت تمامًا مع المنحوتات الجليدية الكثيرة – والتي تعشق أليسون، زوجة غريفن، تزيين

twitter @baghdad_library

حفلاتها بها – والتي كانت في تلك الليلة تذوب فوق شراشف الموائد الفخمة والمستوردة. تحولت سوناتا موزارت إلى سوناتا أخرى لشوبان. وراح الخدم يـدورون حاملين بأيديهم ذات القفازات البيضاء صواني فضية امتلأت بالقريدس الماليزي، وقطع لحم «أوماها» الطرية، ومقبلات بهيئة الأصابع، يبدو دائمًا أنها تحتوي على الطماطم المجففة.

اقترب غريفن من ليندا بِكْ، السيدة الشابة التي تدير مؤسسة براندون الخيرية. كان والد ليندا كذلك من أصدقاء الدراسة القدامى في نيوآرك، وقد ارتبطت ليندا أيضًا، حالها حال الكثيرين، بأعمال أمبراطورية سكوب الضخمة. فقد بدأت العمل في مؤسسات تلك الأمبراطورية المختلفة وهي لا تزال في المدرسة الثانوية، وسددت وشقيقها أقساطهما الدراسية بفضل منح مؤسسة سكوب.

قال لها: «تبدين مذهلة»، ولكنه في الواقع وجد أنها تبدو متعبة.

ردت له ليندا بِكْ الابتسامة، وقالت: «شكرًا، سيد سكوب.»

– كم مرة طلبت منك أن تناديني «غريف»؟

– مئات المرات.

– كيف حال شونا؟

– متوعكة قليلًا.

– بلغيها سلامي.

– سأفعل، شكرًا.

– ربما يجدر بنا أن نجتمع الأسبوع المقبل.

– سأتصل بسكرتيرتك.

– جيد.

طبع غريفن قبلة خفيفة على خدها، وفي تلك اللحظة لمح لاري غاندل في البهو. بدا لاري مشوش النظرات سيئ الهندام، لكن هذا هو في الواقع مظهره الاعتيادي. فحتى لو ارتدى بزة مفصلة أنيقة من تصميم جوزف عبود، فلن تنقضي ساعة إلا وسيبدو كمن خرج من شجار.

لم يكن من المفترض أن يكون لاري غاندل هنا.

إلتقت أعين الرجلين، فأومأ لاري برأسه مرة واحدة ثم استدار مبتعدًا. وانتظر غريفن برهة أو اثنتين قبل أن يتبع صديقه الشاب عبر الرواق.

بدوره كان إدوارد، والد لاري، من أصدقاء الدراسة القدامى لغريفن في نيوآرك. مات إدوارد غاندل بأزمة قلبية مفاجئة منذ اثني عشر عامًا. يا للخسارة، فقد كان رجلًا ممتازًا. ومنذ ذلك الحين، حل الابن محل أبيه بصفته أقرب المؤتمنين على أسرار سكوب.

دخل الرجلان مكتبة غريفن، والتي كانت في الماضي غرفة رائعة من خشب السنديان والماهوغاني تكسو جدرانها رفوف الكتب من الأرض حتى السقف وتزينها المصابيح الأثرية. إلا أن أليسون رأت منذ عامين، في مزاج من الولع بديكور فترة ما بعد الحداثة، أن الغرفة تحتاج إلى تجديد كامل. فأزيلت منها الزخرفة الخشبية القديمة لتصبح الآن بيضاء اللون، لماعة، عملية، وفيها كل ما في مقصورات المكاتب الحديثة من دفء. كانت أليسون فخورة بالغرفة إلى حدّ أن غريفن لم يجرؤ على أن يخبرها إلى أي مدى يمقتها.

سأل غريفن: «هل وقعت أية مشكلة هذا المساء؟»

قال لاري: «لا.»

دعاه غريفن للجلوس، لكن لاري رفض وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. سأله غريفن:

– هل كان الأمر سيئًا؟

– كان علينا التأكد من عدم إغفال أي تفصيل.

– بالطبع.

كان أحدهم قد هاجم راندال، ابن غريفن، فقام الأخير بهجوم مضاد. كانت تلك أمثولة لم ينسها قط. فحين يتعرض المرء أو أحد أحبائه إلى اعتداء، لا يجلس مكتوف اليدين، ولا يتصرف كالحكومة و«ردود فعلها التي تتناسب والفعل»، وما إلى ذلك من تفاهات. حين يتعرض المرء للأذى، فإن مشاعر الرحمة والشفقة يجب أن توضع جانبًا، ويصبح عليه أن يتخلص من عدوه وأن يحرق الأرض. والذين يهزأون بهذه الفلسفة ويعتبرونها مكيافيلية بلا جدوى، هم في العادة مَن يتسببون بأكبر قدر من التدمير.

twitter @baghdad_library

في النهاية، إذا أسرعنا في القضاء على المشاكل، فإننا نتفادى إراقة المزيد من الدماء.

سأل غريفن: «إذًا، ما المشكلة؟»

واصل غاندل ذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وفرك مقدمة رأسه الأصلع. لم يرق هذا الأمر غريفن على الإطلاق، فلاري ليس من النوع الذي يتوتر بسهولة. قال لاري:

– لم أكذب عليك قط يا غريف.

– أعلم هذا.

– ولكن ثمة أوقاتًا للكتمان.

– الكتمان؟

– حول مَن أكلفهم تنفيذ الأعمال، مثلًا. أنا لا أطلعك على أسماء قط، كما لا أطلعهم على أي أسماء قط.

– تلك مجرد تفاصيل.

– أجل.

– ما الأمر يا لاري؟

توقف لاري عن المشي، وأجاب: «منذ ثماني سنوات، أنت تتذكر أننا كلفنا رجلين القيام بمهمة معينة.»

شحب وجه غريفن تمامًا، وابتلع ريقه، وقال:

– وقد أديا المهمة على أكمل وجه.

– أجل... ربما.

– لم أفهم.

– لقد أديا مهمتهما، أو على الأقل، جزءًا منها. وأزيل الخطر ظاهريًا.

على الرغم من مسح المنزل أسبوعيًا للتأكد من عدم وجود أية أجهزة تنصت، إلا أن الرجلين لم يكونا يتلفظان بأية أسماء قط. تلك كانت إحدى قواعد سكوب. غالبًا ما تساءل لاري عما إذا فرض تلك القاعدة بهدف الحذر، أو لأنها تساعد على إزالة الطابع الشخصي عن الأعمال التي يضطرون من حين إلى آخر إلى القيام بها. وكان يرجح الاحتمال الثاني.

أخيرًا تهالك غريفن في كرسي وكأن أحدهم دفعه فيه، وقال بصوت ضعيف:

– لماذا تثير الموضوع الآن؟

– أعرف كم يؤلمك الحديث فيه.

لم يجب غريفن بشي، وتابع لاري يقول:

– لقد دفعتُ للرجلين بسخاء.

– كما كنت قد توقعت.

– نعم.

تنحنح لاري، وأضاف: «حسنًا، بعد الحادث، كان يُفترض بهما أن يتواريا عن الأنظار لفترة، من باب الاحتياط.»

– تابع حديثك.

– لم نسمع عنهما بعد ذلك أي خبر على الإطلاق.

– كانا قد حصّلا نقودهما كلها، أليس كذلك؟

– نعم.

– ما المفاجئ في ذلك؟ لعلهما هربا بثروتهما الجديدة، أو انتقلا للسكن في مكان آخر من البلاد، أو غيرا هويتيهما.

قال لاري:

– هذا ما افترضنا دائمًا أنه حدث.

– ولكن؟

– عُثر على جثتيهما الأسبوع الماضي. لقد ماتا.

– ما زلت لا أرى أين المشكلة. كانا رجلين عنيفين، ولربما لقيا نهاية عنيفة.

– كانت الجثتان قديمتين.

– قديمتين؟

– إنهما ميتان منذ أكثر من خمس سنوات. وعُثِر عليهما مدفونين على مقربة من البحيرة حيث... حيث وقع الحادث.

فتح غريفن فمه، وأغلقه. ثم حاول ثانية، فقال:

twitter @baghdad_library

– إنني لا أفهم.

– بصراحة، ولا أنا أفهم.

هذا كثير. هذا كثير جدًا. قاوم غريفن الدموع طوال الليل، خلال الاحتفال الذي يُقام على شرف براندون. وها هي مأساة جريمة قتل براندون تعود بغتة للظهور. شعر غريفن بنفسه على شفير الانهيار.

رفع غريفن عينيه نحو الرجل المؤتمن على أسراره، وقال له:

– ممنوع أن يعود هذا الأمر للظهور.

– أعلم هذا، يا غريف.

– علينا أن نكتشف ما حدث. كل شيء.

– واصلتُ مراقبة كل الرجال في حياتها، ولا سيما زوجها، تحسبًا لما قد يستجد. وقد سخرت كل مصادري الآن للعمل على الأمر.

قال غريفن:

– جيد. هذه القضية يجب أن يعاد دفنها مهما كلف الأمر. ولا يهمني أبدًا مَن يُدفن معها.

– فهمت.

– لاري؟

وقف غاندل منتظرًا.

«أعرف اسم أحد الرجال الذين تستخدمهم.» كان يقصد إريك وو. مسح غريفن سكوب الدموع من عينيه، ونهض عائدًا إلى ضيوفه، قائلًا: «إستخدِمه.»

8

إستأجرت شونا وليندا شقة بثلاث غرف نوم، تقع عند تقاطع طريق ريفرسايد والشارع 116، لا تبعد كثيرًا عن جامعة كولومبيا. نجحتُ في العثور على موقف لسيارتي في مكان قريب من ذلك الشارع، وهو ما يوازي في استحالته حدوث معجزة.

فتحت لي شونا الباب بواسطة الإنترفون. لم تكن ليندا قد عادت من الحفلة بعد، وكان مارك نائمًا. دخلتُ غرفته على أطراف أصابعي، وقبّلت جبينه. ظل مارك متعلقًا بالشغف الذي أحدثه بوكيمون، وظهر ذلك جليًا من خلال الشراشف المزينة بطبعات بيكاتشو، والدمية المحشوة التي استسلم للنوم وهي بين ذراعيه. ينتقد الناس هذه الصرعة، ولكنها كانت تذكرني بهوسي في طفولتي بالرجل الوطواط وكابتن أميريكا. تأملت مارك بضع ثوانٍ أخرى. أمر مبتذل، صحيح، لكن هذه التفاصيل البسيطة هي الأهم.

وقفت شونا في الرواق تنتظر. وعندما انتقلنا أخيرًا إلى البهو، سألتها: «أتمانعين أن أصب لنفسي كأسًا؟»

رفعت شونا كتفيها وأجابت: «إفعل ما يحلو لك.»

صببت لنفسي مقدار إصبعين من البوربون، وقت لها: «ألن تشاركيني؟»

هزت رأسها بالنفي.

twitter @baghdad_library

جلسنا على الأريكة. سألتها: «متى يُفترض بليندا العودة؟»

«مَن يعلم؟» أتى جواب شونا بطيئًا، ولم يرقني. فقلت:

– اللعنة.

– إنها حالة مؤقتة، بِكْ. أحب ليندا، أنت تعلم ذلك.

– قلت مجددًا: «اللعنة.»

في العام الماضي، انفصلت ليندا وشونا لمدة شهرين. كان الأمر سيئًا، ولا سيما بالنسبة إلى مارك. قالت شونا:

– لن أترك المنزل.

– ما المشكلة إذًا؟

– الموضوع القديم هو هو. مهنتي بارزة ووسط الأضواء، ويحيط بي دائمًا أشخاص جميلو الطلعة ومثيرون للاهتمام. لا شيء جديدًا، أليس كذلك؟ كلنا يعلم ذلك. على أية حال، تعتقد ليندا أنني أهتم بأخريات.

– وهذا صحيح.

– نعم، بالتأكيد، ولكنه ليس بالأمر الجديد، أليس كذلك؟

لم أردّ. تابعت شونا تقول:

– في نهاية المطاف، ليندا هي التي أعود إليها مساء كل يوم.

– ألا تسلكين أبدًا أية طرق مواربة في العودة إليها؟

– حتى ولو فعلتُ ذلك، فذلك غير ذي أهمية، وأنت تعلم. لا يناسبني أن أكون خلف القضبان. أنا بحاجة إلى أضواء المهرجان.

قلت لها:

– إستعارتان لفظيتان جميلتان.

– على الأقل، جمعتهما القافية.

شربتُ في صمت للحظات قليلة. ثم سألتني شونا:

– بِكْ؟

– ماذا؟

– دورك الآن.

– ماذا تقصدين؟

حدجتني بنظرة نارية وانتظرتْ.

فكرتُ في التحذير الذي ورد في نهاية الرسالة الإلكترونية: «لا تخبر أحدًا.» لو كانت الرسالة من إليزابيت فعلًا – كان عقلي يجد صعوبة حتى في التفكير في أمر كهذا – فستدرك أنني سأخبر شونا. ليندا... قد لا أخبرها. ولكن شونا؟ أنا أخبرها كل شيء، هذا تحصيل الحاصل.

قلت لها: «ثمة احتمال بأن إليزابيت لا تزال على قيد الحياة.»

لم يبدُ على شونا أي انفعال، بل قالت:

– لقد هربتْ مع إلفيس، أليس كذلك؟

لكنها، وعندما شاهدت وجهي، توقفت، وقالت لي: «أوضِح.»

أوضحتُ، وأخبرتها عن الرسالة الإلكترونية، وعن كاميرا الشارع. وأخبرتها عن رؤيتي إليزابيت على شاشة الكمبيوتر. لم ترفع شونا عينيها عني لحظة واحدة. ولم تبدر عنها هزة رأس واحدة أو عبارة مقاطعة. عندما انتهيت، أخرجتْ بعناية سيجارة من العلبة ووضعتها في فمها. كانت شونا قد أقلعت عن التدخين منذ سنوات، ولكنها ظلت تهوى العبث بالسجائر. راحت تتفحص العود الجالب للسرطان، وتقلّبه في يدها، وكأنها لم ترَ مثيلًا له قط. وكادت أسنان دواليب تفكيرها تُسمع وهي تتلاقى وتدور.

قالت: «حسنًا، إذًا، في الثامنة والربع من مساء الغد، يُفترض بالرسالة التالية أن تصل، أليس كذلك؟»

أومأت برأسي أنْ نعم.

– إذن ننتظر حتى ذلك الحين.

أعادت السيجارة إلى العلبة.

– ألا تعتقدين أن الأمر جنوني؟

رفعت شونا كتفيها. وأجابت:

– هذا خارج عن موضوعنا.

– ماذا تعنين؟

– ثمة عدة احتمالات من شأنها أن تفسر ما قلته لي.

– بما في ذلك الجنون.

twitter @baghdad_library

– نعم، بالتأكيد، هذا احتمال قوي. ولكن ما الذي سنجنيه من إطلاق فرضيات سلبية الآن؟ دعنا نفترض أن الأمر صحيح. دعنا نفترض أنك رأيت ما رأيت، وأن إليزابيت ما زالت حية. إذا كنا مخطئين، فسوف نعلم ذلك قريبًا، أما إذا كنا محقين...

قطبت شونا حاجبيها، وفكرت في الأمر، ثم هزت رأسها وقالت: «رباه. كم أتمنى أن نكون محقين.»

قلت لها باسمًا: «أحبك، تعلمين هذا.»

أجابت: «نعم. كلهم يحبونني.»

لدى عودتي إلى المنزل، صببت لنفسي كأسًا سريعة أخيرة. رشفتُ منها رشفة عميقة وسمحت للشراب الدافئ بالسفر إلى وجهات معروفة جيدًا. نعم، إنني أشرب، ولكنني لست بسكير. وهذا ليس إنكارًا للواقع، فأنا أدرك جيدًا أنني أغازل إدمان الكحول. وأدرك أيضًا أن مغازلة إدمان الكحول آمنة كمغازلة الابنة القاصر لرجل عصابات خطير. ولكن المغازلة لم تؤد حتى الآن إلى معاشرة، فأنا ذكي بما يكفي لأعرف أنها قد لا تدوم.

إقتربت مني كلوي بتعبيرها المعهود الذي يمكن تلخيصه هكذا: «طعام، نزهة، طعام، نزهة.» إن للكلاب إصرارًا عجيبًا. ألقيت لها بوجبة طعام، ثم أخذتها في نزهة في الحي. ترك النسيم البارد شعورًا سارًا في رئتي، ولكن المشي لم يساعدني قط على استعادة صفاء ذهني. في الواقع أن السير رياضة مملة للغاية، ولكنني كنت أحب مشاهدة كلوي تمشي. أعرف أن هذا يبدو غريبًا بعض الشيء، ولكن الكلاب تستمد متعة كبيرة من هذا النشاط البسيط. كانت مراقبتي لها تمشي تثير في نوعًا من سعادة الزِن.

لدى عودتنا إلى المنزل توجهتُ بهدوء نحو غرفة نومي، وتبعتني كلوي. كان جدي نائمًا، وكذلك ممرضته الجديدة، التي راحت تشخر بصوتٍ مرتفع يشبه الشخير في أفلام الكرتون. شغلت جهاز الكمبيوتر، وتساءلت لماذا لم يُعد الشريف لويل الاتصال بي. فكرت في أن أتصل به برغم أن الساعة قاربت منتصف الليل. ثم قلتُ في نفسي: «هذا غير لائق.»

مع ذلك، أخذت الهاتف، وطلبت الرقم. كان لويل يملك هاتفًا خلويًا. في حال كان نائمًا، يمكنه إطفاءه إذا أراد، أليس كذلك؟

أجاب بعد الرنة الثالثة. قال: «آلو، دكتور بِكْ.»

كان صوته صارمًا، كما لاحظت أنه لم يعد يناديني «دوك». سألته:

– لماذا لم تعاود الاتصال بي؟

– تقدّم الوقت، فقلت لنفسي إنني سأجدك غدًا صباحًا.

– لماذا سألتني عن سارة غودهارت؟

قال: «غدًا.»

– عفوًا؟

– تقدّم الوقت، دكتور بِكْ. أنا خارج الخدمة الآن. كما أظنني أفضّل أن أناقش هذا الأمر معك شخصيًا.

– ألا يمكنك على الأقل أن تقول لي...

– هل ستكون في عيادتك في الصباح؟

– نعم.

– سأتصل بك آنذاك.

تمنى لي لويل ليلة طيبة بتهذيب ولكن بحزم ثم أنهى الاتصال. حدقت في الهاتف، وتساءلت عما يجري.

كانت فكرة النوم الآن غير واردة. قضيت معظم الليل أتصفح شبكة الإنترنت، باحثًا بين كاميرات شوارع في مدن مختلفة، على أمل أن أعثر على ذلك الشارع. كنت كمن يبحث عن إبرة التكنولوجيا المتطورة وسط كومة قش بحجم العالم.

في مرحلة ما، توقفت عن البحث ودخلت سريري. الصبر جزء بالغ الأهمية من عمل الطبيب. أطلب دائمًا من الأطفال إجراء فحوص قد تترتب عليها آثار تُغير حياتهم – أو حتى تنهيها – وأسألهم وذويهم انتظار النتائج. ما من خيار لديهم. ولعل الأمر عينه يُقال عن هذا الوضع. كانت ثمة متغيرات كثيرة الآن. لكن في الغد، حين أدخل شبكة الإنترنت إلى عنوان بيغ فوت باسم بات ستريت مستخدمًا كلة السر «مراهقون»، قد أعرف أمورًا جديدة.

twitter @baghdad_library

حدقت إلى سقف الغرفة لفترة من الوقت. ثم نظرت إلى يميني، حيث كانت تنام إليزابيت. لطالما غفوت أنا أوّلًا. كنت أستلقي هكذا وأتأملها، فلا أرى منها سوى جانبها، وهي تقرأ كتابًا، مستغرقة تمامًا في ما تقرأ. ذلك كان آخر ما تراه عيناي قبل أن أغمضهما وأغرق في سبات عميق.

إستدرت في السرير وواجهت الجهة الأخرى من الغرفة.

عند الرابعة صباحًا، راح لاري غاندل يتأمل خصلات شعر إريك وو المنزوعة اللون. كان وو منضبطًا للغاية. فهو، وحين لا يتدرب ليزداد قوة، يكون جالسًا أمام شاشة كمبيوتر. كانت بشرته قد اكتسبت ذلك اللون المَرَضي، الأبيض الذي تخالطه زرقة، منذ آلاف الجلسات أمام مواقع الإنترنت. إلا أن جسده بقي كالإسمنت الصلب.

قال غاندل: «حسنًا؟»

نزع وو سماعتيه من أذنيه، ثم طوى ذراعيه الشبيهتين بالأعمدة الرخامية فوق صدره، وقال:

– أنا محتار.

– أخبرني.

– لم يحتفظ الدكتور بِكْ إلا بالقليل القليل من الرسائل الإلكترونية، وهي تخص بعض المرضى. هو لا يحتفظ بأية رسائل شخصية أبدًا، لكنه تلقى رسالتين غريبتين في اليومين الماضيين.

لم يبعد إريك وو عينيه عن الشاشة، وأعطى غاندل ورقتين من فوق كتفه الشبيهة بكرة بولينغ. ألقى لاري غاندل نظرة على الرسالتَين الإلكترونيتين وعبس، ثم سأل وو:

– ماذا تعنيان؟

– لا أعلم.

تصفح غاندل الرسالة التي تتحدث عن نقر شيء ما في «وقت القبلة». لم يكن ذا إلمام كبير بأجهزة الكمبيوتر، ولا كان يريد أن يفهم. عاد بنظراته إلى أعلى الورقة، وقرأ الموضوع:

إ. ب. + د. ب. وعدد من الخطوط.

فكر غاندل يفكر في الأمر. «د. ب.» ربما تعني دايفيد بِكْ ربما؟ و«إ. ب.»...

وقع عليه المعنى كالصاعقة. فأعاد الورقة إلى وو ببطء، وسأله:

– من أرسلِ هذا؟

– لا أعرف.

– إعرف.

– مستحيل.

– لماذا؟

– لقد استخدم المرسل نظام بريد إلكتروني مجهولًا.

كان وو يتكلم بنبرة صبورة ورتيبة على نحو يكاد لا يشبه البشر. وهو يستخدم النبرة عينها سواء أكان يتحدث عن حال الطقس، أو يقتلع خد رجل. أضاف يقول:

– لن أدخل في مصطلحات الكمبيوتر، ولكن من المستحيل تتبّع المصدر.

حول غاندل انتباهه إلى الرسالة الإلكترونية الأخرى، تلك التي وردت فيها كلمات «بات ستريت» و«مراهقون». لكنه لم يفهم منها شيئًا. سأل وو:

– وهذه؟ أيمكنك تتبع مصدرها؟

هز وو رأسه بالنفي وقال:

– أيضًا، إنه نظام بريد إلكتروني مجهول.

– هل مرسل الرسالتين واحد؟

– لن يختلف تخميني عن تخمينك.

– ماذا عن المحتوى؟ هل تعرف ما تتكلم عنه أية منهما؟

نقر وو بعض المفاتيح وظهرت الرسالة الإلكترونية الأولى. أشار بإصبعه الغليظة ذات العروق البارزة إلى الشاشة، وقال:

– أترى تلك الكلمات بالأزرق؟ هذا رابط تشعبي. كل ما كان على الدكتور بِكْ أن يفعله هو أن ينقر الرابط، فيأخذه إلى مكان ما، ربما إلى موقع إنترنت.

– أي موقع إنترنت؟

twitter @baghdad_library

– إنه رابط معطل. وأيضًا، لا يمكن تتبع أثره.

– وكان من المفترض أن يفعل بِكْ هذا في «وقت القبلة»؟

– هذا ما تقوله الرسالة.

– وهل «وقت القبلة» من مصطلحات الكمبيوتر؟

كاد وو يبتسم، وأجاب: «لا.»

– إذًا فأنت لا تعرف الوقت الذي تشير إليه الرسالة الإلكترونية؟

– صحيح.

– ولا حتى إذا تجاوزنا وقت القبلة أم لا؟

– لقد مضى وقت القبلة.

– ما أدراك؟

– متصفح الإنترنت في جهازه يكشف آخر عشرين موقعًا زارها. لقد نقر الرابط التشعبي. في الواقع، نقره عدة مرات.

– ألا يمكنك... أن تتبعه إلى حيث ذهب؟

– لا. لا جدوى من الرابط.

– ماذا عن الرسالة الإلكترونية الأخرى؟

ضغط وو بعض المفاتيح، فتغيرت الشاشة وظهرت الرسالة الإلكترونية الثانية. وقال:

– هذه الرسالة أسهل فهمًا. والواقع أنها بسيطة جدًا.

– حسنًا، أنا أصغي.

أوضح وو يقول:

– أنشأ المرسل المجهول حساب بريد إلكتروني للدكتور بِكْ، وأعطاه اسم مستخدم وكلمة مرور. ومجددًا، ذكر وقت القبلة.

قال غاندل:

– دعني أرى إن فهمت. يزور بِكْ أحد المواقع الإلكترونية، ويُدخل اسم المستخدم وكلمة المرور، فيجد رسالة في انتظاره؟

– هذه هي النظرية، نعم.

– أيمكننا أن نفعل ذلك أيضًا؟

– أن ندخل الموقع باستخدام اسم المستخدم وكلمة المرور ذاتهما؟

– نعم، وأن نقرأ الرسالة.

– جربتُ ذلك. الحساب غير موجود بعد.

– لماذا؟

رفع إريك وو كتفيه، وأجاب:

– يستطيع المرسل المجهول أن ينشئ الحساب لاحقًا، في وقت قريب من وقت القبلة.

– ماذا يمكن أن نستخلصه من كل هذا؟

قال وو، وضوء الشاشة يتراقص في عينَيه الخاليتين من أي تعبير:

– ببساطة، أحدهم يبذل جهدًا كبيرًا جدًا لكي يبقى مجهولًا.

– إذًا كيف سنتمكن من معرفة مَن هو؟

رفع وو جهازًا صغيرًا يشبه شيئًا قد نجده في راديو ترانزستور، وقال:

– زرعنا أحد هذه الأجهزة في كمبيوتر منزله، وكمبيوتر عمله.

– ما هو؟

– جهاز تعقب رقمي لشبكة الإنترنت، وهو يرسل إشارات رقمية من كمبيوتريه إلى كمبيوتري. إذا تلقى الدكتور بِكْ أية رسائل إلكترونية، أو زار أية مواقع إلكترونية، أو حتى إذا قام فقط بكتابة رسالة، يمكننا رصد كل شيء ساعة حدوثه.

قال غاندل:

– إذًا ما علينا سوى الانتظار والمراقبة.

– نعم.

فكر غاندل في ما قاله له وو، حول الجهد الكبير الذي كان أحدهم يبذله للبقاء مجهولًا، فبدأ شك مريع يتسلل إلى أحشائه.

twitter @baghdad_library

9

ركنت سيارتي في الموقف على بعد شارعين من العيادة. لم يتسن لي قط أن أجد موقفًا على مسافة أقل من شارع.

ظهر أمامي الشريف لويل وبرفقته رجلان لهما تسريحة شعر قصيرة للغاية، يرتديان بزتين رماديتين، ويستندان إلى سيارة بويك كبيرة بنية اللون. كان الرجلان نقيضين تمامًا من ناحية المظهر الخارجي. فأحدهما طويل القامة، ونحيل، وأبيض البشرة، فيما الآخر قصير، وبدين، وأسود، فبدوا معًا ككرة بولينغ تندفع لإسقاط الوتد الأخير. حين رأياني ابتسما لي، بعكس لويل.

قال لي وتد البولينغ الطويل الأبيض: «دكتور بِكْ؟» كان في غاية الأناقة، وصفف شعره بالجِل، ودس في جيب سترته منديلًا مطويًا، وعقد ربطة عنقه بدقة فائقة، ووضع نظارة بإطار ذي نقش ملون من أعمال المصممين الكبار، كالنوع الذي يضعه الممثلون عندما يرغبون في الظهور بمظهر الأذكياء.

نظرت إلى لويل، فلم ينبس ببنت شفة.

قلتُ: «نعم.»

تابع الرجل الأنيق يقول: «أنا العميل الخاص نيك كارلسون، من مكتب التحقيق الفدرالي، وهذا هو العميل الخاص توم ستون.»

وأظهرا لي شارتيهما. رفع ستون، وهو أقصرهما وأرثهما هيئة، سرواله، وأومأ لي برأسه. ثم فتح الباب الخلفي لسيارة البويك.

– أتمانع المجيء معنا؟

قلتُ لهما: «لدي مرضى أعاينهم بعد خمس عشرة دقيقة.»

قال كارلسون: «لقد اهتممنا بهذا الأمر.» ثم لوح كارلسون بذراعه الطويله نحو باب السيارة، كما لو أنه يعرض على مشاركٍ جائزة في برنامج مسابقات، وتابع: «من فضلك.»

جلست في المقعد الخلفي للسيارة التي قادها كارلسون، فيما حشر ستون جسده المكتنز في المقعد الأمامي، ولم يرافقنا لويل. بقينا في مانهاتن، وبرغم ذلك استغرقت الرحلة بالسيارة نحو خمس وأربعين دقيقة. إنتهى بنا المطاف في برودواي في وسط المدينة، بقرب شارع دوان، حيث أوقف كارلسون السيارة أمام مبنى إداري يحمل لافتة عليها «26 فدرال بلازا».

كان المبنى من الداخل مبنى إداريًا تقليديًا، وفيه رجال ببزات رسمية، لطفاء على نحو مفاجئ، يتنقلون وفي أيديهم أكواب قهوة لمصممين كبار. كان في المبنى نساء أيضًا، لكنهن قلة. إنتقلنا إلى غرفة اجتماعات، حيث دُعِيتُ للجلوس، فجلست. حاولتُ أن أعقد ساقًا فوق ساق، ولكن ذلك لم يبدُ لي ملائمًا.

سألتهما: «هلا يخبرني أحد ما يجري؟»

تولى الكلام وتد البولينغ الأبيض، كارلسون، فسألني: «أيمكننا أن نقدم لك شيئًا؟ إننا نعد القهوة الأسوأ مذاقًا في العالم، في حال كان الأمر يهمك.»

كان ذلك يفسر أكواب المصممين الكبار. إبتسم لي كارلسون، فبادلته الابتسامة وقلت له: «هذا مغرٍ، ولكن لا، شكرًا لك.»

– ما رأيك إذًا بالمرطبات؟ ألدينا مشروبات غازية، يا توم؟

– بالتأكيد يا نيك، كوكاكولا، كولا دايت، سبرايت، لدينا كل ما قد يرغب فيه الدكتور.»

إبتسما مجددًا، فأجبت: «لا داعي، شكرًا.»

جرب ستون إقناعي قائلًا: «شنابل؟» ومجددًا رفع سرواله. كانت معدته مستديرة إلى حدّ يصعب معه العثور على بقعة لا تنزلق عنها حافة السروال. وأضاف: «لدينا مجموعة أصناف مختلفة هنا.»

twitter @baghdad_library

كدت أوافق فقط لكي ننتهي من الأمر، ولكنني رفضت عرضه بلطف. كانت الطاولة المصنوعة من صنفٍ ما من الفورمايكا خالية إلا من ظرف أسمر كبير. لم أعرف ما أفعل بيدي، فوضعتهما على الطاولة. سار ستون إلى جانب الطاولة ووقف هناك، فيما جلس كارلسون، الذي ظل يتولى الكلام، على زاوية المائدة واستدار لينظر إلي من الأعلى.

سألني: «ماذا يمكنك أن تخبرنا عن سارة غودهارت؟»

كنت غير واثق من كيفية الإجابة. حاولت جاهدًا معرفة ما يجري، ولكنني لم أتوصل إلى شيء؟

«دوك؟»

رفعت إليه عينيّ، وسألته: «لماذا تريد أن تعرف؟»

تبادل كارلسون وستون نظرة سريعة، وقال كارلسون:

– ظهر اسم سارة غودهارت في مسار تحقيق جارٍ.

– أي تحقيق؟

– نفضل عدم البوح بذلك.

– لا أفهم. ما علاقتي بالموضوع؟

تنهد كارلسون طويلًا، ثم نظر إلى رفيقه السمين، وفجأة غابت كل الابتسامات، وسأل شريكه:

– هل أطرح سؤالًا معقدًا يا توم؟

– لا يا نيك، لا أظن ذلك.

– وأنا أيضًا لا أظن ذلك.

نظر إلي كارلسون مجددًا وسألني: «أتعترض ربما على شكل السؤال، يا دوك؟ أهذه هي المشكلة؟»

تدخل ستون قائلًا: «هذا ما يفعلونه دائمًا في المسلسل البوليسي «ذا براكتيس»، يعترضون على شكل السؤال.»

– أجل، أجل، ثم يقولون «سأعيد صياغة السؤال.» أليس كذلك؟ أو شيئًا من هذا القبيل.

– من هذا القبيل، نعم.

نظر كارلسون إلي من الأعلى، وقال: «إذًا، دعني أعيد صياغة السؤال: هل يعني لك اسم سارة غودهارت شيئًا؟»

لم يرقني ذلك. لم يرقني أسلوبهم، أو حلولهم محل لويل، أو استجوابي المقلق في غرفة الاجتماعات هذه. لا شك بأنهم يعرفون ما يعنيه الاسم، فلم يكن هذا بالأمر العسير. يكفي إلقاء نظرة خاطفة على اسم إليزابيت الكامل وعنوانها. قررت التقدم بروية، فقلت:

– إسم زوجتي الأوسط هو سارة.

قال كارلسون: «إسم زوجتي الأوسط هو جيرترود.»

– يا إلهي، هذا فظيع يا نيك.

– ما اسم زوجتك الأوسط يا توم؟

– ماكداود، إنها شهرة.

– أحب ذلك. أحب استخدام الشهرة اسمًا أوسط، فهكذا يكرم الأجداد.

– أنا أيضًا يا نيك.

حول الرجلان نظراتهما في اتجاهي مجددًا.

– ما هو اسمك الأوسط يا دوك؟

– كريغ.

كرر كارلسون: «كريغ. حسنًا، إذًا لو سألتك عما إذا كان الاسم، فلنقل... – ولوح بذراعيه بشكل مسرحي – «كريغ ديبواد» يعني لك شيئًا، فهل ستقول بابتهاج: «إسمي الأوسط هو كريغ؟»

مجددًا، حدجني كارلسون بتلك النظرة القاسية.

أجبته: «لا أعتقدني سأفعل.»

– لا أعتقدني سأفعل. إذًا، فلنحاول مرة أخرى: هل سمعت باسم سارة غودهارت، نعم أو لا؟

– أتعني هل سمعتُ به بالمطلق؟

قال ستون: «رباه!»

إحمر وجه كارلسون، وسألني: «هل تلعب معنا لعبة دلالات الألفاظ الآن، يا دوك؟»

twitter @baghdad_library

كان على حق. فأنا أتصرف بغباء، وأتخبط خبط عشواء. وتلك الجملة الأخيرة في الرسالة الإلكترونية، **«لا تخبر أحدًا»**، ما انفكت تومض في رأسي كلافتة نيون، وسيطر علي الارتباك. لا بد من أنهم يعرفون أمر سارة غودهارت. وهذا كله مجرد اختبار لمعرفة ما إذا كنت سأتعاون معهم أو لا. هذه حقيقة الأمر. ربما. ولكن فيمَ أتعاون معهم؟

قلت: «نشأت زوجتي في شارع غودهارت»، وتراجع كلاهما إلى الخلف قليلًا، مفسحَين لي مجالًا، وعقد كل منهما ذراعيه على صدره. قاداني إلى ضفة من الصمت، وبكل حماقة قفزت. وتابعتُ أقول: «لهذا قلت إن سارة هو الاسم الأوسط لزوجتي. كلمة غودهارت جعلتني أفكر فيها.»

سألني كارلسون: «لأنها نشأت في شارع غودهارت؟»

– نعم.

– وكأن كلمة «غودهارت» حفزتك لتتذكر؟

– نعم.

قال كارلسون: «يبدو لي هذا الأمر منطقيًا.» ثم نظر إلى شريكه وسأله: «أيبدو لك الأمر منطقيًا، يا توم؟»

أجاب ستون موافقًا، وهو يربت على معدته: «طبعًا، لم يحاول التملص من الإجابة. كانت كلمة «غودهارت» محفزًا لذاكرته.

– تمامًا، هذا ما جعله يفكر في زوجته.

مجددًا، نظرا إليّ كلاهما. وهذه المرة أرغمت نفسي على البقاء صامتًا.

سألني كارلسون: «هل استخدمت زوجتك اسم سارة غودهارت يومًا؟»

– استخدمته كيف؟

– هل سبق لها أن قالت يومًا: «مرحبًا، أنا سارة غودهارت»، أو استحصلت على بطاقة هوية بذلك الاسم، أو نزلت في فندق ما...

– لا.

– هل أنت متأكد؟

– نعم.

– أتقول الحقيقة؟

– نعم.

– ألا تحتاج إلى محفز آخر؟

إستويتُ في جلستي وقررت إظهار بعض الحزم، فقلت: «لا يروقني أسلوبك كثيرًا، أيها العميل كارلسون.»

عادت إليه تلك الابتسامة العريضة الكفيلة بجعل أي طبيبٍ للأسنان فخورًا، ولكنها كانت أشبه بنسخة هجينة شريرة لابتسامته الأولى. ورفع يده وقال: «المعذرة، نعم، حسنًا، كان قولًا وقحًا.» ونظر حوله وكأنه يفكر في ما سيقول، فلبثت أنتظر.

– هل سبق لك أن ضربت زوجتك يومًا، يا دوك؟

أحسستُ بسؤاله كسوط يجلدني.

– ماذا؟!

– هل يشعرك ذلك بالمتعة؟ أن تضرب امرأة؟

– ماذا... هل فقدت صوابك؟

– ما مبلغ التأمين الذي نلته عندما ماتت زوجتك؟

تجمدت. نظرت إلى وجهه، ثم إلى وجه ستون، فكانا خاليين من كل تعبير. لم أصدق ما أسمعه، وسألتهما:

– ماذا يجري هنا؟

– من فضلك، أجب فقط على السؤال. طبعًا إلا إذا كان لديك ما لا ترغب في إطلاعنا عليه.

أجبتُ: «هذا ليس سرًا. كانت قيمة البوليصة مئتي ألف دولار.»

صفر ستون، وعقب يقول: «مئتا ألف دولار بدل تأمين بعد وفاة الزوجة. نيك، متى يحين دوري؟»

– مبلغ كبير جدًا من المال لقاء التأمين على حياة امرأة عمرها خمسة وعشرون عامًا.

قلُت: «كان قريبها يؤسس شركة تأمين.» وتعثرتُ في الكلام. الغريب أنني، وبالرغم من معرفتي بعدم ارتكابي أي خطأ – أقله ليس هذا ما كانا يظنانه – بدأت أشعر بالذنب، وأخذ العرق يتصبب من إبطي. تابعتُ: «أرادت مساعدته في أعماله، فاشترت منه تلك البوليصة الكبيرة.»

twitter @baghdad_library

قال كارلسون: «لطف منها أن تفعل ذلك.»

أضاف ستون: «أجل، لطف كبير منها أن تفعل. الروابط العائلية مهمة جدًا. ألا تعتقد ذلك؟»

لم أقل شيئًا، عاد كارلسون للجلوس على زاوية الطاولة، وغابت ابتسامته من جديد. قال لي: «أنظر إلي، دوك.»

نظرتُ إليه، فراحت عيناه تخترقانني. نجحت في الحفاظ على الاتصال البصري بيننا، لكن بصعوبة كبيرة. قال لي ببطء:

– أجب على سؤالي هذه المرة، ولا تتظاهر بأنك تشعر بالصدمة أو بالإهانة. هل سبق لك أن ضربت زوجتك؟

– لا، أبدًا.

– ولا حتى مرة واحدة؟

– ولا حتى مرة واحدة.

– هل سبق لك أن دفعتها بخشونة؟

– لا، أبدًا.

– أو استشطتَ بها غضبًا؟ من منا لم يفعل ذلك يا دوك؟ فوجهت إليها صفعة سريعة. تلك ليست جريمة حقيقية. هذا تصرف طبيعي تمامًا عندما يتعلق الأمر بشؤون القلب، تعرف ما أعنيه؟

– لم أضرب زوجتي، ولا دفعتها، ولا صفعتها، ولا استشطت بها غضبًا قط. لم أفعل ذلك قط.

نظر كارلسون إلى ستون وسأله:

– هل نلت جوابك يا توم؟

– بالتأكيد يا نيك. يقول إنه لم يضربها قط، هذا يكفيني.

حك كارلسون ذقنه، وعقب: «إلا إذا...»

– ماذا، يا نيك؟

– حسنًا، إلا إذا استطعتُ أن أحفز الدكتور بِكْ على الكلام مجددًا.

مجددًا، سُلطت علي النظرات. كان بإمكاني أن أسمع صدى أنفاسي المتقطعة في أذني، وشعرت بالدوار. لبث كارلسون قليلًا قبل أن يأخذ الظرف

الأسمر الكبير. وأخذ وقته في فك رباطه بأصابعه الطويلة النحيلة، ثم فتح الشق. رفع الظرف عاليًا بحيث سقطت محتوياته على الطاولة.

– ما رأيك بهذا المحفز، يا دوك؟

كانت صورًا فوتوغرافية، دفعها كارلسون نحوي. ألقيتُ عليها نظرة فشعرت بالفجوة في قلبي تتسع.

– دكتور بِكْ؟

حدقت إلى الصور، وامتدت أصابعي رويدًا رويدًا لتلامس سطحها.

إليزابيت.

كانت صورًا لإليزابيت. الصورة الأولى كانت لقطة قريبة وجانبية لوجهها، بدت فيها ترفع بذراعها اليمنى شعرها لتبعده عن أذنها. كانت عينها بنفسجية ومتورمة، وظهر جرح عميق ومزيد من الكدمات على عنقها، تحت الأذن.

بدت وكأنها كانت تبكي.

كانت ثمة صورة أخرى التُقطت من مستوى الخصر. وقفت إليزابيت وهي بحمالة صدر فقط، تشير إلى تلون كبير على قفصها الصدري، وعينها لا تزال سوداء. كذلك كانت الإضاءة قوية على نحو غريب، وكأن وميض الكاميرا قد بحث بنفسه عن الكدمة وقربها من العدسة.

كانت هناك ثلاث صور أخرى، كل منها التقط من زاوية مختلفة، ولأجزاء مختلفة من جسدها، أبرزت مزيدًا من الجروح والكدمات.

– دكتور بِكْ؟

رفعت عينيّ، فكدتُ أجفل من رؤية الرجلين في الحجرة. لم يظهر عليهما أي تعبير، وبدوا صبورين. نظرت إلى كارلسون، ثم إلى ستون، ثم عدت بنظري إلى كارلسون.

– هل تعتقدان إنني من فعل هذا؟

رفع كارلسون كتفيه، وقال:

– أخبرنا أنت.

– قطعًا لا.

– أتعلم كيف أصيبت زوجتك بتلك الكدمات؟

twitter @baghdad_library

– في حادث سيارة.

تبادلا نظرة وكأنني قلت لهما إن كلبي أكل فرضي المدرسي. فتابعت شارحًا:

– تعرضت لحادث سيارة بشع.

– متى؟

– لستُ واثقًا. قبل ثلاثة أو أربعة أشهر من... تجمدت الكلمات في حلقي لبرهة، من موتها.

– هل دخلت المستشفى؟

– لا، لا أظن ذلك.

– لا تظن ذلك؟

– لم أكن معها آنذاك.

– أين كنت؟

– كنت أحضر ورشة تدريب لطب الأطفال في شيكاغو آنذاك. أخبرتني عن الحادث عندما عدتُ إلى المنزل.

– متى أخبرتك؟

– بعد الحادث؟

– نعم، يا دوك، بعد الحادث.

– لا أعلم، ربما بعد يومين أو ثلاثة.

– أكنتما متزوجين حينذاك؟

– قبل أشهر قليلة فقط.

– لماذا لم تخبرك حالًا؟

– لقد أخبرتني، بمجرد عودتي إلى المنزل. أظنها لم ترغب في أن تثير قلقي.

– فهمت.

قال كارلسون ذلك، ونظر إلى ستون، فلم يتكلفا عناء إخفاء شكهما. ثم سألني كارلسون:

– إذًا، هل التقطتَ أنت هذه الصور، يا دوك؟

– لا.

ما إن قلتُ ذلك حتى تمنيت لو لم أفعل. فقد تبادل الرجلان نظرة خاطفة أخرى، وكأنهما قرشان اشتما رائحة الدم. مال كارلسون برأسه واقترب مني، وسألني:

– هل سبق لك أن رأيت هذه الصور؟

لم أقل شيئًا، ومكثا ينتظرانني. فكرت في السؤال. الإجابة كانت لا، ولكن... من أين جاءا بالصور؟ لماذا لم أعلم بوجودها؟ من التقطها؟ نظرت إلى وجهيهما، ولكنهما لم يشيا بشيء.

إنه لشيء مدهش بالفعل، لكن عندما نفكر في الأمر، فإن أهم دروس الحياة نتعلمها من التلفزيون. معظم ما نعرفه عن الاستجوابات، وحق الموقوف بالتزام الصمت، وسلوك المرء الذي يدينه، وتبادل استجواب المتهم والشهود بين محامي الادّعاء والدفاع، وقوائم الشهود، ونظام هيئة المحلفين، نتعلمه من مشاهدة برامج «إن.واي.بي.دي بلو» (شرطة نيويورك)، و«لو أند أوردر» (القانون والنظام)، وما شابههما. إذا أعطيت شخصًا ما مسدسًا الآن وسألته إطلاق النار منه، فسيفعل ما يراه على شاشة التلفاز. وإذا قلت له «حذار! ثمة مَن يطاردك»، فسيعرف في الحال ما أتكلم عنه، لأنه شاهد ذلك في برنامج «مانيكس» أو «المحقق الخاص ماغنوم».

نظرت إليهما وطرحتُ عليهما السؤال التقليدي:

– هل أنا مشتبه به؟

– فيمَ؟

– في أي شيء، هل تشتبهان باقترافي جريمة ما؟

– هذا سؤال مبهم جدًا يا دوك.

وكذلك كانت إجابتهما مبهمة جدًا. لم يرقني المنحى الذي تسير به الأمور. فقررت استخدام جملة أخرى تعلمتها من التلفزيون.

قلت: «أريد أن أتصل بمحامي.»

twitter @baghdad_library

10

لم يكن لدي محامٍ جزائي. من له محامٍ كذلك؟ لذا اتصلت بشونا من هاتف مدفوع في الممر، وشرحت لها الوضع. لم تهدر شونا وقتًا قط، وقالت لي:

– أعرف الشخص المناسب تمامًا. إبقَ حيث أنت.

إنتظرت في حجرة الاستجواب. كان كارلسون وستون لطيفين بما يكفي للبقاء معي، لكنهما أمضيا الوقت يتهامسان. مرت نصف ساعة، وعاد الصمت يثير أعصابي. أعلم أن هذا ما أراداه، ولكنني لم أستطع ضبط نفسي. في النهاية، كنت بريئًا. كيف يسعني أن أؤذي نفسي إذا كنت حذرًا؟

قلت لهما: «لقد عثروا على زوجتي موسومة بالحرف «ك».»

رفعا نظرهما إلي، وقال كارلسون وهو يمد عنقه الطويل باتجاهي: «أرجو المعذرة، هل تتحدث إلينا؟»

قلت مكررًا: «لقد عثروا على زوجتي موسومة بالحرف «ك». بعد الاعتداء علي أصبت بارتجاج في الدماغ ورقدت في المستشفى. لا يعقل أن تظنا...» وتركت بقية الجملة معلقة في الهواء.

قال كارلسون: «نظن ماذا؟»

في الموقف حيث كنت، لم يكن من بد من الإقدام. فأجبتُ:

– أن لي يدًا في مقتل زوجتي.

في تلك اللحظة بالذات فُتِح الباب فجأة، واندفعت إلى الغرفة امرأة، عرفتُ أنني شاهدت وجهها في التلفزيون. قفز كارلسون إلى الخلف عندما رآها، وسمعت ستون يتمتم: «اللعنة.»

لم تكلف هيستر كرايمشتاين نفسها عناء المقدمات، وسألت: «ألم يطلب موكلي محاميًا؟»

يمكن الاعتماد على شونا. لم يسبق لي أن قابلت محاميتي قط، ولكنني عرفتها من مشاركتها كخبيرة قانونية في البرامج الحوارية المتلفزة، ومن برنامجها التلفزيوني الخاص، «رأي كرايمشتاين في الجريمة» على محطة «كورت تي.في.» على الشاشة، كانت هيستر كرايمشتاين سريعة البديهة وجارحة، وغالبًا ما تترك محاوريها من ضيوف البرنامج أشلاء ممزقة. وشخصيًا، كانت تحيط بها هالة غريبة من السلطة. كانت من اللواتي ينظرن إلى الجميع وكأنهن إناث نمور مفترسة وجائعة، وهم مجرد غزلان عرجاء لا حيلة لها.

أجاب كارلسون: «هذا صحيح.»

– وها أنتما، لا تزالان تستجوبانه بكل راحة.

– هو من بدأ بالتحدث إلينا.

– آه، فهمت.

فتحت هيستر كرايمشتاين حقيبتها بحركة عصبية، وأخذت منها قلمًا وورقة ورمت بهما على الطاولة، وقالت:

– أكتبا اسميكما.

– عفوًا؟

– أكتبا اسميكما، أيها الوسيم، أنتما تعرفان كيف تكتبانهما، أليس كذلك؟

كان ذلك سؤالا بلاغيًا لا يستدعي الإجابة عليه، ومع هذا ظلت كرايمشتاين تنتظر الإجابة.

قال كارلسون: «نعم.»

أضاف ستون: «بالتأكيد.»

twitter @baghdad_library

– جيد. أكتبا اسميكما. عندما أذكر في برنامجي التلفزيوني كيف دستما على حقوق وكيلي الدستورية، أريد التأكد من ذكر اسميكما بصورة صحيحة. بخط واضح، من فضلكما.

أخيرًا نظرت إلي، وقالت: «لنذهب.»

قال كارلسون: «مهلًا، نريد أن نطرح على موكلك بعض الأسئلة.»

– لا.

– لا؟ بهذه البساطة؟

– نعم، هكذا تمامًا. لا تتحدثا إليه، وهو لا يتحدث إليكما إطلاقًا. هل فهمتما؟

قال كارلسون: «نعم.»

حولت نظرتها الصارمة نحو ستون.

قال ستون: «نعم.»

– هذا رائع، أيها الصديقان. والآن، هل ستوقفان الدكتور بِكْ؟

– لا.

قالت لي بحدة: «ماذا تنتظر؟ سنخرج من هنا.»

لم تتفوه هيستر كرايمشتاين بكلمة واحدة، حتى بتنا بأمان في سيارتها الليموزين.

سألتني: «أين تريدني أن أوصلك؟»

أعطيت السائق عنوان العيادة.

قالت كرايمشتاين: «أخبرني عن الاستجواب، لا تغفل شيئًا.»

أعدت سرد حديثي مع كارلسون وستون بأفضل ما أمكنني أن أتذكر. لم تنظر هيستر كرايمشتاين حتى نظرة واحدة إلي. أخرجت من حقيبتها مفكرة أسمك من خصري، وبدأت تقلب أوراقها. وقالت لي عندما أنهيت كلامي:

– تلك الصور التي التُقطت لزوجتك، لم تكن أنت من التقطها؟

– لا.

– وهل أخبرت المحققين الأبلهين بذلك؟

أومأت برأسي أن نعم.

هزت برأسها وقالت: «الأطباء هم دائمًا أسوأ الموكلين.» وأزاحت عن وجهها خصلة شعر، وأضافت: «حسنًا. كان ذلك تصرفًا غبيًا منك، ولكنه ليس بالخطأ القاتل. تقول إنك لم ترَ تلك الصور قط؟»

– لم أرَها قط.

– ولكن عندما سألاك عن ذلك، لزمت الصمت أخيرًا.

– نعم.

قالت وهي تومئ برأسها: «ذلك أفضل، رواية إصابتها بتلك الكدمات بحادث سيارة، أهي الحقيقة؟»

– عفوًا؟

أغلقت كرايمشتاين مفكرتها، وتابعت تقول:

– اسمع يا... بِكْ، أليس اسمك كذلك؟ تقول شونا إن الجميع يناديك «بِكْ»، لذا أتمانع أن أناديك كذلك؟

– لا.

– جيد. إسمع، يا بِكْ، أنت طبيب، أليس كذلك؟

– صحيح.

– هل أنت لبق مع المرضى؟

– أحاول أن أكون كذلك.

– أنا لا أحاول ذلك، ولا حتى قليلًا. إن كنت تريد مَن يدللك، فاتبع حمية ووَكل ريتشارد سيمونز. دعنا نتخطى كل عبارات الاعتذار والكياسة، وذلك الهراء الكريه، اتفقنا؟ فقط أجب على أسئلتي. قصة حادث السيارة التي أخبرتهما إياها، هل هي الحقيقة؟

– نعم.

– لأن العملاء الفدراليين سيتحققون من كل الوقائع. أنت تدرك هذا جيدًا، أليس كذلك؟

– نعم.

– حسنًا، جيد، فقط لكي نكون واضحين تمامًا.

twitter @baghdad_library

أخذت كرايمشتاين نفسًا، وأضافت متكهنة: «لعل زوجتك طلبت من صديق لها التقاط الصور، لأسباب تتعلق بالتأمين أو ما إلى ذلك، تحسبًا لاحتمال رفع دعوى. قد يبدو هذا التفسير مقنعًا، في حال احتجنا إلى تبرير.»

لم يبدُ الأمر مقنعًا بالنسبة إلي، ولكنني لم أفصح لها عن ذلك. أضافت تقول:

– إذًا، السؤال الأول، أين كانت هذه الصور، يا بِكْ؟

– لا أعلم.

– السؤالان الثاني والثالث: كيف حصل العملاء الفدراليون عليها؟ ولماذا تظهر الآن؟

هززت رأسي. أضافت: «والأهم من كل ذلك، ما هي التهمة التي يحاولون إثباتها عليك؟ زوجتك ماتت منذ ثمانية أعوام. فات الأوان بعض الشيء على تهمة العنف الزوجي.»

إستوت في مقعدها، وفكرت في الأمر لدقيقة أو اثنتين، ثم نظرت إلي ورفعت كتفيها، قائلة: «غير مهم. سأجري بعض الاتصالات، وأعرف ما الأمر. في هذه الأثناء، إياك والغباء. لا تخبر أحدًا شيئًا. هل فهمت؟»

– نعم.

إستوت في مقعدها وفكرت في الأمر مجددًا، وقالت:

– لا يروقني هذا، لا يروقني أبدًا.

11

في 12 أيار، مايو من العام 1970، قام جيريميا رينواي وثلاثة متطرفين بتفجير عبوة ناسفة في قسم الكيمياء في جامعة إيسترن ستايت، بعدما سرت شائعة بين أفراد منظمتهم السرية «ويذر أندرغراوند»، تقول إن علماء الجيش يستخدمون مختبرات الجامعة لتطوير نوع من النابالم أشد فتكًا. كان الطلاب الأربعة، والذين تفتقت لهم وبغرابة فكرة أن يطلقوا على أنفسهم اسم «صيحة الحرية»، قد قرروا أن يقوموا بخطوة دراماتيكية واستعراضية في الوقت عينه.

لم يعرف جيريميا رينواي آنذاك ما إذا كانت الشائعة حقيقية. أما الآن، وبعد ثلاثين عامًا، فقد بات يشك في الأمر. ليس لذلك أهمية. لم يؤد الانفجار إلى تدمير أي من المختبرات. ولكن اثنين من رجال أمن الجامعة عثرا بالصدفة على الرزمة المريبة، وعندما رفعها أحدهما انفجرت، وأودت بحياة الاثنين معًا.

وكان لكليهما أولاد.

بعد يومين، اعتُقِل أحد رفاق جيريميا من «مناضلي الحرية»، وهو لا يزال قابعًا في السجن، ومات المناضل الثاني بسرطان القولون سنة 1989، فيما اعتُقلت الثالثة، إيفلين كوسمير، سنة 1996، وهي تقضي حاليًا عقوبة سبع سنوات في السجن.

أما جيريميا فقد توارى تلك الليلة في الغابة، ولم يجازف بالخروج منها قط. ونادرًا ما عاد لرؤية إنسان، أو أصغى إلى الراديو أو شاهد التلفاز. كما

twitter @baghdad_library

أنه لم يستخدم الهاتف سوى مرة واحدة فقط، وكان ذلك لحالة طارئة. صلته الحقيقية الوحيدة بالعالم الخارجي كانت الصحف، برغم أن ما كتبته عما حدث هنا قبل ثمانية أعوام مغلوط تمامًا.

ولد جيريميا ونشأ على سفوح تلال شمال غرب جورجيا، وقد علمه والده كل فنون البقاء، برغم أن أمثولته الأهم كانت هذه: يمكنك أن تثق بالطبيعة، لا بالإنسان. نسي جيريما ذلك لبعض الوقت، لكنه عاد ليعيشه الآن.

خشية البحث عنه بالقرب من مسقط رأسه، لجأ جيريميا إلى الغابات في بنسلفانيا. وتنقل فيها لفترة، مغيرًا مقر إقامته كل ليلة أو اثنتين. إلى أن عثر على الراحة والأمان النسبيين في بحيرة شارماين. كان عند البحيرة مهاجع قديمة يمكنها أن تأوي إنسانًا إذا ما ساء الطقس. نادرًا ما كان الزوار يقصدون البحيرة، فهم يأتون خصوصًا في الصيف، وحتى آنذاك، يقتصر قدومهم إليها على نهايات الأسبوع. كان بوسعه صيد الغزلان في ذلك المكان ليأكل لحمها في أمان نسبي. وخلال المرات القليلة من السنة التي يقصد فيها البحيرة زوار، يكتفي بأن يختبئ أو يتوغل إلى أماكن أبعد غربًا.

أو يراقب.

فبالنسبة إلى الأطفال الذين اعتادوا القدوم إلى هنا، كان جيريميا رينواي هو الغول.

لم يحرك جيريميا ساكنًا، ولبث يراقب رجال الشرطة يتحركون بواقيات الريح الداكنة التي يرتدونها، تلك الخاصة بمكتب التحقيق الفدرالي FBI. لا يزال مرأى تلك الحروف الثلاثة الصفراء المكتوبة بخط كبير، يثقب قلبه كما يفعل مثقاب جليد.

لم يكبد أحد نفسه عناء إحاطة المنطقة بشريط أصفر، ربما لأنها كانت نائية جدًا. لم يفاجأ رينواي حين عثروا على الجثتين. نعم، كان الرجلان مدفونين عميقًا، ولكنه أفضل مَن يدرك أن الأسرار لا تحب البقاء مدفونة. كذلك كانت إيفلين كوسمير، التي حولت نفسها إلى والدة نموذجية في ضواحي أوهايو قبل أن يتم اعتقالها، تدرك ذلك جيدًا. ولم تفت جيريميا ملاحظة سخرية الوضع.

بقي جيريميا مختبئًا في الغابة، فقد كان بارعًا في أساليب التمويه، ولن يتمكنوا من رؤيته. وتذكر تلك الليلة منذ ثماني سنوات عندما قُتِل الرجلان، ودوي الرصاص المفاجئ، وأصوات المعاول تمزق الأرض، وزفير حفاري القبرين. حتى أنه فكر طويلًا في احتمال إبلاغ السلطات بكل ما حدث. بهوية مجهولة، طبعًا.

لكنه في نهاية المطاف لم يتمكن من المجازفة. كان جيريميا يدرك أن ما من رجل خُلِق ليسجن في قفص، على الرغم من أن البعض بوسعهم أن يتحملوا ذلك، لكن ليس جيريميا. كان له نسيب يدعى بيري، يقضي عقوبة ثمانية أعوام في سجن فدرالي، نزيل زنزانة صغيرة ثلاثًا وعشرين ساعة يوميًا. وفي صباح أحد الأيام، حاول الانتحار بصدم رأسه بالجدار الإسمنتي.

هذا ما كان جيريميا ليفعله.

لذا لزم الصمت ولم يفعل شيئًا، أقله طيلة تلك السنوات الثماني.

ولكنه فكر كثيرًا في تلك الليلة. فكر في المرأة الشابة العارية. فكر في الرجال الكامنين. فكر في الصراع الذي دار قرب السيارة. واستعاد في ذهنه الصوت الرطب والمثير للغثيان للخشب الذي يسقط على اللحم العاري. فكر في الرجل الذي تُرك ليموت.

كما فكر في الأكاذيب. تلك الأكاذيب، أكثر من كل ما عداها، كانت تقض مضجعه.

twitter @baghdad_library

12

حين عدت إلى العيادة، وجدت قاعة الانتظار تغص بالأطفال الذين نفد صبرهم. كان جهاز الفيديو يعرض فيلم «حورية البحر الصغيرة»، وحين ينتهي يعيد لف الشريط تلقائيًا ليبدأ من جديد، وقد بهتت ألوان الفيلم لكثرة ما استُهلِك. بعد الوقت العصيب الذي قضيته مع رجال مكتب التحقيق الفدرالي، تعاطف ذهني مع الشريط. رحت أستعيد مرة بعد مرة كلمات كارلسون – لا شك بأنه هو قائد الاثنين – لمحاولة اكتشاف ما كان يسعى إليه. ولكن تفكيري المتواصل زاد في ظلمة الصورة وسرياليتها، كما سبب لي صداعًا مؤلمًا.

«مرحبًا يا دوك!»

هب تايريز بارتون واقفًا، وكان يرتدي سروالًا فضفاضًا، وما بدا وكأنه سترة ضخمة لأحد المنتخبات الرياضية، من توقيع أحد المصممين الذين لم أسمع باسمهم قط، والذي لن يتأخر في بلوغ الشهرة.

قلت له: «مرحبًا، تايريز.»

صافحني الرجل مصافحة معقدة، هي أقرب إلى رقصة يقودها هو، فأتبعه. كان له ولِلاتيشا ابن عمره ست سنوات سمياه «تي جاي». كان تي جاي يعاني الهيموفيليا وكفيفًا، التقيته للمرة الأولى عندما هُرِع به إلى المستشفى وهو لا يزال طفلًا، وكان تايريز على قاب ثوانٍ من أن يلقى القبض عليه. زعم تايريز أنني أنقذت حياة ابنه يومئذٍ، لكن تلك كانت مبالغة.

ولكن لربما أنقذتُ تايريز نفسه.

ظن أن ذلك جعل منا صديقين، وكأنه كان الأسد، وأنا الفأر الذي سحب شوكة من مخلبه. ولكنه كان مخطئًا.

لم يكن تايريز ولاتيشا متزوجين، لكنه أحد الآبَاء القليلين الذين رأيتهم في العيادة. أنهى مصافحتي، ودس في يدي مئتي دولار، وكأنني رئيس الندل في مطعم فخم.

ألقى نحوي نظرة وقال: «إعتنِ جيدًا بولدي الآن.»

– أجل.

قال لي: «أنت الأفضل يا دكتور.» وأعطاني بطاقة زيارته التي خلت من أي اسم، أو عنوان، أو مهنة. كان عليها رقم هاتف خلوي، وأضاف: «إتصل بي إذا احتجت إلى شيء.»

قلت له: «سأتذكر ذلك.»

لم يفارقني بنظرته تلك، وقال: «إلى أي شيء يا دكتور.»

– أجل.

وضعت المال في جيبي. مضت علينا ست سنوات ونحن في هذا الروتين. عرفت الكثير من تجار المخدرات خلال عملي هنا، ولكن أحدًا منهم لم يصمد ستة أعوام.

لم أحتفظ بالمال، طبعًا، بل أعطيته لليندا لتقديمه إلى مؤسستها الخيرية. أعرف أن هذا الأمر قابل للنقاش قانونيًا، لكنني أرى أنه أفضل للمال أن يذهب إلى مؤسسة خيرية منه إلى مروج مخدرات. لم أكن أعلم كم من المال يملك تايريز، فهو يأتي دائمًا بسيارة جديدة، ويفضل سيارات بي.إم. دبليو ذات النوافذ الداكنة. وملابس طفله كانت أغلى ثمنًا من كل ما لدي من ملابس. لكن والدة الطفل كانت على نفقة برنامج «ميديكايد للرعاية الطبية»، لذا كانت الزيارات مجانية.

إنه لأمر مثير للجنون، أعلم هذا.

رن هاتف تايريز الخلوي بنغمة موسيقى الهيب هوب، فقال لي:

– علي أن أجيب يا دكتور.

twitter @baghdad_library

قلت من جديد: «أجل.»

أشعر بالغضب أحيانًا، مَن لا يشعر بذلك؟ لكن وسط ذلك الضباب، يوجد هنا أطفال حقيقيون، وهم يتألمون. أنا لا أدعي أن كل الأطفال رائعون، فهذا غير صحيح. أحيانًا أعالج بعضًا منهم، وأنا على يقين تام بأن ما من خير يُرجى منهم مستقبلًا. لكن الأطفال هم، وبغض النظر عن كل شيء، معرضون للأذى. إنهم ضعفاء وعاجزون عن الدفاع عن أنفسهم. صدقوني، لقد رأيت عيناتٍ من الناس قد تُغير تمامًا مفهومكم للبشر.

لذلك، أركز على الأطفال.

كان من المفترض أن أعمل فقط حتى الظهر. ولكنني، وتعويضًا عن الساعات التي قضيتها مع المحققين، تابعت معاينة المرضى حتى الثالثة. بطبيعة الحال، أمضيت اليوم كله أفكر في الاستجواب. ولم تنفك صور إليزابيت، مضروبة ومصابة بالكسور، تومض في ذهني كصور مريعة يعرضها صندوق فرجة رديء.

مَن كان على علم بتلك الصور؟

عندما أخذت الوقت الكافي للتفكير في الإجابة، وجدتُها بديهية. ملت إلى الأمام ورفعت سماعة الهاتف، وطلبت رقمًا مضت علي سنوات لم أطلبه خلالها، ولكنني ظللت أتذكره.

أجابت امرأة: «ستوديو شايس للتصوير الفوتوغرافي.»

– مرحبًا، ريبيكا.

– يا للمفاجأة. كيف حالك، يا بِكْ؟

– بخير. ماذا عنك؟

– لست بحالٍ سيئة. غارقة في العمل حتى أذني.

– أنت ترهقين نفسك في العمل.

– ما عدت أفعل. تزوجت العام الفائت.

– أعلم ذلك. آسف لأنني لم أتمكن من حضور الزفاف.

– لا بأس.

– نعم. ولكن تهاني في مطلق الأحوال.

– إذًا، ما الجديد؟

– أريد أن أطرح عليك سؤالًا.

– آه هه؟

– عن حادث السيارة.

سمعت صدًى معدنيًا، تبعه صمت. قلت:

– أتتذكرين حادث السيارة؟ ذلك الذي وقع قبل مقتل إليزابيت؟

لزمت ريبيكا شايس، صديقة زوجتي الحميمة، الصمت ولم تجب.

تنحنحتُ وتابعت: «من كان يقود السيارة؟»

«ماذا؟» كانت ريبيكا تتكلم مع شخص ما، ثم قالت له: «حسنًا، انتظر.» وعادت إلي قائلة: «بِكْ، لقد استجد أمر هنا. أيمكنني أن أعيد الاتصال بك؟»

– ريبيكا...

ولكن الخط انقطع.

إليكم حقيقة المآسي: إنها مفيدة للروح.

الواقع أن حالات الموت هذه جعلتني شخصًا أفضل. إذا صح أن «رُب ضارة نافعة»، فالنفع هو هذا بلا شك. لا أعني أن مواجهة الموت أمر يستحق عناء التجربة، أو يحقق مكسبًا ما. لكنني أدرك أنني بت شخصًا أفضل مما كنت. فقد بات لدي حس أرهف بالأولويات، وأفهم معاناة الآخرين على نحو أفضل.

كان ثمة وقت – يبدو لي الآن مثيرًا للسخرية – أهتم فيه للنوادي التي أنتمي إليها، والسيارة التي أقودها، والشهادة الجامعية التي أعلقها على جداري، وما إلى ذلك من هراء متعلق بالمكانة الاجتماعية. أردت أن أكون جراحًا لأنها مهنة تبهر الناس. أردت أن أثير إعجاب الأصدقاء المزعومين. أردت أن أكون رجلًا مهمًا.

كما قلت، إنه لأمر مثير للسخرية.

قد يقول البعض إن تطوري ليس إلا مسألة نضج. هذا صحيح جزئيًا. وفي الواقع فإن جزءًا كبيرًا من التغير يعود إلى أنني الآن وحدي. إليزابيت وأنا

twitter @baghdad_library

كنا زوجين، كيانًا واحدًا. كانت طيبة جدًا إلى حدّ أتاح لي ألا أكون على طيبة كبيرة، وكأن طيبتها كانت تسمو بكلينا، كما لو أنها معادِل كوني.

ومع هذا، فالموت معلّم عظيم، ولكنه شديد القسوة.

ليتني أستطيع أن أقول لكم إنني اكتشفتُ في خلال مأساتي حقيقة مطلقة جديدة، تغير حياتكم، أستطيع أن أنقلها إليكم، لكنني لم أفعل. الأقوال المألوفة ليست خطأ: الأشخاص هم المهمون، الحياة ثمينة، الماديات مبالغ في تقديرها، الأمور الصغيرة هي المهمة، يجب عيش اللحظة. يمكنني أن أردد تلك الأقوال على مسامعكم حتى الغثيان. وقد تصغون إلي، ولكنها لن تخترق أعماقكم. المأساة هي التي تحفر هذه الأقوال في أذهانكم وأرواحكم. وآنذاك قد لا تكونون أسعد، لكنكم ستصبحون أفضل.

وما يزيد في سخرية الأمر أنني غالبًا ما تمنيت لو أن بوسع إليزابيت أن تراني الآن. برغم أنني أتمنى أن أصدق هذا، إلا أنني لست ممن يعتقدون بأن الأموات يسهرون علينا، ولا بأية أوهام معزية شبيهة بذلك، مما نحاول إقناع أنفسنا به. ولكن لا يسعني سوى التفكير بأني لربما أصبحت الآن جديرًا بها.

لعل رجلًا أكثر تدينًا مني يتساءل عما إذا كان هذا سبب عودتها من عالم الأموات.

كانت ريبيكا شايس مصورة فوتوغرافية مستقلة ومشهورة. وكانت أعمالها تظهر في كل المجلات الراقية، برغم أنها – على غرابة هذا الأمر – تخصصت في تصوير الرجال. وكان الرياضيون المحترفون الذين يوافقون على الظهور على غلاف مجلة جي. كيو مثلًا، غالبًا ما يطلبون أن تتولى هي التقاط الصور. كانت ريبيكا تحب أن تمازح الآخرين بالقول إن لديها إلمامًا بأجساد الذكور بسبب «حياة أمضتها في الدراسة المكثفة لتلك الأجساد.»

وجدت الستوديو الخاص بها في الشارع الغربي الثاني والثلاثين، في مكان غير بعيد من محطة بن. كان المبنى مستودعًا بشعًا تنبعث منه الروائح النتنة لأحصنة سنترال بارك وعرباتها الموضوعة في الطابق الأرضي، فأنفت من استعمال مصعد الشحن وصعدت الدرج.

وجدتُ ريبيكا تسير مسرعة في الرواق، وخلفها مساعد هزيل بملابس سوداء وذراعين نحيلتين ولحية قليلة الشعيرات، يجر حقيبتين من الألومنيوم. وقد حافظت على شعرها المجنون الشبيه، بخصلاته غير المروضة، بألسنة النيران التي تتطاير حرة. وكانت عيناها خضراوين متباعدتين. وإذا كانت قد تغيرت خلال ثمانية أعوام، فإنني لم أرَ ذلك.

عندما رأتني، كادت ألا تتوقف، وقالت لي:

– الوقت غير مناسب، يا بِكْ.

– كم هذا مؤسف.

– لدي موعد لجلسة تصوير... ألا يمكننا تأجيل الأمر؟

– لا.

توقفت ريبيكا، وهمست بكلمات قليلة لمساعدها ذي الملابس السوداء، وقالت: «حسنًا، اتبعني.»

كان الستديو ذا سقف مرتفع، وجدران إسمنتية مدهونة بالأبيض، وفيه الكثير من مظلات الإضاءة والشاشات السوداء والأسلاك الكهربائية التي تمتد متلوية في كل مكان. راحت ريبيكا تعبث بلفافة فيلم فوتوغرافي، وتظاهرت بأنها مشغولة. قلت لها:

– أخبريني عن حادث السيارة.

قالت: «لا أفهم هذا، يا بِكْ.» وفتحت علبة معدنية، ثم وضعتها من يدها، ثم أعادت إليها الغطاء، ثم فتحتها من جديد. تابعت تقول: «نكاد لا نتبادل كلمة واحدة طوال ثماني سنوات. وفجأة يصيبك الهوس بحادث سيارة قديم؟»

عقدتُ ذراعيّ فوق صدري وانتظرت. سألتني:

– لماذا، يا بِكْ؟ بعد كل هذا الوقت، لماذا تريد أن تعلم؟

– أخبريني وحسب.

كانت تتهرب من نظراتي. وغطى شعرها الأشعث نصف وجهها، لكنها لم تحاول حتى إزاحته. قالت لي: «أنا مشتاقة إليها. وإليك.»

لم أجب.

قالت: «لقد اتصلتُ بك.»

twitter @baghdad_library

– أعرف.

– حاولتُ البقاء على اتصال. أردت أن أكون إلى جانبك.

قلت لها: «آسف.» ولقد كنت أشعر بالأسف حقًا. كانت ريبيكا أفضل صديقة لإليزابيت. وتقاسمتا شقة على مقربة من واشنطن سكوير بارك قبل أن نتزوج. كان علي أن أعيد الاتصال بها، أو أدعوها للزيارة، أو أبذل جهدًا ما، ولكنني لم أفعل.

قد يكون الحزن أنانيًا بقدر كبير جدًا.

تابعت أقول:

– أخبرتني إليزابيت أنكما تعرضتما لحادث سيارة صغير. وقالت إن الحادث وقع بسببها، لأن نظرها ابتعد عن الطريق. أهذا صحيح؟

– أي فارق قد يشكل ذلك الآن؟

– إنه يشكل فارقًا.

– كيف؟

– ممّ أنت خائفة، يا ريبيكا؟

هذه المرة، كانت هي مَن صمتت.

– هل وقع حادث أم لا؟

غرقت كتفاها وكأن عضوًا داخليًا قد سُلخ من جسدها. ثم أخذت بعض الأنفاس العميقة، وأجابت، وهيَ لا تزال مطرقة الرأس:

– لا أعرف.

– ماذا تعنين بأنك لا تعرفين؟

– أخبرتني إليزابيت أنا أيضًا إنه كان حادث سيارة.

– ولكنك لم تكوني هناك؟

– لا. أنت كنت مسافرًا، يا بِكْ. عدتُ إلى المنزل ذات ليلة، لأجد فيه إليزابيت، والكدمات تغطي جسدها. سألتها عما حدث، فأخبرتني أنها تعرضت لحادث سيارة، وطلبت مني أن أقول إننا كنا في سيارتي إذا ما طرح أحدهم أسئلة.

– «إذا ما طرح أحدهم أسئلة؟»

أخيرًا، رفعت ريبيكا إلي عينيها، وقالت: «أظنها عنتك أنت، يا بِكْ.»

حاولت أن أستوعب ما قالته. سألتها:

– ما الذي حدث فعلًا؟

– رفضت أن تخبرني.

– هل أخذتها إلى طبيب؟

– لم تدعني أفعل.

رمقتني ريبيكا بنظرة غريبة، وتابعت تقول:

– ما زلت لا أفهم. لماذا تسألني عن هذا الأمر الآن؟

لا تخبر أحدًا.

– أحاول أن أطوي الصفحة فحسب.

أومأت برأسها إيجابًا، ولكنها لم تصدقني. لم يكن كلانا بارعًا بالكذب. سألتُها:

– هل التقطت لها صورًا؟

– صور؟

– صور لإصاباتها. بعد الحادث؟

– يا إلهي، كلا. ولماذا قد أفعل ذلك؟

كان ذلك سؤالًا وجيهًا جدًا. جلست هناك وفكرت في الأمر، لا أعرف لكم من الوقت.

– بِكْ؟

– نعم.

– تبدو في حالة مخيفة.

– على عكسكِ.

– أنا أحب.

– الحب يناسبك جدًا.

– شكرًا.

– هل هو رجل جيد؟

– إنه الأفضل.

twitter @baghdad_library

– ربما يستحقك، إذًا.

– ربما.

مالت ريبيكا إلى الأمام وطبعت قبلة على وجنتي، منحتني شعورًا عذبًا ومريحًا. سألتني:

– لقد حدث شيء ما، أليس كذلك؟

هذه المرة آثرتُ قول الحقيقة، فأجبت:

– لا أعرف.

13

جلست شونا وهيستر كرايمشتاين في مكتب هيستر الفخم للمحاماة وسط المدينة. أنهت هيستر اتصالها الهاتفي ووضعت سماعة الهاتف في مكانها، وقالت:

– لا أحد يتحدث كثيرًا.

– ولكنهم لم يلقوا القبض عليه؟

– لا، بعد.

– إذًا ماذا يجري؟

– بحسب ما فهمت، يظنون أن بِكْ هو من قتل زوجته.

قالت شونا:

– هذا جنون. كان في المستشفى، تبًا! وذلك المعتوه روي السفاح ينتظر حكم الإعدام.

– لا في جريمة قتل إليزابيت.

– ماذا؟

– روي السفاح مشتبه فيه في قتل ثماني عشرة امرأة على الأقل. ولقد اعترف بقتل أربع عشرة منهن، ولكنهم لم يملكوا أدلة دامغة للادعاء عليه وإدانته إلا في اثنتي عشرة جريمة. كان ذلك كافيًا. أعني، إلى كم حكم بالإعدام يحتاج رجل واحد؟

twitter @baghdad_library

– ولكن الجميع يعرف أنه هو قاتل إليزابيت.

– تصحيح: الجميع كان يعرف.

– لا أفهم. كيف يمكنهم التفكير بأن لبِكْ شأنًا في ذلك؟

قالت هيستر: «لست أعلم.» ورفعت قدميها على سطح مكتبها، ووضعت يديها خلف رأسها، وتابعت تقول: «أقله، حتى الآن. ولكن علينا أن نكون يقظين.»

– كيف ذلك؟

– بادئ ذي بدئ، علينا الافتراض بأن أفراد الشرطة الفدرالية يحصون عليه خطواته، ويتنصتون على هاتفه، ويراقبونه.

– إذًا؟

– ماذا تعنين بـ«إذًا»؟

– إنه بريء، يا هيستر. فليراقبوه.

نظرت هيستر إليها وهزت رأسها، وقالت:

– لا تكوني ساذجة.

– ما معنى هذا؟

– يعني أنهم إذا صوروه وهو يتناول البيض إلى الفطور، فقد يعني ذلك شيئًا. عليه أن يكون في غاية الحذر. ولكن ثمة أمرًا آخر.

– ما هو؟

– أفراد الشرطة الفدرالية سيطاردون بِكْ.

– كيف؟

– لا أعلم، ولكن صدقيني، سوف يفعلون. إنهم متحمسون للنيل من صديقك، منذ ثمانية أعوام. ذلك يعني أنهم يائسون للنيل منه. وأفراد الشرطة الفدراليون اليائسون هم أشخاص بشعون، لا يترددون في الدوس على الحقوق الدستورية.

عادت شونا بظهرها إلى الوراء، وراحت تفكر في تلك الرسائل الإلكترونية الغريبة من «إليزابيت». قالت هيستر:

– ماذا؟

– لا شيء.

– لا تحاولي إخفاء شيء عني يا شونا.

– لست أنا موكلتك يا هيستر.

– هل تحاولين القول إن بِكْ يخفي عني شيئًا ما؟

فجأة خطرت ببال شونا فكرة أقرب إلى الرعب. تملت فيها أكثر، وأخضعتها للامتحان، ثم تركتها تتردد في ذهنها للحظات.

بدت منطقية، ومع ذلك تمنت شونا – بالأحرى صلت – أن تكون مخطئة في ظنها. فوقفت وأسرعت نحو الباب، قائلة:

– علي أن أذهب.

– ماذا يجري؟

– سلي موكلك.

جلس العميلان الخاصان نيك كارلسون وتوم ستون على الأريكة عينها، حيث شعر بِكْ بالحنين، قبل وقت ليس ببعيد. وجلست كيم باركر، والدة إليزابيت، قبالتهما ويداها باحتشام على ركبتيها، ووجهها قناع متجمد شاحب. فيما راح هويت باركر يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا.

سأل هويت: «إذًا، ما هو الأمر المهم جدًا الذي لم يكن من الممكن أن تقوله عبر الهاتف؟»

أجاب كارلسون: «نريد أن نطرح عليك بعض الأسئلة.»

– بأي شأن؟

– بشأن ابنتك.

تجمد الزوجان في مكانهما.

– ولمزيد من التحديد، نرغب في سؤالك عن علاقتها بزوجها، الدكتور دايفيد بِكْ.

تبادل هويت وكيم نظرة خاطفة. ثم سأل هويت:

– لماذا؟

– يتعلق الأمر بمسألة يجري التحقيق فيها حاليًا.

twitter @baghdad_library

– أية مسألة؟ مضت ثمانية أعوام على موتها. وقاتلها ينتظر تنفيذ حكم الإعدام به.

– من فضلك، أيها المفتش باركر. كلنا في جانب واحد هنا.

كانت الغرفة ساكنة وجافة. رقت شفتا كيم باركر وراحتا ترتعشان. نظر هويت إلى زوجته ثم أومأ برأسه إلى الرجلين.

ظل كارلسون يحدق إلى كيم، ثم سألها:

– سيدة باركر، كيف تصفين العلاقة بين ابنتك وزوجها؟

– كانا متقاربين جدًا، ومتحابين جدًا.

– ما من مشاكل بينهما؟

– لا. إطلاقًا.

– هل تصفين الدكتور بِكْ بأنه رجل عنيف؟

بدت وكأنها أجفلت من السؤال، وأجابت: «لا، أبدًا.»

نظر المحققان إلى هويت، الذي أومأ برأسه موافقًا على إجابة زوجته.

– هل نمي إليك أنه سبق للدكتور بِكْ أن ضرب ابنتك؟

– ماذا؟

حاول كارلسون أن يبتسم بطيبة. وأضاف: «هلا تجيب على السؤال؟»

قال هويت:

– لا، أبدًا. لم يسبق لأحد أن ضرب ابنتي.

– هل أنت متأكد؟

أجاب بصوت حازم:

– متأكد جدًا.

نظر كارلسون نحو كيم، وسألها:

– سيدة باركر؟

– كان يحبها كثيرًا.

– أتفهم ذلك، سيدتي. ولكن كثيرين ممن اعتادوا ضرب زوجاتهم يزعمون أنهم يحبونهن.

– لم يضربها قط.

توقف هويت عن السير في الغرفة وسأل: «ما الذي يجري هنا؟»

ألقى كارلسون على ستون نظرة، ثم قال: «أرغب في أن أريكما بعض الصور، إذا لم يكن ثمة مانع. إنها مزعجة قليلًا، لكنني أظنها ضرورية.»

ناول ستون كارلسون الظرف الأسمر، ففتحه، ثم راح يضع على الطاولة صور إليزابيث المغطاة بالكدمات صورة بعد صورة. وترقب ردود الفعل. كما كان متوقعًا، أطلقت كيم باركر صرخة صغيرة. أما وجه هويت باركر الذي وشى بأنه يعيش صراعًا داخليًا، فقد بدا بعيدًا وخاليًا من أي تعبير.

سأل هويت بصوت خافت:

– أنى لك هذه الصور؟

– هل سبق لك أن رأيتها؟

قال: «لا، لم أرَها قط.» ونظر إلى زوجته فهزت رأسها بالنفي.

أضافت كيم باركر: «ولكنني أتذكر الكدمات.»

– متى؟

– لا أتذكر تمامًا. قبل مقتلها بفترة قصيرة. ولكن عندما رأيتها، كانت تبدو أقل... – وبحثت عن الكلمة – وضوحًا.

– هل أخبرتك ابنتك كيف أصيبت بها؟

– قالت إنها تعرضت لحادث سيارة.

– سيدة باركر، تحققنا من شركة تأمين زوجتك. وهي لم تبلغ عن حادث سيارة قط. كما راجعنا ملفات الشرطة، ولم نجد أية شكوى ضدها، ولا حرر شرطي محضرًا بأي حادث.

تدخل هويت سائلًا: «إذًا ماذا تقولان؟»

– ببساطة، هذا ما نقوله: إذا لم تتعرض ابنتكما لحادث سيارة، فكيف أصيبت بهذه الكدمات؟

– أتعتقدان أن زوجها هو من تسبب بها؟

– إنها النظرية التي نعمل عليها.

– على أي أساس؟

twitter @baghdad_library

تردد الرجلان. كان ترددهما يعني أمرًا من اثنين: لن يجيبا على السؤال أمام السيدة، أو أمام شخص مدني. فهم هويت ذلك سريعًا، فسأل زوجته:

– كيم، أتمانعين أن أحادث العميلين وحدي قليلًا؟

– لا، قطعًا.

ووقفت على قدمين مرتعشتين، وسارت بصعوبة نحو السلم، وقالت: «سأكون في غرفة النوم.»

عندما غابت عن الأنظار، قال هويت: «حسنًا، أنا مصغٍ.»

قال كارلسون:

– لا نعتقد أن الدكتور بِكْ ضرب ابنتك فقط. نعتقد أنه هو قتلها.

نقل هويت نظراته بين كارلسون وستون مرارًا، وكأنه ينتظر منهما إعلان حقيقة ما. عندما لم يحدث ذلك، سار نحو الكرسي وجلس قائلًا: «من الأفضل أن تبدأ بالشرح.»

14

ماذا أخفت عني إليزابيت أيضًا يا ترى؟

في أثناء سيري عبر الجادة العاشرة نحو موقف السيارات، حاولت مجددًا أن أطرد تلك الصور من مخيلتي، وأن أعتبرها مجرد صور لتوثيق إصاباتها في حادث السيارة. تذكرت كم تصرفت إليزابيت بلا مبالاة حيال الموضوع برمته آنذاك، قائلة إنه مجرد حادث سيارة، وليس بالأمر المهم. وحين سألتها عن تفاصيل الحادث، تجاهلتني حتى.

أما الآن فبت أعلم أنها كذبت علي في ذلك.

بوسعي القول إن إليزابيت لم تكذب علي قط. ولكن هذا سيبدو، على ضوء ما اكتشفناه مؤخرًا، قولًا غير مقنع. لكنها كانت الكذبة الأولى التي أعلم بها. أظن أن كلًا منا كانت لديه أسراره.

حين وصلت إلى موقف السيارات، لاحظت شيئًا غريبًا، أو بالأحرى، شخصًا غريبًا. هناك، في الزاوية، كان رجل في معطف أسمر.

وكان ينظر إلي.

بدا وجهه مألوفًا لي على نحو غريب. لم يكن شخصًا أعرفه، ومع ذلك خامرني عدم الارتياح الذي يرافق شعورنا برؤية شيء غير جديد. لقد رأيت هذا الرجل من قبل، وصباح اليوم حتى. أين؟ إسترجعت شريط أحداث هذا الصباح في ذهني، فرأيته بعين فكري: عندما توقفت بسيارتي لتناول القهوة

twitter @baghdad_library

عند الثامنة صباحًا، كان ذو المعطف الأسمر هناك، في موقف سيارات مقهى ستاربكس.

– هل كنت متأكدًا؟

لا، بالطبع لا. حولت نظري وأسرعت الى كشك موظف الموقف. كان كارلو – كما كُتب على الشارة المعلقة على صدره – يشاهد التلفاز ويتناول شطيرة. ظلت عيناه مسمرتين بالشاشة لمدة نصف دقيقة قبل أن يلقي إليّ بنظرة. ثم نفض ببطء فتات الطعام عن يديه، وأخذ تذكرتي، وختمها. دفعت للرجل المال بسرعة فسلمني مفتاحي.

كان ذو المعطف الأسمر هناك.

حاولت جاهدًا ألا أنظر ناحيته في أثناء سيري نحو سيارتي. صعدت إلى السيارة، أدرت محركها وانطلقت، وعندما بلغت الجادة العاشرة، نظرت في مرآة الرؤية الخلفية.

لم يلقِ ذو المعطف الأسمر نظرة واحدة ناحيتي. ظللت أراقبه حتى انعطفت نحو طريق ويست سايد العام. لم ينظر في اتجاهي إطلاقًا. هذا ذهان ارتياب. كنت أصاب بذهان الارتياب الجنوني.

إذًا، لماذا كذبت إليزابيت علي؟

فكرت في الأمر ولم أتوصل إلى شيء.

لا يزال بيني وبين موعد وصول رسالة «بات ستريت» ثلاث ساعات. ثلاث ساعات. رباه! إنني في حاجة ماسة إلى إلهاء نفسي. كان الإمعان في التفكير في ما عساه يكون على الطرف الآخر من اتصال الإنترنت ذاك، كفيلًا بأن يمزق بطانة معدتي.

عرفت ما علي فعله. كنت فقط أحاول تأجيل ما هو محتوم.

حين وصلت إلى المنزل، كان جدي في مقعده المعتاد، وحده، والتلفاز مطفأ. وكانت الممرضة تثرثر بالروسية عبر الهاتف. لن يطول بقاؤها هنا، علي أن أتصل بالوكالة وأطلب استبدالها.

كانت بقايا صغيرة من البيض عالقة على طرفَي فم جدي، فأخذت منديلًا وأزلتها برفق. إلتقت عيوننا، ولكن نظراته كانت معلقة بشيء أبعد

مني بكثير. رأيتنا كلنا عند البحيرة، وجدي يقوم بلعبته المحبوبة التي يدعوها «لعبة إنقاص الوزن قبل وبعد». فيقف لنرى جانبه، ويدع كرشه تبرز، صائحًا «قبل!»، ثم يشد عضلات معدته بحركة راقصة، فيشفط كرشه صائحًا «بعد!» كان يفعل ذلك ببراعةٍ، فيقهقه والدي عاليًا. كانت لأبي ضحكة رائعة تجعل الآخرين كلهم يضحكون، وكان يستسلم لها بكل جسده. كانت لدي أيضًا الضحكة ذاتها، إلا أنها ماتت بموت والدي. لم يعد بوسعي الضحك بذلك الشكل قط. بدا ذلك لي نوعًا من الفجور.

سمعتني الممرضة، فسارعت لإنهاء الاتصال الهاتفي، وهرعت إلى الغرفة بابتسامة مشرقة، لم أبادلها إياها.

رحت أرمق باب قبو المنزل. ما زلت أحاول تأجيل ما هو محتوم.

لا مزيد من المماطلة.

قلت لها: «إبقي معه.»

أحنت الممرضة رأسها وجلست.

كان القبو قد تم تجهيزه قبل أن تدرج عادة تجهيز أقبية المنازل. هذا الأمر واضح. فسجادة الموكيت السميكة التي كانت ذات يوم بنية اللون وذات فرو، تبقعت وتجعدت بفعل المياه المتسربة تحتها. وكانت قطع الطوب الأبيض المصنوعة من مادة اصطناعية غريبة ملصقة على الجدران، لكن بعض الألواح قد سقط على سجادة الموكيت، وتوقف البعض الآخر في منتصف سقوطه، كأعمدة الأكروبوليس في اليونان.

وفي وسط الغرفة طاولة للعبة مضرب الطاولة، بهت لونها الأخضر إلى حدّ جعله شبيهًا بلون النعناع الشائع حاليًا، وبدت الشبكة الممزقة كمتراس بعد اقتحام القوات الفرنسية. أما المضربان فلم يبق منهما سوى الخشب.

كان فوق طاولة مضرب الطاولة بعض علب الكرتون، ومنها ما نما عليه العفن. وتكدس بعضها الآخر في زاوية الغرفة. كانت ثمة ملابس قديمة في الصناديق. لم تكن لإليزابيت، لأن شونا وليندا تخلصتا منها بالنيابة عني. أظنها كانت من نصيب مؤسسة «الإرادة الطيبة» الخيرية. ولكن بعض الصناديق الأخرى احتوى أشياء قديمة، أشياءها هي. لم يكن بوسعي رميها،

twitter @baghdad_library

ولم يكن بوسعي أن أدعها للآخرين. ما عدت واثقًا من السبب. نحن نوضب بعض الأشياء، ونخبئها في الجزء الخلفي من خزانة، متوقعين ألا نراها مجددًا. لكننا نجد أنفسنا عاجزين عن التخلص منها. مثل الأحلام، على ما أظن.

لم أكن واثقًا أين وضعتها، ولكنني كنت أعلم أنها هناك. بدأت أبحث بين الصور الفوتوغرافية القديمة، ومجددًا حاولت تجنب النظر إليها. كنت بارعًا في ذلك حقًا، برغم أن الألم الذي تثيره الصور يتضاءل مع السنوات. حين شاهدت نفسي وإليزابيت معًا في صورة بولارويد قديمة، يتحول لونها إلى الأخضر، شعرت وكأنني أنظر إلى غريبين.

كرهت القيام بهذا.

غصت أكثر في عمق الصندوق، فاصطدمت أصابعي بشيء مصنوع من اللباد، وسحبت شعار التقدير في لعبة كرة المضرب الذي فازت به في الثانوية. بابتسامة حزينة، تذكرت ساقيها الملوحتين، وجديلتها التي تتراقص وهي تقفز نحو الشبكة. في الملعب كان التركيز الصرف يظهر على وجهها. هكذا كانت إليزابيت تهزم أخصامها. كانت لديها ضربات أرض مقبولة، وإرسال جيد، ولكن ما ميزها عن سائر رفاقها كان ذلك التركيز.

أعدت شعار التقدير بعناية، ورجعت أفتش. فوجدت ما كنت أبحث عنه في قعر الصندوق.

مفكرتها اليومية.

بحثت الشرطة عنها بعد الاختطاف، أو هذا ما قيل لي. جاءت ريبيكا إلى الشقة وساعدتهم على العثور عليها. أفترض أنهم بحثوا فيها عن أدلة، وهو ما كنت على وشك القيام به. ولكن عندما ظهرت الجثة موسومة بحرف «ك»، أظنهم توقفوا عن البحث.

فكرت في الأمر أكثر، في كيفية إلباس كل تفاصيل التهمة لروي السفاح بعناية. عبرت ذهني فكرة خاطفة، فأسرعت إلى كمبيوتري في الطابق الأعلى، واتصلت بشبكة الإنترنت. وجدت الموقع الإلكتروني الخاص بإدارة السجون في مدينة نيويورك. كان فيه قدر هائل من المعلومات، بما فيها الاسم ورقم الهاتف اللذان أحتاج إليهما.

أنهيت الاتصال بالشبكة، واتصلت بسجن بريغز، حيث يقبع روي السفاح.

عندما بدأ المجيب الآلي بتلاوة المعلومات، ضغطت على الرقم الداخلي المناسب وتم تحويلي. بعد ثلاث رنات، قال رجل: «المدير المساعد براون يتكلم.»

قلت له إنني أرغب بزيارة إلروي كيلرتون.

سألني: «ومَن أنت؟»

– الدكتور دايفيد بِكْ. زوجتي، إليزابيت بِكْ، كانت إحدى ضحاياه.

– فهمت.

تردد براون، ثم سألني:

– هل لي أن أسأل عن الغرض من الزيارة؟

– لا.

كان هناك مزيد من الصمت على الخط.

قلتُ له:

– لي الحق في زيارته إذا كان على استعداد ليراني.

– نعم، بالطبع، ولكن هذا طلب غير اعتيادي أبدًا.

– ولا أزال مصرًا عليه.

– الإجراء المعتاد هو أن يقوم محاميك...

قاطعته قائلًا: «ولكنني لست ملزمًا بذلك.» فقد علمت عبر الموقع الإلكتروني لحقوق الضحايا أن بإمكاني التقدم بالطلب شخصيًا. أضفت قائلًا:

– أريد فقط مكالمة كيلرتون. لديكم ساعات للزيارة غدًا، أليس كذلك؟

– نعم.

– إذًا، سآتي غدًا إذا وافق كيلرتون، هل من مشكلة في ذلك؟

– لا يا سيدي، إذا وافق، لا مشكلة.

شكرته وأنهيت الاتصال. أنا أبادر. كان الشعور رائعًا.

كانت مفكرة إليزابيت بجانبي على المكتب، وكنتُ أتجنبها. فبرغم ما قد تكون الصورة الفوتوغرافية أو التسجيل الصوتي مؤلمين، إلا أن خط اليد هو أسوأ، وأمر أكثر شخصية. أسلوب إليزابيت في كتابة الحروف الكبيرة بصورة

twitter @baghdad_library

مرتفعة جدًا، حروف «التاء» اللاتينية ذات الخط الأفقي المرسوم بحزم، الحلقات الكثيرة بين الحروف، وميلان الحروف نحو اليمين...

أمضيت ساعة أتصفح المفكرة. كانت إليزابيت تميل إلى التفاصيل، ولم تختصر كثيرًا. ما أثار دهشتي هو إلى أي مدى عرفتُ زوجتي جيدًا. كان كل شيءٍ واضحًا، ولا مفاجآت. في الواقع، كان هناك موعد واحد لم أستطع تفسيره.

قبل موتها بثلاثة أسابيع، كتبت في إحدى الخانات «ب. ف.» أضافت إلى ذلك رقم هاتف غير مرفق برمز منطقة.

قياسًا على اهتمامها بالتفاصيل في كل مكان آخر، أثار هذا السطر في داخلي شيئًا من القلق. لم أعلم ما عساه يكون رمز المنطقة. أُجرِيت هذه المكالمة منذ ثمانية أعوام، وقد تم تقسيم رموز المناطق وتغييرها بعدة طرق منذ ذلك الحين.

جربت الرمز 201 فقُطِع الاتصال. جربت الرمز 973 فأجابت سيدة مسنة. قلت لها إنها فازت باشتراكٍ مجاني في صحيفة نيويورك بوست. وأعطتني اسمها وشهرتها، فلم يطابقا الباء ولا الفاء. جربت الرمز 212، وهو رمز المدينة. فأصبت الهدف!

قالت لي امرأة، بنصف تثاؤب:

– مكتب المحامي بيتر فلانري.

– أيمكنني محادثة الأستاذ فلانري، من فضلك؟

– إنه في المحكمة.

ما كان لصوتها أن يشي بقدر أكبر من الملل إلا لو كانت تتناول أدويةً مخدرة. وسمعت الكثير من الضجيج في الخلفية.

قلت لها:

– أرغب في موعد لمقابلة الأستاذ فلانري.

– هل تستجيب للوحة الإعلانية؟

– اللوحة الإعلانية؟

– هل أنت مصاب؟

– نعم، ولكنني لم أرَ أي إعلان. صديق لي أوصى بالأستاذ فلانري، في قضية خطأ طبي. دخلت المستشفى للمعالجة من كسرٍ في ذراعي، ولكنني الآن عاجز عن تحريكها. فقدت وظيفتي، والألم لا يبارحني.

عينت لي موعدًا بعد ظهر اليوم التالي.

وضعتُ سماعة الهاتف في مكانها، وعبستُ. أي شأن لإليزابيت بمحامٍ يطارد الأطباء المخلين بواجباتهم مثل فلانري؟

جعلني رنين الهاتف المفاجئ أقفز من مكاني، وانتزعت سماعة الهاتف في منتصف الرنة.

– آلو.

كان الاتصال من شونا. سألتني:

– أين أنت؟

– في المنزل.

– عليك القدوم إلى هنا في الحال.

twitter @baghdad_library

15

نظر العميل كارلسون في عيني هويت باركر وقال له: «كما تعلم، عثرنا مؤخرًا على جثتين في محيط بحيرة شارماين.»

أومأ هويت برأسه موافقًا.

علا رنين هاتفٍ خلوي حاد. نجح ستون في النهوض، واستأذنهما قبل الدخول بخطى متثاقلة إلى المطبخ. واستدار هويت نحو كارلسون مجددًا ولبث ينتظر.

قال كارلسون: «نعرف الرواية الرسمية لموت ابنتك. لقد زارت وزوجها، دايفيد بِكْ، البحيرة في إطار احتفال سنوي بذكرى ما. وذهبا للسباحة في الظلام، وكان روي السفاح يتربص بهما، فاعتدى على الدكتور بِكْ بالضرب واختطف ابنتك ولاحقًا قتلها. نهاية القصة.»

– ولكنكم لا تظنون أن هذا ما حدث؟

– لا، يا هويت. أتسمح لي بأن أناديك «هويت»؟

أومأ هويت برأسه موافقًا.

– لا، يا هويت، لا نظن ذلك.

– كيف حدث الأمر، برأيكم؟

– أعتقد أن دايفيد بِكْ قتل ابنتك، وألصق التهمة بقاتل متسلسل.

كان هويت، الشرطي القديم الذي أمضى ثمانية وعشرين عامًا في قسم شرطة نيويورك، يعرف كيف يخفي من وجهه كل تعبير. ومع ذلك تراجع وكأن تلك الكلمات كانت لكمات تهوي على ذقنه. قال:

– حسنًا، لنسمع ما لديكما.

– حسنًا، فلنبدأ من البداية. إصطحب بِكْ ابنتك إلى بحيرة منعزلة. صحيح؟

– صحيح.

– هل سبق لك أن زرت المكان؟

– مراتٍ عدة.

– آه، حقًا؟

– كنا أصدقاء. كيم وأنا كنا مقربين من والدَي دايفيد، ونزورهما دائمًا.

– إذًا فأنت تعلم جيدًا كم أن ذلك المكان منعزل.

– نعم.

– طريق ترابي، ولافتة لا تراها إلا إذا عرفت كيف تبحث عنها، لأنها مخفية جيدًا. لا إشارة حياة في المكان كله.

– إلامَ ترمي؟

– ما احتمال أن يسلك روي السفاح ذلك الطريق؟

رفع هويت كفيه نحو السماء، وقال:

– ما احتمال أن يصادف أي شخص قاتلًا متسلسلًا؟

– هذا صحيح. لكن في الحالات الأخرى، كان في الأمر شيء من المنطق. كان كيلرتون يختطف إحداهن من أحد شوارع المدينة، أو من سيارتها، أو حتى يقتحم منزلها. لكن فكر في الأمر. يرى كيلرتون الطريق الترابي، فيقرر البحث عن ضحية ما هناك؟ لا أقول إن هذا مستحيل، لكنه بعيد الاحتمال جدًا.

قال هويت: «تابع كلامك.»

– عليك أن تعترف بأن في السيناريو المتداول كثيرًا من ثغرات المنطق.

– لا قضية تخلو من ثغرات المنطق.

– حسنًا، ولكن دعني أطرح عليك نظرية بديلة. لنقل إن الدكتور بِكْ أراد أن يقتل ابنتك.

twitter @baghdad_library

– لماذا؟

– أوّلًا، من أجل بوليصة تأمين على الحياة قيمتها مئتا ألف دولار.

– إنه ليس في حاجة إلى المال.

– الجميع في حاجة إلى المال، يا هويت. أنت تعلم.

– أنا غير مقتنع بذلك.

– لا نزال نبحث، لا نعرف كل الدوافع بعد. ولكن دعني أكمل السيناريو، موافق؟

رفع هويت كتفيه بلا مبالاة بما معناه «افعل ما يحلو لك».

لدينا أدلة هنا تثبت أن الدكتور بِكْ ضربها.

– أية أدلةٍ؟ كل ما لديك بعض الصور الفوتوغرافية. وقد قالت لزوجتي إنها تعرضت لحادث سيارة.

دل كارلسون بيده نحو الصور، وأجاب:

– بِربك، يا هويت. انظر إلى التعبير على وجه ابنتك. هل يبدو لك هذا وجه امرأة تعرضت لحادث سيارة؟

فكر هويت في أن ما يقوله كارلسون صحيح. وسأله:

– أين عثرت على هذه الصور؟

– سأصل الى ذلك قريبًا، ولكن لنعد إلى السيناريو. دعنا الآن نفترض أن الدكتور بِكْ كان يضرب ابنتك وأن ثروة طائلة من الميراث بانتظاره.

– هذا كثير من الافتراض.

– صحيح، ولكن ركز معي قليلًا. فكر في السيناريو المتداول، والثغرات التي تشوبه. ثم قارنه بهذا السيناريو: الدكتور بِكْ يصطحب ابنتك إلى منطقة منعزلة، يعرف أنْ لا شهود فيها. ويكلف مجرمين بالقبض عليها. كان على اطلاع على قضية روي السفاح، فكل الجرائد تتحدث عنها. كما أن شقيقك عمل على هذه القضية. هل سبق له أن ناقش الموضوع معك أو مع بِكْ؟

جلس هويت بدون حراك لبرهة. ثم قال: «تابع كلامك.»

– قام المجرمان المأجوران من بِكْ بخطف ابنتك وقتلها. من الطبيعي أن يكون المشتبه به الأول هو الزوج. إنه دائمًا المشتبه به الرئيسي في قضيةٍ

مثل هذه. ولكن المجرمين وسما خدها بحرف «ك»، فأُلقي اللوم كله على روي السفاح.

– ولكن بِكْ تعرض للاعتداء، وكانت إصابة رأسه حقيقية.

– بالتأكيد، ولكن كلانا يعلم أن هذا الأمر لا يتنافى وكونه المخطط للعملية. كيف سيبرر بِكْ خروجه من عملية الخطف سالمًا؟ أيقول: مرحبًا، أتعرفون؟ لقد قام أشخاص باختطاف زوجتي، ولكنني بخير؟ لم يكن أحد ليصدق تلك الرواية إطلاقًا. لكن إصابته بضربة على رأسه أعطت روايته مصداقية.

– ولكنها كانت ضربة قاسية للغاية.

– كان يتعامل مع مجرمين يا هويت. لعلهم أخطأوا التقدير. وماذا عن إصابته على أية حال؟ لقد روى قصة غريبة عن زحفه بأعجوبة إلى خارج البحيرة واتصاله لطلب النجدة. عرضت حالة بِكْ الطبية آنذاك على عدة أطباء، فأجمعوا على أن روايته لما فعله تتحدى المنطق الطبي. كان ذلك مستحيلًا، نظرًا لإصاباته.

فكر هويت في ذلك. لطالما كان قد تساءل عن ذلك. كيف تمكن بِكْ من النجاة وطلب النجدة؟ قال:

– وماذا أيضًا؟

– توجد أدلة قوية إلى أن المجرمين اعتديا على بِكْ، لا روي السفاح.

– أية أدلة؟

– وجدنا مع الجثتين مضرب بايسبول ملطخًا بالدم. النتيجة النهائية لفحص تطابق الحمض النووي سوف تستغرق بعض الوقت، ولكن النتائج الأولية تشير بقوة إلى أنه دم بِكْ.

عاد العميل ستون إلى الغرفة وعاد إلى الجلوس متثاقلًا. من جديد، قال هويت: «تابع كلامك.»

– أما الباقي فهو بديهي جدًا. قام المجرمان بالعمل، فقتلا ابنتك وألصقا التهمة بروي السفاح. ثم عادا للحصول على بقية أجرهما، أو ربما قررا ابتزاز الدكتور بِكْ للحصول على المزيد من المال، لست أدري. مهما يكن،

twitter @baghdad_library

فقد شعر بِكْ بضرورة التخلص منهما. وضرب لهما موعدًا في الغابة المنعزلة قرب بحيرة شارماين. لعل الرجلين ظنا أنهما يتعاملان مع طبيبٍ جبان أو لعله استطاع مباغتتهما. مهما يكن، فقد أطلق بِكْ النار عليهما وأرداهما ودفن الجثتين، كما دفن معهما مضرب البايسبول وأي دليل قد يظهر ليقض مضجعه فيما بعد. إنها الجريمة الكاملة. لا شيء يربط بينه وبين القتيلين. لنواجه الأمر، لو لم يحالفنا حظ عظيم، لما عُثر على الجثتين قط.

هز هويت رأسه، وقال: «يا لها من نظرية.»

– هناك المزيد أيضًا.

– ماذا؟

نظر كارلسون إلى ستون، الذي أشار إلى هاتفه الخليوي، وقال: «تلقيت مكالمة هاتفية غريبة من شخص في سجن بريغز. يبدو أن زوج ابنتك اتصل بالسجن اليوم وطلب لقاء روي السفاح.»

بدا الذهول على ملامح هويت واضحًا، وقال: «تبًا للجحيم، ولماذا قد يفعل شيئًا كهذا؟»

أجاب ستون:

– أخبرنا أنت. ولكن تذكر أن بِكْ يعلم جيدًا أننا نلاحقه. فجأة، تنتابه رغبة عارمة في زيارة الرجل الذي ألصق به تهمة قتل ابنتك؟

أضاف كارلسون: «إنها لمصادفة عجيبة.»

– هل تعتقد أنه يحاول تغطية آثاره؟

– وهل لديك تفسير أفضل من هذا؟

إستوى هويت في مقعده محاولًا أن يستوعب كل ما سمعه. ثم قال:

– لقد أغفلتما شيئًا.

– ما هو؟

أشار إلى الصور على الطاولة، وسألهما: «من أعطاكما هذه الصور؟»

أجاب كارلسون: «أعتقد أن ابنتك قد فعلت ذلك، بطريقة ما.»

شحُب وجه هويت. أضاف كارلسون يقول:

– بشكل أكثر تحديدًا، اسمها المستعار: سارة غودهارت. ويتألف من اسم ابنتك الأوسط، واسم شارع غودهارت.

– لا أفهم.

قال كارلسون: «في مسرح الجريمة، كان في حذاء أحد المجرمين، واسمه ملفين بارتولا، مفتاح صغير.» رفع كارلسون المفتاح في يده، فأخذه هويت من يده وأمعن النظر فيه، كما لو أنه يحمل جوابًا سحريًا. سأله كارلسون:

– أترى أحرف «ي. س. ب.» على الجهة الخلفية؟

أومأ هويت برأسه إيجابًا.

إنها ترمز إلى مصرف «يونايتد سنترال بنك.» تعقبنا المفتاح إلى فرع المصرف في العنوان 1772 برودواي، في المدينة. وهو يفتح الصندوق 174، المسجل باسم سارة غودهارت. وقد استصدرنا مذكرة لتفتيش الصندوق.

رفع هويت عينيه إليه وسأله: «هل كانت الصور فيه؟»

تبادل كارلسون وستون نظرة خاطفة. كانا قد قررا ألا يطلعا هويت على كل ما يتعلق بذلك الصندوق. أقله، إلى أن تظهر نتائج التحاليل ويتأكدا. ولكن كليهما أومأ برأسه إيجابًا.

قال كارلسون:

– فكر في الأمر، يا هويت. لقد أخفت ابنتك هذه الصور في صندوق ودائع، والأسباب بديهية. أتريد المزيد؟ إستجوبنا الدكتور بِكْ، فاعترف بعدم معرفته شيئًا بشأن الصور. لم يسبق له رؤيتها قط. لماذا قد تخفي عنه ابنتك هذه الصور؟

– هل كلمتما بِكْ؟

– نعم.

– وماذا قال أيضًا؟

– لم يقل الكثير، فقد طلب محاميًا.

صمت كارلسون برهة، ثم مال إلى الأمام، وأضاف:

– ولكنه لم يكتفِ بطلب محامٍ، بل كلف هيستر كرايمشتاين. هل يبدو لك هذا تصرف رجل بريء؟

twitter @baghdad_library

قبض هويت على جانبي الكرسي، في محاولة للسيطرة على نفسه، وقال:

– لا يمكنكم أن تثبتوا شيئًا من هذا كله.

– لا يمكننا ذلك بعد. لا. ولكننا نعرف الحقيقة الآن، وهذا يُعتبَر فوزًا بنصف المعركة أحيانًا.

– ماذا ستفعل؟

أجاب كارلسون بابتسامة:

– يمكننا أن نفعل أمرًا واحدًا: الضغط حتى ينكسر شيء ما.

إسترجع لاري غاندل في ذهنه تطورات ذلك النهار، وتمتم لنفسه: «هذا ليس جيدًا.»

أوّلًا، أوقف أفراد مكتب التحقيق الفدرالي بِكْ واستجوبوه.

ثانيًا، اتصل بِكْ بمصورة تدعى ريبيكا شايس، وسألها عن حادث سيارة قديم تعرضت له زوجته، ثم زار الستوديو الخاص بها.

مصورة فوتوغرافية، ليس إلا.

ثالثًا، اتصل بِكْ بسجن بريغز وطلب مقابلة إلروي كيلرتون.

رابعًا، اتصل بِكْ بمكتب بيتر فلانري.

كان كل ذلك محيرًا، ولا شيء منه كان جيدًا.

أنهى إريك وو اتصاله الهاتفي وقال: «لن تحب هذا.»

– ماذا؟

– مصدرنا في مكتب التحقيق الفدرالي يقول إنهم يشتبهون في أن بِكْ قتل زوجته.

كاد غاندل يسقط عن كرسيه. ثم قال لوو: «إشرح.»

– هذا كل ما يعرفه المصدر. لقد ربطوا بين بِكْ وبين الجثتين اللتين عُثر عليهما عند البحيرة.

إنه لأمر مثير للحيرة جدًا.

قال غاندل: «دعني أرى تلك الرسائل الإلكترونية مرة أخرى.»

أعطاه إريك وو إلرسائل. عندما فكر غاندل في من عساه أرسلها، بدأ ذلك الشعور الزاحف والغريب في معدته يشتد. حاول الربط بين الخيوط. لطالما تساءل كيف نجا بِكْ تلك الليلة. ولكن أمرًا آخر بات يثير تساؤلاته الآن.

هل نجا شخص آخر؟

سأل غاندل:

– كم الساعة الآن؟

– السادسة وثلاثون دقيقة.

– ألم يدقق بِكْ بعد في ذلك العنوان «بات...» لا أدري ماذا؟

– «بات ستريت.» لا، لم يفعل.

– هل من معلومات أخرى عن ريبيكا شايس؟

– فقط ما نعرفه. كانت صديقة مقربة من إليزابيت باركر، وتقاسمتا شقة قبل أن تتزوج باركر بِكْ. راجعتُ سجلات الهاتف القديمة. لم يتصل بها بِكْ منذ سنوات.

– ما الذي دفعه للاتصال بها الآن؟

رفع وو كتفيه، وأجاب: «لا شك بأن السيدة شايس تعرف شيئًا ما.»

كان غريفن سكوب واضحًا تمامًا: إعرف ما يمكنك معرفته، ثم ادفنه. واستخدِم وو.

قال غاندل: «أظننا في حاجة إلى الدردشة معها.»

twitter @baghdad_library

16

كانت شونا بانتظاري في الطابق الأرضي من ناطحة سحاب في العنوان 462 من جادة بارك أفنيو في مانهاتن. فقالت لي دون مقدمات: «تعال، لدي ما أريك إياه في الأعلى.»

ألقيت نظرة على ساعة يدي. بقي أقل من ساعتين حتى تصل رسالة بات ستريت. دخلنا المصعد، وضغطت شونا على زر الطابق الثالث والعشرين، فبدأت أضواء اللوحة تتصاعد وارتفع طنين عداد المكفوفين.

قالت لي شونا: «دفعني الحديث مع هيستر إلى التفكير.»

– فيمَ؟

– قالت إن أفراد الشرطة الفدرالية يائسون، وإنهم قد يفعلون أي شيء للإيقاع بك.

– إذًا؟

وصل المصعد إلى الطابق المنشود.

– إصبر قليلًا ترَ.

إنفتح باب المصعد على طابق ضخم مقسوم إلى حجيرات، كما هو شائع في المدينة حاليًا. كان طابقًا، إذا ما انتزعنا منه سقفه وإطلالته الواسعة على المدينة، فسيصعب التمييز بينه وبين متاهة الفئران. وكذلك هي الحال إذا ما نظرنا إلى الأسفل.

سارت شونا بين فواصل من القماش لا تحصى، وسرت خلفها. في منتصف المسافة انعطفتْ يسارًا، ثم يمينًا، فيسارًا.

قلت لها: «ربما علي أن أنثر فتات الخبز.»

أجابت بصوت جامد النبرة: «نكتة جيدة.»

– شكرًا، أنا هنا طوال الأسبوع.

لم تضحك شونا لدعابتي. سألتُها:

– ما هذا المكان أصلًا؟

– شركة تدعى ديجيكوم. وكالتنا تعمل معهم أحيانًا.

– وما عملهم؟

– سترى.

إنعطفنا للمرة الأخيرة نحو ركنٍ صغير تسوده الفوضى، يشغله شاب ذو رأسٍ طويل وأنامل نحيلة كأنامل عازفي البيانو.

قالت لي شونا: «أقدم إليك فاريل لينش.» ولفاريل: «أقدم إليك دايفيد بِكْ.»

صافحتُ اليد النحيلة مصافحة مقتضبة. وقال لي فاريل: «مرحبًا.» فرددت التحية بإيماءة من رأسي.

قالت شونا: «حسنًا، هيا.»

أدار فاريل لينش كرسيه ليواجه الكمبيوتر، ونظرنا، شونا وأنا، من فوق كتفيه. بدأ الطباعة بأنامله النحيلة. ثم قال:

– إنه جاهز.

– شغله.

ضغط زر «إدخال»، فتحولت الشاشة إلى اللون الأسود، ثم ظهر همفري بوغارت، بقبعة من اللباد ومعطف واقٍ من المطر. عرفت المشهد في الحال: الضباب، والطائرة في الخلفية. كان ذلك المشهد الختامي من فيلم «كازابلانكا».

نظرتُ إلى شونا.

قالت لي: «إنتظر.»

twitter @baghdad_library

كانت الكاميرا مصوبة إلى بوغي، وهو يقول لإنغريد برغمان إنها ستصعد إلى متن تلك الطائرة مع لازلو، وإن مشاكل ثلاثة أشخاص صغار لا توازي حفنة فستق في هذا العالم. وعندما عادت الكاميرا إلى إنغريد برغمان...

... لم تكن إنغريد برغمان.

طرفتُ بعينيّ. هناك، تحت القبعة الشهيرة، الوجه الذي كان يحدق إلى بوغي بنظراتٍ حالمة، سابحًا في الوهج الرمادي اللون، كان وجه شونا.

قالت شونا التي تظهر في الكمبيوتر بنبرة دراماتيكية: «لا يمكنني الذهاب معك، يا ريك، لأنني متيمة بغرام آفا غاردنر.»

إلتفتّ نحو شونا. وطرحت عيناي عليها السؤال، فأجابت بإيماءة من رأسها أنْ نعم. ومع ذلك طرحته عليها.

قلت متلعثمًا: «أتعتقدين... أتعتقدين أنني كنت ضحية خدعة تصويرية؟»

أجاب فاريل مصححًا: «بل تصوير رقمي، حيث التلاعب بالصور أبسط بكثير.» ثم أدار كرسيه نحوي، وتابع يقول: «صور الكمبيوتر ليست على شريط. إنها في الحقيقة نقاط مخزنة بداخل ملفات، ولا تختلف بشيء عن ملفات معالجة النصوص. أنت تعرف كم هو سهل تغيير مضمون نص في الكمبيوتر، أليس كذلك؟ كتغيير المحتوى أو نوع الخط المستخدم أو المسافة الفاصلة بين الأسطر؟»

أومأت برأسي موافقًا. تابع يقول:

– حسنًا، بالنسبة إلى شخص لديه الحدّ الأدنى من الدراية بالتصوير الرقمي، من السهل جدًا التلاعب بمقاطع الصور في الكمبيوتر. إنها ليست صورًا، كما أنها ليست أفلامًا أو أشرطة. مقاطع الفيديو في الكمبيوتر هي مجرد حفنة من النقاط، ويستطيع مَن يشاء التلاعب بها. يكفي مجرد القطع واللصق، ثم تشغيل برنامج للدمج.

نظرت إلى شونا. ثم قلت: «ولكن إليزابيت بدت أكبر سنًا في الفيديو.» وتابعتُ مصرًا: «ومختلفة.»

قالت شونا: «فاريل؟»

ضغط على زر آخر، فعاد بوغي. وهذه المرة عندما اتجهت الكاميرا إلى إنغريد برغمان، بدت شونا في السبعين من عمرها.

أوضح فاريل:

– هذه برمجيات تقدم العمر. غالبًا ما يتم استخدامها لتطبيقها على صور وجوه الأطفال المفقودين. ولكن بوسعك اليوم أن تجد نسخًا منزلية منها في أي متجر متخصص ببيع البرمجيات. يمكنني أيضًا أن أغير أي جزء من صورة شونا، كتسريحة شعرها، ولون عينيها، وحجم أنفها، وأن أجعل شفتيها أصغر أو أكبر، وأن أضع لها وشمًا. يمكنني أن أفعل ما شئت.

قالت شونا: «شكرًا لك، يا فاريل.»

ورمقته بنظرة تأمره بالانصراف، كانت من الوضوح بحيث يستطيع أعمى أن يراها. فاستأذننا فاريل قبل أن يتوارى عن الأنظار.

وقفتُ عاجزًا تمامًا عن التفكير.

عندما أصبح فاريل أبعد من أن يسمعنا، قالت شونا: «تذكرت جلسة تصوير قمتُ بها الشهر الماضي. وكانت إحدى الصور رائعة تمامًا، وأحبها راعي الإعلان. إلا أن أحد قرطَي أذني انزلق من مكانه. فأحضرنا الصورة إلى هنا، وقام فاريل بعملية قطع ولصق سريعة، فعاد قرط أذني إلى مكانه.»

هززت رأسي رافضًا أن أصدق. فقالت شونا:

– فكر في الأمر قليلًا، يا بِكْ. رجال الشرطة الفدرالية يظنونك قتلت إليزابيت، ولكنهم لا يملكون الأدلة الكافية لإثبات ذلك. وقد أخبرتني هيستر كم باتوا يائسين للقبض عليك، فرحت أفكر في أنهم قد يتلاعبون بك ذهنيًا. أية لعبة ذهنية أفضل من إرسال تلك الرسائل الإلكترونية إليك؟

– ولكن وقت القبلة...؟

– ماذا عنه؟

– ما أدراهم بوقت القبلة؟

– أنا على علمٍ به. وليندا أيضًا. وأراهن على أن ريبيكا أيضًا كانت تعلم، ولربما والدَا إليزابيت كذلك. لعلهم اكتشفوا الأمر.

twitter @baghdad_library

شعرت بعينيّ تغرورقان بالدموع. حاولت أن أتحكم بصوتي، وتمكنت من السؤال بصوتٍ مبحوح: «هل هي مجرد خدعة؟»

– لست أدري، يا بِكْ. حقًا لست أدري. ولكن لنكن عقلانيين. لو كانت إليزابيت حية، فأين أمضت هذه السنوات الثماني؟ ولماذا اختارت هذا الوقت دون غيره لتعود من القبر؟ وهو الوقت نفسه الذي تشاء الصدف أن تبدأ فيه الشرطة الفدرالية بالشك في أنك قتلتها؟ بِربك يا بِكْ، هل تصدق حقا أنها لا تزال حية؟ أعرف أنك تريد أن تصدق. وأنا أيضًا أريد ذلك. ولكن لنحاول أن ننظر إلى هذا الأمر بعقلانية. عندما تفكر في الأمر جيدًا، أي سيناريو يبدو لك أقرب إلى المنطق؟

عدتُ إلى الخلف فتعثرت وسقطتُ في كرسي. بدأ بقلبي يتفتت، وشعرت بأن الأمل بدأ يتبدد.

خدعة. هل كان هذا كله مجرد خدعة؟

17

حالما استقر لاري غاندل بداخل ستوديو ريبيكا شايس، اتصل بزوجته عبر الهاتف الخلوي، وقال لها: «سأتأخر في العودة إلى المنزل.»

قالت له باتي: «لا تنسَ أن تأخذ دواءك.»

كان غاندل يعاني حالة طفيفة من داء السكري، يمكن التحكم بها من خلال الحمية والأدوية، ولا تتطلب الحقن بإبر الإنسولين.

– سأفعل.

مد إريك وو، الذي لم تفارق سماعتا مشغلة الموسيقى أذنيه، بعناية، قطعة من قماش الفينيل بالقرب من الباب.

أنهى غاندل اتصاله الهاتفي، ووضع في يديه قفازين من اللاتكس. كانت عملية التفتيش التي قام بها دقيقة للغاية واستغرقت وقتًا طويلًا. شأنها شأن معظم المصورين، كانت ريبيكا تحتفظ بأطنان من سلبيات الصور، تعج بها أربع خزائن ملفات معدنية. تحقق الرجلان من برنامج ريبيكا. كانت تنهي جلسة تصوير، ويُنتظر منها أن تعود إلى هنا للعمل في الغرفة المظلمة بعد حوالى الساعة. لم يكن لديهما ما يكفي من الوقت.

قال وو: «أتعرف ما كان ليساعدنا؟»

– ماذا؟

– أن نعلم عما نبحث.

twitter @baghdad_library

قال غاندل: «تلقى بِكْ تلك الرسائل الرسائل الغامضة، وما الذي فعله؟ لأول مرة منذ ثمانية أعوام، يهرع لرؤية الصديقة المقربة لزوجته. لا بد لنا من معرفة السبب.»

نظر إليه وو من دون أن يراه. ثم قال:

– لماذا لا ننتظر ونسألها فحسب؟

– سنفعل يا إريك.

أومأ وو برأسه ببطء واستدار مبتعدًا.

أبصر غاندل مكتبًا معدنيًا طويلًا في الغرفة المظلمة، فتفحصه، ووجده قويًا. كما كان قياسه جيدًا، يمكن إرقاد شخص عليه وتقييد أطرافه الأربعة بقوائم المكتب بشريط لاصق.

– كم أحضرنا من الشريط اللاصق؟

أجاب وو: «أحضرنا ما يكفي.»

فقال غاندل: «إذن أسدِ لي معروفًا. أنقل قماش الفينيل إلى تحت الطاولة.»

أمامي نصف ساعة حتى أستلم رسالة بات ستريت.

أصابني الفيلم الذي عرضته علي شونا كلكمة يسرى مباغتة. فأحسستني أترنح. لقد تلقيت اللكمة بكل قوتها. ولكن أمرًا طريفًا حدث. فقد نهضتُ من سقطتي، ووقفتُ رشيقًا بكامل لياقتي، أجول في أرض الحلبة.

كنا في سيارتي، فقد أصرت شونا على مرافقتي إلى المنزل، ورتبت قدوم سيارة ليموزين لتقلها بعد ساعات. أعلم أنها أرادت التخفيف عني، لكنه كان واضحًا أيضًا أنها لم ترد العودة إلى منزلها الآن.

قلت لها: «ثمة أمر لم أفهمه.»

إلتفتت نحوي.

– يظنني أفراد الشرطة الفدرالية قاتل إليزابيت، أليس كذلك؟

– صحيح.

– لماذا يبعثون إلي برسائل إلكترونية تزعم بأنها لا تزال حية؟

حارت شونا جوابًا.

قلت لها: «فكري في الأمر. أنت تزعمين أن هذه خطة معقدة لحملي على الاعتراف بذنبي. لكنني لو قتلت إليزابيت، فسأعلم أنها خدعة.»

قالت شونا: «هذه لعبة ذهنية.»

– لكن هذا غير منطقي، مَن يرد أن يلعب معي لعبة ذهنية، يبعث إلي برسائل إلكترونية زاعمًا أنه... لا أعلم، شاهد على الجريمة.

فكرت شونا في الأمر، ثم قالت:

– أظنهم يحاولون إثارة اضطرابك يا بِكْ.

– أجل، ومع ذلك، لا يبدو الأمر منطقيًا.

– حسنًا، كم من الوقت حتى تصل الرسالة المقبلة؟

نظرتُ إلى ساعة يدي، وقلت: «عشرون دقيقة.»

إستوت شونا في مقعدها وقالت: «حسنًا. لننتظر ونرَ ما تقول.»

وضع إريك وو جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به أرضًا، في إحدى زوايا ستوديو ريبيكا شايس. تحقق أوّلًا من كمبيوتر عيادة بِكْ، فكان متوقفًا. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة بقليل، والعيادة أقفِلت قبل وقت طويل. إنتقل إلى كمبيوتر المنزل، ولثوانٍ قليلة لم يظهر شيء، ثم قال: «سجل بِكْ دخوله إلى الموقع.»

أسرع لاري ليكون إلى جانبه، وسأله:

– ألا يمكننا الدخول بدورنا والاطلاع على الرسالة قبل أن يراها؟

– لن تكون هذه فكرة جيدة.

– لماذا؟

– لأننا إذا سجلنا دخولنا قبله، ثم حاول هو الدخول، سيتم تبليغه بأن أحدًا ما يستخدم حاليًا اسم المستخدم.

– فيعلم أنه تحت المراقبة؟

– نعم، ولكن هذا غير مهم، فنحن نراقبه في الوقت الحقيقي. ولحظة يقرأ الرسالة، نراها نحن أيضًا.

twitter @baghdad_library

– حسنًا، أعلمني متى يحدث ذلك.

ضيق وو عينيه وحدق إلى الشاشة، ثم قال: لقد دخل موقع بيغ فوت منذ قليل. سيتم الأمر بين ثانية وأخرى.

كتبت عنوان بيغ فوت، وضغطت على زر الإدخال.

بدأت ساقي اليمنى تنتفض بعصبية. هذا ما يحدث لي حين أكون في حالة توتر شديد. فوضعت شونا يدها على ركبتي، التي تباطأت حركتها حتى همدت تمامًا. رفعت شونا يدها، فبقيت ركبتي دون حِراك لمدة دقيقة، ثم عادت تنتفض، فأعادت شونا يدها إلى ركبتي. وبدأت الدورة من جديد.

تظاهرت شونا بعدم المبالاة، ولكنني أعلم أنها كانت تسترق النظر إلي. إنها أفضل صديقة لي، وأعلم أنها ستقف إلى جانبي حتى النهاية. ولكن وحده الأحمق لن يتساءل في هذه المرحلة عما إذا فقدت صوابي. يقولون إن الجنون، شأنه شأن مرض القلب أو الذكاء، وراثي. لم تبارحني تلك الفكرة منذ شاهدت إليزابيت للمرة الأولى على الشاشة، وهي لم تكن بالفكرة التي تبعث على الاطمئنان إطلاقًا.

مات والدي، وكنت في العشرين من عمري، حين انقلبت سيارته من فوق حاجز نهر. ووفقًا لرواية شاهد عيان، وهو سائق شاحنة من وايومنغ، فقد مضت سيارة بويك التي يقودها أبي مباشرة إلى الحاجز وسقطت عنه. كانت الليلة باردة، ومع أن الطريق كان محروثًا جيدًا، إلا أنه كان زلقًا.

أوحى الكثيرون، همسًا بأية حال، بأنه أقدم على الانتحار. ولكنني لا أصدق ذلك. أجل، لقد كان أكثر انطواء وهدوءًا في الأشهر الأخيرة التي سبقت وفاته. وأجل، أتساءل دائمًا عما إذا كان ذلك قد جعله أكثر عرضة للحوادث. أما الانتحار؟ فهذا محال.

وأمي التي كانت دائمًا سريعة العطب من الناحية النفسية، وتعاني اضطرابات عصبية تبدو في ظاهرها غير مهمة، فقد كانت ردة فعلها على موت أبي فقدانًا بطيئًا لعقلها. فتقوقعت على ذاتها بالمعنى الحرفي للكلمة. حاولت

ليندا رعايتها طوال ثلاث سنوات، حتى اضطرت هي نفسها إلى الموافقة على ضرورة إدخال والدتي مصحا عقليًا. لا تزال ليندا تزورها باستمرار، أما أنا فلا.

بعد لحظات، ظهرت الصفحة الرئيسية لموقع بيغ فوت على الشاشة، ووجدت خانة اسم المستخدم وكتبت فيها «بات ستريت».

وفي الخانة المخصصة لكلمة المرور أدخلت كلمة «مراهقون»، ثم ضغطت على مفتاح «إدخال».

لم يحدث شيء.

قالت شونا: «نسيت أن تنقر أيقونة «تسجيل الدخول».

نظرت إليها، فرفعت كتفيها. ونقرت الأيقونة.

تحولت الشاشة إلى اللون الأبيض. ثم ظهر إعلان لمتجر أقراص مدمجة. راح الشريط في أسفل الشاشة يومض ببطء. بدأت نسبة التحميل ترتفع رويدًا رويدًا. عندما وصلت إلى حوالى الثمانية عشرة في المئة، اختفى الشريط وبعد عدة ثوانٍ ظهرت رسالة.

«خطأ – اسم المستخدم أو كلمة المرور ليس لهما وجود في قاعدة بياناتنا.»

قالت شونا: «جرب مرة أخرى.»

جربتُ، فظهرت رسالة الخطأ نفسها. كان الكمبيوتر يقول لي إن الحساب غير موجود حتى.

ما معنى هذا؟

لم أكن أعرف. حاولت أن أفكر في سبب لعدم وجود الحساب.

تحققت من الوقت: الساعة 8:13:34 بعد الظهر.

وقت القبلة.

ألعل هذه هي الإجابة؟ ألعل هذا الحساب، شأنه شأن الرابط التشعبي أمس، ليس له، وبكل بساطة، وجود لغاية هذه الساعة؟ فكرت مليًا في هذا الاحتمال الأخير. كان ممكنًا، بالطبع، لكن مستبعدًا.

قالت شونا كأنما تقرأ أفكاري: «ربما علينا الانتظار حتى الثامنة والربع.»

twitter @baghdad_library

جربتُ من جديد عند الثامنة والربع. ثم عند الثامنة وثماني عشر دقيقة. ثم عند الثامنة وعشرين دقيقة.

لا شيء سوى رسالة الخطأ عينها.

لعل الشرطة الفدرالية أوقفت العملية.

هززت رأسي، لم أكن على استعداد للاستسلام.

عادت ساقي إلى الارتعاش، فاستخدمت شونا إحدى يديها لتجميدها والأخرى للرد على هاتفها. راحت تزعق بشخص على الطرف الآخر. نظرتُ إلى الساعة، ثم كررت المحاولة. لا شيء. حاولت مرتين أخريين. لا شيء.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف.

قالت شونا: «لعلها تأخرت».

عقدتُ حاجبي.

قالت شونا: «عندما رأيتها أمس، لم تعرف أين هي، صحيح؟»

– صحيح.

– لعلها في منطقة زمنية مختلفة، وهذا سبب تأخرها، ربما.

– منطقة زمنية مختلفة؟

عقدتُ حاجبي أكثر. ورفعت شونا كتفيها.

إنتظرنا ساعة أخرى. ولم تقل شونا لي قط «لقد قلتُ لك هذا»، وهذا يقدر لها. بعد قليل وضعت يدًا على ظهري، وقالت: «لدي فكرة».

إلتفت إليها.

قالت: «سأذهب للانتظار في الغرفة الأخرى. أعتقد أن هذا قد يساعدنا.»

– كيف؟

– لو كانت هذه أحداث فيلم سينمائي، فهنا يصل الجزء الذي ينفد فيه صبري من جنونك وأندفع كالإعصار إلى خارج الغرفة. وفي تلك اللحظة تمامًا تظهر الرسالة، فتراها وحدك، لكن الجميع سيظلون يظنونك مجنونًا. تمامًا كما في «سكوبي دو» حين يشاهد هو وشاغي وحدهما الشبح، ويرفض أحد أن يصدقهما.

فكرتُ في الأمر، وقلت: «الأمر يستحق التجربة.»

جيد، سأذهب للانتظار في المطبخ لفترة. خذ وقتك، ونادِني عندما تصل الرسالة.

ونهضتْ.

سألتها: «تفعلين هذا فقط لمجاراتي، أليس كذلك؟»

فكرت شونا في الأمر، ثم أجابت: «نعم، ربما.»

ثم خرجتْ. إستدرت لأواجه الشاشة. ومكثتُ أنتظر.

twitter @baghdad_library

18

قال إريك وو: «لا شيء يحدث، بِكْ يواصل محاولة تسجيل دخوله إلى الموقع، ولكن كل ما يحصل عليه هو رسالة خطأ.»

كان لاري غاندل على وشك أن يعقب على كلام وو بسؤال، حين سمع صوت محرك المصعد يدور، فألقى نظرة على الساعة.

وصلت ريبيكا شايس في الوقت المنتظَر.

إبتعد إريك وو عن كمبيوتره. ووجه إلى لاري غاندل إحدى النظرات التي ترغم رجلًا على التراجع. أخرج غاندل مسدسه، وهو من عيار تسعة ملمترات هذه المرة، تحسبًا ليس إلا. وعقد وو حاجبيه، وتحرك نحو الباب وأطفأ النور.

لبث الرجلان في الظلام ينتظران.

بعد عشرين ثانية، توقف المصعد في طابقهما.

لم تعد ريبيكا شايس تفكر في إليزابيت وبِكْ إلا نادرًا. ففي النهاية، انقضت ثماني سنوات. ولكن أحداث هذا الصباح حركت في داخلها أحاسيس هاجعة منذ وقت بعيد. أحاسيس ملحة.

بشأن «حادث السيارة.»

بعد كل تلك السنوات، سألها بِكْ أخيرًا عن الحادث.

قبل ثماني سنوات، كانت ريبيكا على استعداد لأن تخبره كل شيء عنه. ولكن بِكْ لم يُعد الاتصال بها، برغم محاولاتها الكثيرة. ومع مرور الوقت، وبعد إلقاء القبض على المجرم، لم ترَ ريبيكا جدوى من نبش الماضي، الذي لن يؤدي إلا إلى جعل بِكْ يحس بالألم. وبعد إلقاء القبض على كيلروي، أصبح الأمر بلا طائل.

ولكن الإحساس المُلح طال، ذلك الإحساس الذي يقول إن كدمات إليزابيت بفعل «حادث السيارة»، كانت، بطريقةٍ أو بأخرى، تمهيدًا لمقتلها، برغم أن ذلك لم يكن منطقيًا. وإلى ذلك، كان الإحساس المُلح يقض مضجعها، ويحملها على التساؤل عما إذا كان في وسعها ربما، فقط ربما، أن تنقذ صديقتها، لو أنها هي– ريبيكا– أصرت بجدية على معرفة حقيقة «حادث السيارة».

ولكن الإحساس انتهى بأن تلاشى مع الوقت. ففي نهاية المطاف، كانت إليزابيت صديقتها. ومهما كانت الصلة وثيقة بين صديقين، إلا أن المرء يستطيع التغلب على خسارة صديق. كما أن غاري لامونت دخل حياتها منذ ثلاث سنوات، وقلبها رأسًا على عقب. أجل. ريبيكا شايس، المصورة البوهيمِية المتفلتة من قيم المجتمع، والآتية من غرينويتش فيلاج، مرتع الفنانين الأحرار، وقعت في هوى أحد ذئاب المال، وهو عميل بورصة في وول ستريت. فتزوجا واستقرا معًا في ناطحة سحاب عصرية في الناحية العليا من ويست سايد.

حقًا إن الحياة ملأى بالمفاجآت المضحكة.

دخلت ريبيكا مصعد التحميل وأغلقت البوابة المنزلقة عموديًا. كانت الأنوار مطفأة، ولكنه أمر مألوف في هذا المبنى. بدأ المصعد بالتحرك نحو طابقها، وهديره يرتد عن الحجارة. كان في وسعها أحيانًا أن تسمع في الليل صهيل الأحصنة، لكنها صمتت هذه الليلة. واختلطت بالهواء رائحة القش ورائحة أخرى، ربما كانت أبشع.

تحب ريبيكا أن تكون هناك في الليل. فامتزاج الوحدة بأصوات الليل في المدينة يجعلها تشعر بفيض من «الإبداع الفني».

twitter @baghdad_library

بدأ ذهنها يستعيد الحديث الذي دار بينها وبين زوجها في الليلة الماضية. كان غاري يريد الانتقال من مدينة نيويورك، مفضلًا أن يكون ذلك إلى منزل كبير مستقل في لونغ أيلاند، في ساندس بوينت، حيث نشأ. كانت فكرة الانتقال إلى ضواحي المدينة تثير فيها الرعب. فإضافة إلى حبها للمدينة، علمت أن تلك الخطوة ستمثل الخيانة النهائية لجذورها البوهيمية. ولسوف تتحول إلى ما عاهدت نفسها على ألا تكونه يومًا: أمها ووالدة أمها.

توقف المصعد، فرفعت الباب وسارت في الممر، وكانت كل الأنوار مطفأة. سحبت شعرها إلى الخلف، وجمعته على هيئة ذيل حصانٍ كثيف. وألقت نظرة إلى ساعة يدها، فكانت تشير إلى نحو التاسعة. عادة ما يكون المبنى في هذا الوقت خاليًا، أقله من البشر.

كان حذاءاها يقرقعان على الإسمنت البارد. الحقيقة، والتي كانت ريبيكا تجد صعوبة في تقبّلها، كونها بوهيمية، هي أنها وكلما فكرت في الأمر مليًا، أدركت أكثر أنها ترغب حقًا في إنجاب الأطفال، وأن المدينة مكان سيئ لتربيتهم. فالأطفال في حاجة إلى حديقة منزلية وأراجيح وهواء نقي و...

عندما وضعت ريبيكا شايس مفتاحها في قفل الباب، كانت تتوصل إلى قرار، وهو قرار لا شك بأنه سيُسعِد زوجها عميل البورصة، غاري. خطت إلى داخل الستوديو وقلبت مفتاح الإضاءة.

وآنذاك شاهدت الرجل الآسيوي الغريب الشكل.

إكتفى الرجل بالتحديق إليها لبرهة، فتجمدت ريبيكا أمام نظرته. ثم خطا الآسيوي جانبًا، حتى كاد يصبح خلفها، وسدد قبضته إلى أسفل ظهرها.

شعرت ريبيكا وكأن مطرقة ثقيلة قد أصابت كليتها.

خرت على ركبتيها. ثم أمسك الرجل عنقها بإصبعين، وشد بهما على نقطة ضغط، فرأت أنوارًا ساطعة. وبيده الطليقة، غرز الرجل أصابعه الشبيهة بمثاقب الجليد في قفصها الصدري، وعندما وصلت إلى كبدها جحظت عيناها. كان ألمًا يفوق كل ما تصورته يومًا. حاولت أن تصرخ، ولكن حشرجة مخنوقة وحيدة أفلتت من بين شفتيها.

من أقصى الغرفة، اخترق صوت رجل ضباب الألم. سألها الرجل:

– أين إليزابيت؟

كانت تلك المرة الأولى.

ولكنها لم تكن الأخيرة.

twitter @baghdad_library

19

لازمتُ مكاني أمام ذلك الكمبيوتر اللعين، وبدأت أشرب الخمر بإسراف. حاولت تسجيل دخولي إلى الموقع بشتى الطرق المختلفة. جربت متصفح إكسبلورر، ثم نتسكايب. مسحتُ مخزون ملفاتي في الكمبيوتر، وأعدت تحميل الصفحات. ثم قطعت الاتصال بمزود الخدمات، وأعدت تسجيل دخولي إليه من جديد.

لم يتغير شيء. وتواصل ظهور رسالة الخطأ.

عند العاشرة عادت شونا إلى البهو. كانت وجنتاها متوهجتين بفعل الخمر، وكذلك كانت وجنتاي كما خُيل إلي.

سألتني: «ألم يحالفك الحظ؟»

قلت لها: «عودي إلى المنزل.»

أومأت برأسها موافقة، وقالت: «نعم، أظن أن من الأفضل أن أفعل.»

وصلت سيارة الليموزين خلال خمس دقائق. سارت شونا إلى الرصيف متعثرة، وقد تعتعها البوربون و«الرولينغ روك». وكذلك كانت حالي.

فتحت الباب والتفتت إليّ، وسألتني: «هل راودك إغراء الخيانة؟ حين كنتما متزوجين؟»

أجبتها: «لا.»

هزت شونا رأسها، خائبة الأمل، وقالت: «إنك تجهل تمامًا كيف تفسد حياتك.»

ودعتها بقبلةٍ، ثم عدت إلى الداخل. واصلت التحديق إلى الشاشة كما لو كانت أيقونة مقدسة. لكن لم يتغير شيء.

إقتربت مني كلوي ببطء بعد بضع دقائق، وداعبت يدي بأنفها الرطب. التقت عيوننا عبر غابة الشعر الكثيفة التي تغطي عينيها، وأقسم أن كلوي فهمت ما أشعر به. لست ممن يسبغون الصفات البشرية على الكلاب، لأنني، قبل أي شيء آخر، أعتقد أن في ذلك تحقيرًا لها. ولكنني أعتقد أنها قادرة على فهم مشاعر البشر. يقولون إن الكلاب تستطيع أن تشم رائحة الخوف. فهل نبالغ كثيرًا إذا ما اعتقدنا أنها تستطيع أيضًا أن تشم أيضًا رائحة الفرح أو الغضب أو الحزن؟

ابتسمتُ لكلوي وداعبتُ رأسها، فوضعت مخلبها على ذراعي في حركة مواساة. سألتها: «أتريدين الذهاب في نزهة، يا صغيرة؟»

راحت تقفز في كل اتجاه كحيوان سيرك مجنون. كما قلت سابقًا، الأشياء الصغيرة هي المهمة.

راح هواء نسيم الليل يخز رئتي. فحاولت التركيز على كلوي، وعلى خطواتها المتراقصة، وذيلها المهتز. ولكنني كنت مغتمًا. مغتم. لم تكن تلك من المفردات التي أستعملها غالبًا، ولكنني شعرت الآن بأنها مناسبة.

لم أقتنع تمامًا بنظرية شونا المعقولة جدًا حول خدعة الصور الرقمية. أجل، قد يتلاعب شخص ما بصورة فوتوغرافية ويجعلها جزءًا من فيلم فيديو. أجل، لعل أحدًا ما على علم بوقت القبلة. أجل، لعل أحدًا ما استطاع جعل الشفتين تهمسان «آسفة». وأجل، لعل شوقي الكبير ساهم في جعل الوهم حقيقة، فقد كنت الفريسة المثالية لهذا النوع من الخدع.

وقبل كل شيء، تبقى نظرية شونا منطقية أكثر بكثير من عودة إليزابيت من عالم الأموات.

ولكن أمرين كانا يفسدان صحة هذا التحليل. أولهما أنني لم أكن صاحب مخيلة جامحة قط. فأنا ممل على نحو مخيف، وأكثر التصاقًا بالأرض في جديتي من معظم البشر. وثانيهما أن الشوق ربما أثر في تحليلي المنطقي، والتصوير الرقمي قد يفعل الكثير.

twitter @baghdad_library

ولكن لا، تانك العينان.

لقد كانتا عينيها. كانتا عيني إليزابيت. برأيي أن من المحال أن تكون تلك مجرد صورٍ فوتوغرافية قديمة، تم التلاعب بها وتحويلها إلى فيلم فيديو رقمي. تانك العينان كانتا عيني زوجتي. هل كان عقلي التحليلي واثقًا من هذا الأمر؟ بالتأكيد، لا. لست بأحمق، ولكنني وبين ما رأيته، وكل التساؤلات التي طرحتها، استبعدتُ نصفيًا نظرية شونا، وعدت إلى المنزل وأنا ما زلت أعتقد بأنني سوف أتلقى رسالة من إليزابيت.

أما الآن فما عدت أعلم في ما ينبغي أن أفكر. وللعل للخمر دورها في هذا.

توقفت كلوي طويلًا تتشمم شيئًا ما. إنتظرتُها تحت أحد مصابيح الشارع، ورحت أحدق إلى ظلي الممتد.

وقت القبلة.

حدثت حركة في الأجمة جعلت كلوي تنبح بشدة. وقفز سنجاب وبدأ يعدو عبر الشارع، فزمجرت كلوي وتظاهرت بمطاردته. توقف السنجاب وعاد نحونا. فنبحت كلوي، وكأنما تقول: «من حسن حظك أنني مقيدة برسن.» ولكنها لم تعنِ ذلك، فهي جبانة أصيلة.

وقت القبلة.

أملت رأسي كما تفعل كلوي حين تسمع صوتًا غريبًا. فكرت مجددًا في ما شاهدته أمس على كمبيوتري، وفكرت في القدْر الكبير من العناء الذي تكبده شخص ما لإبقاء الموضوع برمته طي الكتمان. فكرت في الرسالة الالكترونية المجهولة الكاتب التي تطلب مني التحقق من الرابط التشعبي في وقت القبلة. وفي الرسالة الإلكترونية الثانية التي أنشئ باسمي فيها حساب جديد.

إنهم يراقبوننا...

كان أحدهم يعمل جاهدًا لإبقاء تلك الاتصالات طي الكتمان.

وقت القبلة...

لو أن أحدهم – حسنًا، لو أن إليزابيت – أرادت ببساطة أن توصل إلي رسالة ما، فلماذا لم تتصل بي أو تكتبها في رسالة إلكترونية عادية؟ ولماذا تجعلني أقفز عبر كل هذه العراقيل؟

الإجابة كانت بديهية: السرية. أحدهم، ولن أعود لقول إليزابيت، يريد إبقاء الأمر سرًا.

وإذا كان لأحدهم سر، فهذا يستتبع بديهيًا أن لديه شخصًا يريد كتمان السر عنه. ولعل هذا الشخص يراقبه، أو يبحث عنه، أو يحاول العثور عليه. إما ذلك أو أنه مصاب بذهان الارتياب. أميل عادة إلى التفسير الثاني، لكن...

إنهم يراقبوننا...

ما معنى هذا بالضبط؟ مَن الذي يراقب؟ أفراد الشرطة الفدرالية؟ وإذا كان هؤلاء مرسلي الرسائل الإلكترونية أساسًا، فلماذا يحذرونني على هذا النحو؟ أفراد الشرطة الفدرالية يريدونني أن أتصرف.

وقت القبلة...

تجمدتُ حيث أنا. وبحركة خاطفة، أدارت كلوي رأسها ناحيتي.

يا إلهي. كيف أمكنني أن أكون بهذا الغباء؟

لم يتكلفا حتى عناء استخدام الشريط اللاصق.

كانت ريبيكا شايس ممددة الآن على الطاولة، تئن ككلب يحتضر على قارعة الطريق. تتمتم ببعض الكلمات، بكلمتين أو ثلاث أحيانًا، ولكنها لم تكن لتشكل قط جملًا مترابطة ومفهومة. كانت أبعد من أن تستطيع البكاء الآن، وتوقفت توسلاتها. لا تزال عيناها جاحظتين وخاليتين من كل تعبير، فلم تكونا تبصران شيئًا. وقد تفتت عقلها وسط الصراخ منذ خمس عشرة دقيقة.

المدهش أن وو لم يترك أي أثر على الإطلاق. لكنها بدت وكأنها شاخت عشرين عامًا.

لم تكن ريبيكا شايس تعلم شيئًا. زارها الدكتور بِكْ للاستفسار عن حادث سيارة قديم، لم يكن في الحقيقة حادث سيارة. كانت ثمة صور أيضًا، افترض بِكْ أنها مَن التقطها. لكنها لم تفعل.

ذلك الشعور الغريب الزاحف في معدة لاري غاندل، والذي بدأ على شكل دغدغة بسيطة حين سمع خبر العثور على الجثتين بقرب البحيرة، كان

twitter @baghdad_library

يشتد. لقد حدث خطأ ما في تلك الليلة، كان هذا أكيدًا. لكن لاري غاندل يخشى الآن أن العملية كلها قد فشلت.

آن الأوان لكشف الحقيقة.

إتصل بالرجل المكلف بالمراقبة، فعرف أن بِكْ اصطحب كلبته في نزهة. وكان وحيدًا. وعلى ضوء الأدلة التي سيزرعها وو، ستبدو حجة الغياب تلك واهية جدًا، يسر بها أفراد مكتب التحقيق الفدرالي.

إقترب لاري من الطاولة، فرفعت إليه ريبيكا عينيها وخرج منها صوت غير بشري، هو مزيج من نصف أنين عالي النبرة، ونصف ضحكة جريحة.

ضغط لاري بالمسدس على جبينها، فخرج منها ذلك الصوت مجددًا. ثم أطلق عيارين ناريين، وساد صمت كامل.

بدأتُ العودة أدراجي إلى المنزل، لكنني فكرت في التحذير.

إنهم يراقبوننا.

لمَ المجازفة؟

كان أحد فروع مقاهي الإنترنت «كينكوز» يبعد حوالى ثلاثة شوارع، وهو يبقى مفتوحًا ليل نهار. عندما وصلت إلى الباب، اتضح لي السبب. الساعة تشير إلى منتصف الليل، وبالرغم من ذلك كان المكان مكتظًا بالكثيرين من رجال الأعمال المرهقين، يحملون أوراقًا وشرائح وملصقات للعرض.

وقفت في خط متعرج تحدّه حبال من المخمل وانتظرت دوري. ذكرني الأمر بزيارة المصارف قبل عهد الصراف الآلي. كانت المرأة التي تقف أمامي ترتدي بزة عمل رسمية – عند منتصف الليل. وتحت عينيها جيوب ضخمة كالحقائب حتى تكاد تشبه حمالي الفنادق. ووقف خلفي رجل أجعد الشعر، بكنزة رياضية سوداء، أخرج بحركة سريعة هاتفًا خلويًا، وشرع يضغط على أزراره.

«سيدي؟»

كان شخص يرتدي الزي الخاص بموظفي «كينكوز» يشير إلى كلوي. وقال لي: «من غير المسموح أن تصطحب كلبًا إلى هنا.»

كنت على وشك أن أقول له إنها ليست المرة الأولى، لكنني أحجمت. لم تبدِ المرأة ذات البزة الرسمية أية ردة فعل. أما الرجل الأجعد الشعر وذو الكنزة الرياضية السوداء، فقد رفع كتفيه كمَن يقول أنْ ليس باليد حيلة. أسرعتُ إلى الخارج، وربطت كلوي إلى عداد موقف السيارات وعدت إلى الداخل. سمح لي الرجل الأجعد الشعر باسترجاع المكان الذي كنت أشغله في خط الانتظار. لقد كان رفيع الأخلاق.

بعد حوالى عشر دقائق وصلتُ إلى مقدمة خط الانتظار، لأرى أمامي موظف «كينكوز» شابا وطافحًا بالبهجة. رافقني إلى جهاز كمبيوتر، وشرح لي ببطء مفرط نظام التسعير بالدقيقة.

أومأت برأسي مرارًا علامة الموافقة على ما يقول، ثم اتصلت بشبكة الإنترنت.

وقت القبلة.

هذا مفتاح اللغز. كانت الرسالة الإلكترونية الأولى تقول «وقت القبلة»، لا السادسة والربع. لماذا؟ لسبب بديهي. كان ذلك رمزًا، تحسبًا لاحتمال وقوع الرسالة في يد مَن لا يجب أن تصل إليه. كان مرسلها يدرك أن إمكانية اعتراضها قائمة، كما يدرك أنني الشخص الوحيد الذي يعرف ما معنى وقت القبلة.

آنذاك اتضح الأمر لي.

أوّلًا، كان اسم المستخدم «بات ستريت». كنت وإليزابيت، في خلال طفولتنا نركب دراجتينا عبر شارع موروود ستريت في طريقنا إلى النادي. وكانت ثمة عجوز شمطاء تقطن منزلًا ذا لون أصفر باهت، تعيش بمفردها، وترعب بنظراتها الأطفال المارين بها. في كل بلدة امرأة عجوز تخيف الأطفال، وعادة ما يُطلق عليها لقب ما. فكنا ندعو عجوز بلدتنا «السيدة الوطواطة»، أو «بات لايدي».

دخلتُ إلى موقع بيغ فوت مجددًا. وكتبت كلمة «موروود» في خانة اسم المستخدم.

بقربي، كان موظف «كينكوز» الشاب والطافح بهجة، يردد خطابه المتعلق بالاتصال بشبكة الإنترنت على الرجل الأجعد الشعر الأجعد ذي الكنزة

twitter @baghdad_library

الرياضية السوداء. ضغطت على مفتاح الانتقال TAB، وانتقلت إلى الخانة المخصصة لكلمة المرور.

كان تفسير كلمة «مراهقون» أسهل. فحين كنا في السنة الثانوية الثانية، ذهبنا، وكنا حوالى عشرة أشخاص، إلى منزل جوردن غولدمان في ساعة متقدمة من مساء يوم جمعة. عثر جوردن على مخبأ شريط فيديو إباحي لوالده. ولم يكن قد سبق لأي منا أن شاهد فيلمًا إباحيًا قط. ورحنا كلنا نشاهده، ونحن نضحك بعدم ارتياح، ونطلق التعليقات الخبيثة المعهودة، ونشعر بأننا أشقياء على نحو لذيذ. وحين أردنا اسمًا لفريق سوفتبول القاعة الذي ألفناه، اقترح جوردن العنوان السخيف للفيلم الإباحي «مراهقون يشعرون بالإثارة».

كتبت «يشعرون بالإثارة» في خانة كلمة المرور. إبتلعت لعابي بصعوبة، ونقرت أيقونة تسجيل الدخول.

ألقيت نظرة نحو الرجل الأجعد الشعر، فوجدته مأخوذًا في بحث على موقع ياهو. ونظرت إلى الكمبيوتر أمامي، ورأيت المرأة ذات البزة الرسمية تنظر عابسة إلى موظف آخر طافح بالبهجة في «كينكوز» عند هذه الساعة.

رحت أنتظر ظهور رسالة الخطأ، لكنها لم تظهر هذه المرة. بل ظهرت أمامي شاشة ترحيب، وفي أعلاها:

«مرحبًا، موروود!»

وتحتها:

«في صندوق بريدك رسالة واحدة.»

راح قلبي يخفق بجنون، وشعرت به كالعصفور يضرب قفصي الصدري.

نقرت أيقونة الرسائل الجديدة، وبدأت ساقي تنتفض مجددًا. لكن شونا لم تكن هنا لتوقفها. رأيت عبر واجهة المقهى كلوي المقيدة، فرأتني بدورها وبدأت بالنباح. وضعت إصبعًا على فمي وأشرت إليها لتصمت.

ظهرت الرسالة الإلكترونية:

ساحة «واشنطن سكوير بارك.» لاقني عند الزاوية الجنوبية الشرقية.

غدًا عند الخامسة.

ستكون ملاحقًا.

وفي أسفل الرسالة:

مهما حدث، أُحِبُك.

الأمل، ذلك الطائر السجين الذي يأبى أن يموت، حطم قضبان القفص وطار. إستوت في مقعدي، واغرورقت عيناي بالدموع. ولكنني وللمرة الأولى منذ زمن طويل، ابتسمت ابتسامة حقيقية.

إليزابيت. لا تزال أذكى مَن عرفتُ.

twitter @baghdad_library

20

عند الثانية فجرًا زحفت إلى السرير وانقلبت على ظهري. وراح السقف فوقي يرقص رقصة الكؤوس الكثيرة، فتمسكت بجانبَي السرير متشبثًا به.

كانت شونا قد سألتني عما إذا أغرتني الخيانة بعد الزواج يومًا. وقد أضافت الجزء الأخير، أي عبارة «بعد الزواج»، لأنها كانت على علم بالحادث الآخر.

من الناحية التقنية، لقد أقدمت بالفعل على خيانة إليزابيت مرة. على الرغم من اعتقادي بأن توصيف الخيانة لا ينطبق بالمعنى الحقيقي على ما حدث. فالخيانة تعني الإساءة إلى الآخر. وأنا على ثقة بأنني لم أؤذِ إليزابيت. خلال سنتي الجامعية الأولى شاركت في أحد طقوس استقبال الطلاب الجدد المثيرة للشفقة، وهو قضاء ليلة مع فتاة. من باب الفضول كما أظن. كان أمرًا محض تجريبي ومحض حسي، ولم يرقني كثيرًا. سأعفيكم من التشدق بمقولة إن الجنس بدون حب لا معنى له. ولكن برغم اقتناعي بسهولة إقامة علاقة جسدية حميمة مع شخص قد لا تعرفونه جيّدًا أو لا يروقكم جدًا، لكن العسير هو قضاء الليل بكامله معه. فالجاذب كان هورمونيًا بحتًا، وبعد إشباع رغبتي، أردت الانسحاب. الجنس للجميع، أما ما يليه فهو للعاشقين.

تحليل عقلاني جميل، ألا تظنون ذلك؟

وإذا كان لما سأقوله أية أهمية، فأنا أشك بأن إليزابيت قامت بأمر مماثل. حين انتقلنا إلى الجامعة، توافقنا على أن نحاول «رؤية» آخرين، بكل ما تحمله كلمة «رؤية» من غموض وَسِعة معانٍ. وهكذا، كان كل عمل طائش يُدرَج تحت عنوان وضع التزامنا موضع الاختبار. كانت إليزابيت، كلما أثير هذا الموضوع، تنفي تمامًا أنها أقامت علاقة أخرى. لكنني كنت أنفي ذلك أنا أيضًا.

واصل السرير دورانه بي وأنا أتساءل: ماذا أفعل الآن؟

أوّلًا، علي الانتظار حتى الخامسة من يوم غد. ولكني لا أستطيع البقاء مكتوف اليدين حتى ذلك الحين. لقد وقفت مكتوف اليدين ما يكفي. والحقيقة التي لم أحب الاعتراف بها لنفسي، كانت أنني ترددت عند البحيرة. ترددت لأنني كنت خائفًا. خرجت من الماء وتريثت. وهذا ما منح المعتدي، كائنًا مَن كان، فرصة ضربي. حتى أنني لم أقم بأي رد فعل بعد الضربة الأولى، لم أنقض على المعتدي، لم أسقطه أرضًا، لم أسدد لكمة واحدة حتى. بل سقطت أرضًا، واحتميت، واستسلمت، وسمحت للرجل الأقوى بأن يسلبني زوجتي.

لن يحدث هذا مجددًا.

فكرت في الاتصال مجددًا بوالد زوجتي. لم تفتني ملاحظة أن هويت بدا قليل التواصل معي خلال زيارتي الأخيرة له. ولكن أية فائدة أجنيها من ذلك؟ إما أن هويت كان يكذب... أو لست أدري. لكن الرسالة كانت واضحة. **لا تخبر أحدًا**. الطريقة الوحيدة التي قد تدفعه إلى الكلام هي أن أخبره عما رأيت عبر كاميرا الشارع تلك. ولكنني لم أكن على استعداد لأن أفعل ذلك بعد.

غادرت السرير وقفزت نحو الكمبيوتر. مجددًا رحت أتصفح الإنترنت. ومع الصباح أصبح بجعبتي بداية خطة.

لم يشعر غاري لامونت زوج ريبيكا شايس بالهلع على الفور. فغالبًا ما كانت زوجته تعمل حتى ساعة متأخرة جدًا. حتى أنها في بعض الأحيان كانت تمضي الليل على سرير قديم في الزاوية اليمنى من الستوديو. لذلك عندما استيقظ عند الرابعة صباحًا ولم تكن ريبيكا قد عادت بعد إلى المنزل، بدأ القلق يساوره، لا الهلع.

twitter @baghdad_library

أقله هذا ما حاول إقناع نفسه به.

إتصل غاري بالستديو، ولكن المجيب الآلي هو الذي تلقى الاتصال. هذا أيضًا لم يكن أمرًا نادر الحدوث. فريبيكا تكره أن يقاطعها أحد أثناء العمل، حتى أنها لم توصل خط الهاتف إلى الغرفة المظلمة. ترك غاري رسالة صوتية على المجيب الآلي وعاد إلى سريرهما.

كان نومه خفيفًا ومتقطعًا. فكر في القيام بشيء آخر، لكن ذلك كان ليُغضب ريبيكا. فهي ذات روحٍ حرة، وإذا كان ثمة توتر في علاقتهما، التي كانت مجزية في كل ناحية أخرى، فسببه أن نمط حياته «التقليدي» نسبيًا كان يقلم جناحيها – بحسب تعبيرها – ويمنعها من التحليق.

ولذلك أعطاها حرية الحركة، لتبسط جناحيها بهدوء.

بحلول السابعة صباحًا، تحول قلق غاري إلى شيء يقترب أكثر فأكثر من الخوف الحقيقي. فاتصل بأرتورو راميريز، مساعد ريبيكا الهزيل ذي الملابس السوداء، وأيقظه من النوم.

إشتكى ارتورو بصوت متبلد: «لم أكد أصل إلى المنزل.»

شرح له غاري الوضع. فلم يكلف أرتورو، الذي نام بملابسه، نفسه عناء تغييرها، بل ركض خارجًا من الباب. وعده غاري بملاقاته في الستوديو، فقفز في الحافلة «أ» التي تتجه إلى وسط المدينة.

وصل أرتورو أوّلًا، ووجد باب الستديو مفتوحًا جزئيًا، فشرعه.

– ريبيكا؟

لا إجابة.

ناداها أرتورو مجددًا.

لا إجابة.

دخل الستديو ومسحه بنظرة شاملة، فلم تكن ريبيكا فيه. فتح باب الغرفة المظلمة، وكانت الرائحة المعهودة لمواد تحميض الأفلام لا تزال مسيطرة. ولكن كان ثمة شيء آخر، شيء غير واضح، يكاد لا يُدرَك، جعل شعر رأسه ينتصب.

شيء بشري بوضوح.

وصل غاري إلى الممر في اللحظة المناسبة لسماع الصراخ.

21

في الصباح، أخذت شطيرة وتوجهت غربًا على الطريق 80 في نيوجرسي. قدت سيارتي لخمس وأربعين دقيقة فوق امتداد زفتي خالٍ من المعالم اللافتة. فلا يكاد المرء يجتاز سادل بروك، حتى تتلاشى المباني ويجد نفسه أمام صفين متشابهين من الأشجار على جانبَي الطريق، ولا يكسر رتابة الطريق سوى إشارات التوجيه.

حين سلكت المخرج 163 عند بلدة تدعى غاردنسفيل، خففت من سرعة السيارة ورحت أنظر إلى الأعشاب الطويلة. بدأ قلبي يخفق بعنف. لم آتِ إلى هنا قط، وكنت قد تجنبت عمدًا المرور عبر هذا الجزء من الطريق طوال السنوات الثماني الماضية. ولكن هنا، على مسافة تقل من مئة متر من حيث أقود سيارتي، يقع المكان حيث عثروا على جثة إليزابيت.

راجعت الاتجاهات التي طبعتها ليلة أمس. كان مركز الطب الشرعي في مقاطعة ساسكس مدرجًا في موقع «مابكويست دوت كوم»، لذا عرفت كيفية الوصول إلى ذلك المبنى، بهامش لا يتجاوز المئة متر. كانت واجهة المبنى ذات النوافذ المقفلة، تخلو من أية لافتة أو إعلان. وقد كان مبنى مستطيلًا من الحجارة، بسيطًا وعمليًا. ما الحاجة إلى غير هذا في مشرحة؟ وصلت قبل الثامنة والنصف بدقائق وركنت السيارة خلف المبنى. كان المركز مقفلًا. هذا جيد.

twitter @baghdad_library

توقفت سيارة كاديلاك سيفيل صفراء في موقف يحمل لافتة باسم «تيموثي هاربر، الطبيب الشرعي للمقاطعة». أخرج سائقها سيجارة قبل أن يترجل منها. لا أنفك أشعر بالدهشة لعدد الأطباء المدخنين. كان لهاربر قامتي تقريبًا، أقل بقليل من 180 سنتمترًا، وبشرة سمراء وشعر أشيب مبعثر. رآني أقف عند الباب فتغيرت أساريره. فالناس لا يأتون إلى المشارح في الصباح الباكر لسماع أخبار سارة.

إقترب مني في هدوء، وسألني: «هل بإمكاني مساعدتك؟

– الدكتور هاربر؟

– هذا صحيح.

– أنا الدكتور دايفيد بِكْ.

طبيب. إذًا نحن زميلان.

– أحتاج إلى بضع دقائق من وقتك.

لم يثر اسمي لديه أي رد فعل. وأخرج مفتاحًا من جيبه وفتح الباب قائلًا:

– لمَ لا نجلس في مكتبي؟

– شكرًا.

تبعتُ هاربر عبر رواق، وراح يشغل المفاتيح الكهربائية. فأخذت مصابيح النيون تسطع على مضض الواحد تلو الآخر. كانت الأرضية من مادة مشمعة، لكنها مخدشة. وبدا المكان أقرب إلى إحدى دوائر تسجيل المركبات الآلية منه إلى مشرحة. ولكن، لربما كانت تلك هي الغاية المرجوة. تعالى صدى خطواتنا، ممتزجًا بأزيز أضواء النيون وكأنما للحفاظ على الإيقاع. أخذ هاربر رزمة من الرسائل وراح يقلبها بسرعة أثناء سيرنا.

كذلك كان مكتب هاربر الخاص، بسيطًا، وفيه مكتب معدني كالذي يستعمله المدرسون في الصفوف الابتدائية. كانت الكراسي بسيطة جدًا، من الخشب المطلي بالورنيش. عُلقت على أحد الجدران عدة شهادات. هو أيضًا ارتاد كلية الطب في جامعة كولومبيا، كما رأيت، برغم أنه تخرج قبلي بنحو عشرين عامًا. لم يكن ثمة صور عائلية، ولا كؤوس غولف أو جوائز، لا شيء شخصيًا. زوار هذا المكتب لا يأتون بغرض الثرثرة الودية، وآخر ما يرغبون في رؤيته هو صور فوتوغرافية وضعها أحدهم لأحفادٍ يبتسمون.

ثنى هاربر يديه ووضعهما أمامه على المكتب. وسألني: «كيف يمكنني مساعدتك، يا دكتور بِكْ؟»

بدأت كلامي بالقول: «منذ ثماني سنوات، أحضِرت زوجتي إلى هنا. كانت ضحية لقاتل تسلسلي معروف باسم روي السفاح.

لست بارعًا في الفراسة، كما لم يكن الاتصال البصري من نقاط قوتي، ولم تكن لغة الجسد تعني لي الكثير. لكنني، وفيما نظرت إلى هاربر، لم يسعني سوى التساؤل عما قد يجعل طبيبًا شرعيًا متمرسًا، يمضي معظم أوقاته على صلة بالأموات، شاحب الوجه بهذا الشكل.

قال بصوت خافت: «أتذكر هذا.»

– أنت من قام بتشريح الجثة؟

– نعم، حسنًا، جزئيًا على الأقل.

– جزئيًا؟

– أجل، كانت السلطات الفدرالية تعمل على القضية أيضًا، فتعاونا فيها. وبما أنه ليس لمكتب التحقيق الفدرالي أطباء شرعيون، فقد تولينا نحن مهمة التشريح.

– مهلًا. أخبرني ماذا رأيت عندما أحضروا الجثة إلى هنا؟

تململ هاربر في كرسيه، وسألني:

– هل لي أن أسأل لماذا تريد معرفة هذا؟

– إنني زوج حزين.

– مضت ثمانية أعوام على الحادثة.

– كل منّا يعبّر عن حزنه على طريقته، دكتور.

– أجل ما من شك في صحة هذا، ولكن...

– ولكن ماذا؟

– ولكنني أود معرفة ما الذي تريده بالضبط.

قررت أن أتحدث بصراحة. فسألته:

– إنك تلتقط صورًا لكل جثة تصل إلى هنا. أليس كذلك؟

تردد الرجل، ورأيتُ تردده. ولم يخفَ عليه أنني لاحظت تردده، فتنحنح، وقال:

twitter @baghdad_library

– نعم. بتنا حاليًا نستخدم التكنولوجيا الرقمية. أو بكلمات أخرى، الكاميرا الرقمية. إنها تتيح لنا تخزين الصور الفوتوغرافية والعديد من الصور الأخرى على كمبيوتر. نجد ذلك مفيدًا للتشخيص أو التصنيف.

أومأت برأسي، دونما اهتمام. كان يثرثر. عندما توقف عن الكلام، سألته:

– هل التقطت صورًا لتشريح جثة زوجتي؟

– أجل بالطبع، ولكن متى كان ذلك؟

– منذ ثمانية أعوام.

– كنا آنذاك نلتقط صور بولارويد.

– وأين قد تكون صور بولارويد تلك، يا دكتور؟

– في الملف.

نظرت إلى خزانة ملفات عالية، تقف في زاوية الغرفة كالحارس. فأضاف بسرعة:

– لا، الملف ليس هناك. فقد أقفِلت قضية زوجتك، وألقي القبض على قاتلها وأدين بالجريمة. كما أن أكثر من خمسة أعوام انقضت.

– إذًا، أين هو الآن؟

– محفوظ في مركز للأرشيف في لايتون.

– أرغب في رؤية الصور الفوتوغرافية، إن كان هذا ممكنًا.

دوّن شيئًا ما على ورقة، أشار إليها بنظرة من عينيه، وقال:

– سأعمل على الأمر.

– دكتور؟

رفع نظره إلي.

– قلت إنك تتذكر زوجتي.

– حسنًا، أجل... أعني، نوعًا ما. لا نرى الكثير من جرائم القتل هنا، ولا سيما الجرائم التي تلقى شهرة في الإعلام.

– هل تتذكر حالة جثتها؟

– في الواقع، لا. لست أتذكر تفاصيل.

– هل تتذكر من تعرّف على جثتها؟

– ألست أنت من قام بذلك؟

– لا.

حك هاربر صدغه، وقال:

– والدها قد فعل. أليس كذلك؟

– أتتذكر كم استغرق من الوقت ليتعرّف على الجثة؟

– كم من الوقت؟

– هل تعرّف إليها فورًا؟ هل استغرق الأمر بضع دقائق؟ خمس دقائق؟ عشر دقائق؟

– ليس بوسعي الإجابة، حقًا.

– ألا تتذكر إن تعرّف على الجثة بسرعة؟

– آسف، لا.

– قلت منذ قليل إنها كانت قضية كبرى.

– أجل.

– وربما أشهر قضية مرت عليكم؟

– شهدنا جريمة قتل فتى توصيل البيتزا الشهيرة منذ بضع سنوات. ولكن، أجل، يمكنني القول إنها إحدى كبرى القضايا.

– ومع ذلك لا تتذكر إذا وجد والدها صعوبة في التعرّف على الجثة؟

لم يرقه ما قلت، فأجاب:

– دكتور بِكْ، مع كل احترامي، لست أدري ما ترمي إليه.

– إنني زوج حزين. أطرح بعض الأسئلة البسيطة.

– نبرة صوتك تبدو عدائية.

– أيجب أن تكون كذلك؟

– ما معنى هذا؟

– ما أدراك بأنها كانت إحدى ضحايا روي السفاح؟

– لم أدرِ.

– إذًا، كيف تدخلت الشرطة الفدرالية في الموضوع؟

– كانوا يتعرّفون إلى علامات...

twitter @baghdad_library

– أتعني أنها وُسمت بحرف «ك»؟

– نعم.

أحسستُني مندفعًا، والغريب أني شعرتُ بنفسي على الطريق الصحيح. فتابعتُ أسأله:

– إذًا، أحضرها رجال الشرطة، فبدأتَ بتفحصها. ثم شاهدت الحرف «ك»...

– لا، أتوا إلى هنا منذ البداية، أعني أفراد الشرطة الفدرالية.

– قبل أن تصل الجثة إلى هنا؟

نظر إلى الأعلى، وكأنه يسترجع شيئًا من أعماق ذاكرته أو يختلقه. وأجاب:

– أو ربما بعد وصولها مباشرة، لا أتذكر.

– كيف علموا بأمر الجثة بهذه السرعة؟

– لست أدري.

– أليست لديك فكرة؟

عقد هاربر ذراعيه فوق صدره، وأجاب:

– يمكنني التكهن بأن أحد رجال الشرطة رأى الوسم في مكان اكتشاف الجثة، فاتصل بمكتب التحقيق الفدرالي. ولكن هذا لا يعدو كونه مجرد تخمين.

شعرت بارتجاج جهازي الطنان على وركي. تحققت منه، فكان الاتصال لأمر طارئ من العيادة.

قال بنبرة متمرسة:

– إني آسف حقًا. أفهم الألم الذي لا شك بأنك تعانيه، لكن جدول أعمالي حافل اليوم. لعل بإمكانك أن تحدد موعدًا في وقت لاحق.

– كم سيستغرق الأمر للحصول على ملف زوجتي؟

– لست واثقًا من أن باستطاعتي القيام بذلك حتى. علي أن أتحقق.

– قانون حرية المعلومات.

– عفوًا؟

– تحريت الأمر هذا الصباح. قضية زوجتي قد أقفِلت، ولي الحق في الاطلاع على ملفها.

لا بد من أن هاربر كان يعلم هذا، فلست أول مَن يطلب الاطلاع على ملف تشريح. راح يهز برأسه بطريقة مبالغ فيها قليلًا، وأضاف:

– ومع ذلك، ثمة قنوات يجب المرور بها، وطلبات رسمية يجب تقديمها.

– هل تحاول المماطلة؟

– عفوًا؟

– كانت زوجتي ضحية لجريمة وحشية.

– إنني أدرك هذا.

– ولديّ الحق في الاطلاع على ملفها، وإذا حاولتَ المماطلة في هذا الموضوع فسأبدأ بالتساؤل عن السبب. لم يسبق لي أن تحدثت للإعلام عن زوجتي أو عن قاتلها، ولكنني مستعد لأن أفعل ذلك الآن، وبطيب خاطر. وسيتساءل الجميع لماذا صعب عليّ الطبيب الشرعي تحقيق مطلب بسيط كهذا.

– يبدو لي هذا تهديدًا، يا دكتور بِكْ.

وقفت، وقلت له:

– سأعود غدًا صباحًا. أرجو أن يكون ملف زوجتي جاهزًا.

أنا أتصرف. كم كان هذا شعورًا جميلًا.

twitter @baghdad_library

22

كان المحققان رولاند ديمونتي وكيفين كرينسكي، من قسم جرائم القتل في شرطة نيويورك، أول الواصلين إلى مسرح الجريمة، وحتى قبل عناصر الشرطة. قائد الاثنين، ديمونتي، كان ذا شعرٍ مدهن لامع، تستهويه الجزمات البشعة المصنوعة من جلد الأفاعي، ويضع في فمه مسواكًا يُعمِل فيه علكًا. وراح يزعق مصدرًا الأوامر، وسرعان ما عُزِل مسرح الجريمة. بعد بضع دقائق حضر خبراء الأدلة الجنائية من وحدة التحقيق في مسرح الجرائم، وانتشروا في المكان.

قال ديمونتي: «أعزلوا الشهود.»

كان ثمة شاهدان فقط. الزوج، والمساعد الغريب الأطوار ذو الملابس السوداء. لاحظ ديمونتي أن الزوج يبدو في حالة صدمة، ولكن هذا قد يكون تمثيلًا. فقرر البدء بالأولويات.

إنتحى ديمونتي الذي ظل يزال يعلك المسواك جانبًا بالشاب الغريب الأطوار، واسمه أرتورو – اسم على مسمى. بدا الفتى شاحبًا. في العادة، قد يشتبه ديمونتي في المخدرات، ولكن الرجل تقيأ بشدة عندما وجد الجثة.

سأله ديمونتي كما لو أن الأمر يهمه: «هل أنت بخير؟»

أومأ أرتورو برأسه إيجابًا.

سأله ديمونتي عما إذا كان هناك أمر غير اعتيادي قد حدث للضحية في الآونة الأخيرة.

أجاب أرتورو: «نعم.»

– ما هو؟

– تلقت ريبيكا اتصالًا هاتفيًا بالأمس أثار اضطرابها.

– ومن كان المتصل؟

لم يكن أرتورو متأكدًا من هوية المتصل. وتابع يقول: «ولكن بعد ساعة من الاتصال، أو ربما أقل – لم يكن أرتورو واثقًا تمامًا – مر رجل لرؤية ريبيكا. وعندما انصرف، كانت في حال سيئة جدًا.»

– هل تتذكر اسم الرجل؟

– بِكْ، نادته باسم بِكْ.

وضعت شونا شراشف مارك في مجففة الملابس. وأتت ليندا لتقف خلفها، وقالت:

– عاد يبلل سريره مجددًا.

– رباه. كم أنت بعيدة النظر.

– لا تكوني شريرة.

سارت ليندا مبتعدة، ففتحت شونا فمها لتعتذر، ولكن الكلمات خانتها. عندما تركت شونا المنزل للمرة الأولى – والوحيدة – كانت ردة فعل مارك سيئة، فبدأ يتبول في سريره. وحين عادتا للسكن معًا، توقف البلل. حتى الآن.

قالت ليندا: «إنه يدرك ما يجري. بمقدوره أن يشعر بالتوتر.»

– ماذا تريدين مني أن أفعل بهذا الشأن يا ليندا؟

– كل ما علينا أن نفعله.

– أنا لن أغادر المنزل. وعدتك بذلك.

– من الواضح أن هذا لا يكفي.

رمت شونا قطعة مليّنة للنسيج في المجففة، وكان الإرهاق يبدو على ملامحها. لم تكن بحاجة إلى هذا، فهي من كبيرات عارضات الأزياء، ولا يمكنها الذهاب إلى العمل بعينين منتفختين، أو بشعر باهت يفتقر إلى اللمعان. لم تكن بحاجة إلى هذه المتاعب.

twitter @baghdad_library

لقد سئمت هذا كله. سئمت المشقات المنزلية التي لا تلائمها إطلاقًا، كما سئمت ضغوط فاعلي الخير. من السهل الدعوة إلى التسامح وعدم التزمت. لكن الضغط الذي يمارسه على سحاقيتين تربيان طفلًا، بعض من محيطهما الذي يتظاهر بحسن النية، أكبر من أن يُحتمَل. إذا فشلت العلاقة، فهذا يعني فشلًا للعلاقات السحاقية عمومًا، أو ما إلى ذلك من تفاهات. كأن العلاقات التقليدية بين الجنسين لا تعرف الفشل أبدًا. لم تكن شونا مناضلة، وهي تدرك ذلك. سواء أكانت أنانية أم لا، فهي لن تضحي بسعادتها على مذبح «الخير الأعظم».

كانت تتساءل عما إذا كان هذا هو شعور ليندا.

قالت ليندا: «أحبك.»

– أنا أيضًا أحبك.

إلتقت عيونهما. عاد مارك يبلل سريره. لن تضحي شونا بسعادتها على مذبح الخير الأعظم، لكنها على استعداد تام لتفعل ذلك من أجل مارك.

سألتها ليندا: «إذًا ما العمل؟»

– سنجد حلًا.

– أتظنيننا سننجح؟

– أتحبينني؟

أجابت ليندا: «تعلمين أنني أحبك.»

– أما زلت تعتقدين أنني أجمل مخلوقات الأرض وأكثرها إثارة؟

– أجل.

إبتسمت لها شونا وقالت:

– وأنا أيضًا. أنا مزعجة نرجسية.

– أوه، أجل.

– ولكنني مزعجتك النرجسية أنت.

– صحيح.

إقتربت شونا، وقالت:

– لم أخلَق لحياة من العلاقات السهلة. أنا متقلبة.

قالت ليندا:

– أنت مثيرة جدًا حين تكونين متقلبة.

– ومثيرة أيضًا حتى حين لا أكون كذلك.

– أصمتي وقبّليني.

رن جرس الباب في الطابق السفلي، فنظرت ليندا إلى شونا التي رفعت كتفيها. ضغطت ليندا على زر الإجابة قائلة: «نعم؟»

– هل أنت ليندا بِكْ؟

– من أنت؟

– العميلة الخاصة كيمبرلي غرين من مكتب التحقيق الفدرالي. ومعي شريكي، العميل الخاص ريك بيك. نود الصعود لنطرح عليك بعض الأسئلة.

إقتربت شونا قبل أن تستطيع ليندا أن تجيب، وصاحت عبر الجهاز:

– محاميتنا تدعى هيستر كرايمشتاين. يمكنكما الاتصال بها.

– لستما من المشتبه بهم في أية جريمة. نود فقط طرح بعض الأسئلة عليكما...

قاطعتها شونا:

– هيستر كرايمشتاين. لا شك عندي بأن لديكم رقم هاتفها. أتمنى لكما يومًا مميزًا.

أفلتت شونا زر الجهاز، ونظرت إليها ليندا.

– ما كان هذا؟

– شقيقك في ورطة.

– ماذا؟

قالت شونا:

– إجلسي. يجب أن نتحادث.

فتحت رايسا ماركوف، الممرضة التي تعتني بجد الدكتور بِكْ، الباب بعدما سمعته يُقرَع. فرأت أمامها العميلين الخاصين كارلسون وستون، واللذين باتا يعملان مع محققَي شرطة نيويورك ديمونتي وكرينسكي، يسلمانها وثيقة.

twitter @baghdad_library

قال كارلسون: «مذكرة تفتيش فدرالية.»

خطت رايسا جانبًا بدون أن تبدي أي رد فعل. فقد نشأت في الاتحاد السوفياتي، ولم تكن انتهاكات رجال الشرطة تزعجها.

إنتشر ثمانية من رجال كارلسون في منزل عائلة بِكْ.

صاح بهم كارلسون: «أريد تسجيل كل شيء بالفيديو. لا أخطاء.»

كانوا يتحركون بسرعة على أمل أن يسبقوا هيستر كرايمشتاين بنصف خطوة. فكارلسون يعلم بأن كرايمشتاين، شأنها شأن العديد من محامي الدفاع البارعين في الفترة التي تلت محاكمة أو. جاي سيمبسون، تتشبث بدفوع عدم كفاءة رجال الشرطة و/أو سوء سلوكهم، تشبث المحامي اليائس. لكن كارلسون المخضرم هو الآخر، لم يكن ليسمح بأن يحدث هذا هنا. سوف يتم توثيق كل خطوة وكل حركة وكل نَفَس حتى، والاستناد إليها كأدلة.

عندما اقتحم كارلسون وستون ستوديو ريبيكا شايس، لم يكن ديمونتي سعيدًا برؤيتهما. كان ذلك جزءًا من كباش القوة المعهود بين الشرطة المحلية والشرطة الفدرالية. فالقواسم المشتركة بين مكتب التحقيق الفدرالي والسلطات المحلية قليلة جدًا، ولا سيما في مدينة كبيرة مثل نيويورك.

ولكن هيستر كرايمشتاين كانت أحدها.

كان كلا الفريقين يعلم أنها بارعة في فن التعمية، ومتلهفة إلى التغطية الإعلامية المفرطة. العالم كله سيراقبهم، ولا أحد يريد ارتكاب خطأ. هذا هو الدافع هنا. فتوصلا إلى تحالف ثقة شبيه بمصافحة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، لأن كليهما يدرك أنهما بحاجة ماسة إلى جمع أدلة دامغة قبل أن تعرقل كرايمشتاين عملهما.

كان أفراد الشرطة الفدرالية هم من استصدروا مذكرة التفتيش. فذلك لا يتطلب منهم سوى اجتياز الشارع أمام مركزهم للوصول إلى المحكمة الفدرالية للمنطقة الجنوبية. ولكن لو أن ديمونتي وشرطة نيويورك أرادوا استصدار مذكرة، لكان عليهم الذهاب إلى محكمة المقاطعة في نيوجرسي، ما يعني خسارة الكثير من الوقت، فيما هيستر كرايمشتاين في أعقابهم.

– سيدي العميل كارلسون!

أتت الصيحة من زاوية الشارع. فاندفع كارلسون إلى الخارج، وسار ستون متعثرًا خلفه. وتبعهما ديمونتي وكرينسكي. على حافة الرصيف وقف عميل فدرالي شاب بالقرب من مستوعب قمامة مفتوح.

سأل كارلسون: «ما هذا؟»

– ربما ليس بذي أهمية يا سيدي، ولكن...

أشار العميل الشاب إلى ما بدا وكأنهما قفازان من اللاتكس، ألقيا في القمامة على عجل.

قال كارلسون: «خذهما، أريد إجراء اختبار بقايا بارود عليهما.» ثم نظر كارلسون إلى ديمونتي. حان الوقت لمزيد من التعاون، وهذه المرة عن طريق المنافسة. وسأله:

– كم من الوقت لإجرائه في مختبركم؟

«يوم واحد»، قال ديمونتي. كان في فمه مسواك جديد، يعلكه جيدًا. ثم أضاف: «ربما يومان.»

– هذا غير جيد. سنضطر إلى إرسال العينات بالطائرة إلى مختبرنا في كوانتيكو.

قال ديمونتي بحدة: «محال.»

– إتفقنا على أن نلجأ إلى الوسيلة الأسرع.

قال ديمونتي:

– البقاء هنا هو الوسيلة الأسرع. سأحرص على ذلك بنفسي.

أومأ كارلسون برأسه موافقًا. الأمر يجري كما توقّع بالضبط. مَن يُرد من الشرطة المحلية منح قضية ما الأولوية القصوى، ما عليه سوى التهديد بسحبها منها. المنافسة. إنها لأمر جيد حقًا.

بعد نحو نصف ساعة سمعوا صيحة أخرى، ولكن مصدرها هذه المرة كان المرأب، ومجددًا اندفعوا نحوه.

أطلق ستون صفرة خافتة. ونظر ديمونتي محملقًا، فيما انحنى كارلسون ليدقق النظر.

twitter @baghdad_library

هناك، وتحت مجموعة من الصحف في سلة المهملات، كان ثمة مسدس عيار تسعة ملمترات. عرفوا من رائحته أن النار أطلقت منه قبل فترة قصيرة.

إلتفت ستون نحو كارلسون، وبعدما تأكد من أن الكاميرا لا تصور ابتسامته، قال بصوت هادئ:

– لقد نلنا منه.

لم يقل كارلسون شيئًا. نظر إلى خبير الأدلة الجنائية يضع المسدس في كيس. من ثم وفيما راح يفكر مليًا في الأمر، ارتسم عبوس على وجهه.

23

كان اتصال الطوارىء الذي وردني عبر جهازي الطنان يتعلق بتي جاي، فقد خدش ذراعه بعضادة باب. ولدى معظم الأطفال، تكفي رشة مؤلمة قليلًا من محلول معقم لمعالجة خدش كهذا. ولكن بالنسبة إلى تي جاي فذلك يعني قضاء ليلة في المستشفى. حين وصلت إلى العيادة كانوا قد علقوا له مصلًا وريديًا. تُعالَج حالات الهيموفيليا بإمداد المريض بمواد دموية كالمرسّب البرْديّ أو البلازما المتجمدة. وفي الحال طلبتُ من ممرضة أن تبدأ إمداده بذلك.

كما ذكرت سابقًا، إلتقيت تايريز للمرة الأولى منذ ستة أعوام، عندما كان مقيدًا ويصيح بكل أنواع الشتائم. قبل ساعة من ذلك، كان قد هرع بابنه تي جاي، وله من العمر آنذاك تسعة أشهر، إلى غرفة الطوارئ. كنت هناك حينذاك، لكن الحالات الحادة لم تكن من مسؤوليتي. فتولى الطبيب المناوب معالجة تي جاي.

كان تي جاي سباتيًا عديم الاستجابة، ضعيف التنفس. أما تايريز الذي تصرف، حسبما ورد في التقرير بطريقة «فوضوية» – وتساءلت كيف يفترض بأب يهرع بطفله إلى غرفة الطوارئ أن يتصرف؟ – فقد أخبر الطبيب المناوب بأن حالة طفله تسوء أكثر كل يوم. نظر الطبيب المناوب نظرة متفقًا عليها إلى ممرضته، التي هزت رأسها وذهبت لتجري اتصالًا هاتفيًا. تحسبًا، ليس إلا.

كشف فحص لقعر العين أن الطفل يعاني نزيفًا متشعبًا للشبكية في الجانبين. أي أن الأوعية الدموية في قعر عينيه قد انفجرت. بعدما حلل

twitter @baghdad_library

الطبيب كل المعطيات: نزيف الشبكية، وحالة السبات العميق، و... الأب، شخّص تعرض الطفل إلى الإساءة الجسدية.

دخل الحراس المسلحون إلى المكان، فقيدوا تايريز، وآنذاك سمعتُ سيل الشتائم، وخرجت لأرى ما يجري. وصل شرطيان بالزي الرسمي لقسم شرطة نيويورك، تلتهما امرأة متعبة من دائرة خدمات الأطفال. حاول تايريز الدفاع عن موقفه، لكن الآخرين هزوا رؤوسهم، وكأني بهم يقولون: «في أي عالم بتنا نعيش؟»

رأيت هذا المشهد نحو عشر مرات في المستشفى. في الواقع، رأيت مشاهد أسوأ، فقد عالجت فتيات في الثالثة من عمرهن يحملن أمراضًا تناسلية. وذات مرة بحثت عن آثار اغتصاب على جسد طفل في الرابعة، يعاني نزيفًا داخليًا. في كلتا الحالتين، كما في جميع حالات الاعتداء المماثلة التي رأيتها، كان الفاعل أحد أفراد العائلة، أو آخر صديق للأمّ.

أيها الأطفال، الرجل الشرير لا يختبئ منتظرًا في ملاعبكم. إنه يقيم في منازلكم.

كنت أعلم أيضًا، وهذه الإحصائية كانت لا تنفك تثير فزعي، أن أكثر من خمسة وتسعين بالمئة من الإصابات الخطيرة في جماجم الرضّع تعود إلى سوء معاملتهم. أي أن الاحتمال جيد – أو سيئ، هذا وقف على كيفية نظرتكم إلى الأمر – بأن يكون تايريز قد مارس العنف الجسدي على طفله.

في غرفة الطوارئ تلك، لطالما سمعنا شتى أنواع الأعذار: سقط الطفل عن الأريكة، أو هبط باب الفرن على رأس الطفل، أو ألقى شقيقه الأكبر لعبة عليه. مَن يعمل هنا فترة كافية يصبح أكثر سخرية من أشد أفراد شرطة المدينة حنكة. الحقيقة هي أن الأطفال الأصحاء يتحملون جيدًا هذا النوع من الحوادث. فمن النادر جدًا أن يسبب السقوط عن الأريكة وحده نزيفًا في شبكية العين.

لم يكن لدي أي اعتراض على تشخيص الإساءة الجسدية إلى طفل، للوهلة الأولى على الأقل.

ولكن شيئًا ما في دفاع تايريز عن نفسه، أثار شكوكي. لم يكن ذلك اعتقادي بأنه بريء، فأنا أيضًا أصدر أحكامًا سريعة على الناس استنادًا إلى

مظهرهم الخارجي. أو بالأحرى، وباستخدام تعبير حالي أكثر شيوعًا سياسيًا، استنادًا إلى تصنيفهم العرقي. كلنا نفعل ذلك. إذا اجتزتَ الشارع لتجنب عصابة من المراهقين السود، فأنت تمارس التصنيف العرقي. وإن لم تجتزه خشية أن تبدو عنصريًا، فأنت تمارس التصنيف العرقي. وإذا رأيت العصابة ولم تفكر في شيء، فأنت من كوكب آخر لم أزره قط.

ما استوقفني هنا هو الازدواجية البحتة. فقد سبق أن رأيت حالة مشابهة إلى حدّ مخيف، خلال مروري مؤخرًا، في إطار المداورة الجامعية على المستشفيات، في ضاحية شورت هيلز الثرية في نيوجرسي. دخل أب وأم أبيضان، يرتديان ثيابًا أنيقة، ويمتلكان سيارة راينج روفر مزودة بأفضل التجهيزات، إلى غرفة الطوارئ مع ابنتهما البالغة من العمر ستة أشهر. كانت الطفلة، وهي ثالثة أبنائهما، تعاني ما عاناه تي جاي تمامًا.

ولم يقيد أحد الأب بالأصفاد.

تقدمتُ من تايريز، الذي نظر إلي نظرة أبناء الغيتوهات السود. في الشارع، كان ذلك ليرعبني، أما هنا، فكان الأمر أشبه بذئب شرير كبير ينفخ على منزل من الحجارة. سألته: «هل وُلد ابنك في هذا المستشفى؟»

لم يجب تايريز.

– هل ولد ابنك هنا، نعم أم لا؟

تمالك أعصابه بما يكفي ليقول «نعم».

– هل هو مختون؟

من جديد حدجني تايريز بنظرة أبناء الغيتوهات، وسألني: «هل أنت نوع من الشاذين؟»

أجبته: «أتعني أن هناك أكثر من نوع؟ هل خُتن هنا، نعم أم لا؟»

قال تايريز على مضض: «نعم.»

بحثت عن رقم الضمان الاجتماعي الخاص بتي جاي، وأدخلته إلى الكمبيوتر، فظهرت سجلاته. راجعتُ الختان. كل شيء طبيعي. اللعنة. ولكنني وجدت شيئًا آخر: هذه ليست زيارة تي جاي الأولى إلى المستشفى. فحين كان عمره أسبوعين، أحضره والده بسبب نزيف في الحبل السري.

twitter @baghdad_library

أمر غريب.

أخضعنا الطفل لبعض فحوص الدم آنذاك، برغم إصرار الشرطة على إبقاء تايريز رهن الاعتقال. لم يعترض، بل أراد فقط إجراء الفحوص لابنه. حاولت استعجال صدور النتائج، لكن لا سلطة لي في هذه المنظومة البيروقراطية، كحال السواد الأعظم من الناس. ومع ذلك، استطاع المختبر أن يحدد بواسطة عينات الدم أن فترة التخثر الجزئي كانت أطول من المعدل الطبيعي، ولكن فترة طليعة التخثر وعدد الصفائح الدموية كانا ضمن الحدود الطبيعية. نعم، أعلم، ولكن انتظروا قليلًا.

أكدت نتائج التحاليل أمرين: الأفضل، والأسوأ. فالطفل لم يتعرض لإساءة جسدية من قِبل والده الشبيه بأبناء غيتوهات السود. لكن داء الهيموفيليا هو ما سبب نزيف شبكية العين، كما أنه أفقد تي جاي بصره.

تنهد الحراس وفكوا قيود تايريز، وانصرفوا بدون كلمة واحدة. وفرك تايريز معصميه. لم يعتذر منه أحد، ولا قدم كلمة تعاطف واحدة لهذا الرجل الذي اتُّهم باطلًا بالإساءة جسديًا إلى ابنه الذي أصبح أعمى.

تصوروا حدوث هذا الأمر في الأحياء الراقية.

منذ ذلك اليوم أصبحت طبيب تي جاي.

هنا، في غرفة تي جاي في المستشفى، داعبت رأسه، ونظرت إلى عينيه الكفيفتين. الأطفال هم عادة شديدو الانطباع بي، وينظرون إلى وجهي بمزيج من الرهبة والتقدير الكبير. يعتقد زملائي أن للأطفال فهمًا أعمق من فهم البالغين لما يحدث لهم. أما أنا فأعتقد أن الجواب ربما كان أبسط من ذلك. يعتبر الأطفال آباءهم شجعانًا وقادرين على كل شيء، ولكن... ها هم الآباء ذاتهم، ينظرون إلي، أنا الطبيب، نظرات ملؤها الخوف، هي عادة ما يرافق النشوة الدينية.

أي شيء قد يثير رعب طفلٍ صغير أكثر من هذا؟

بعد دقائق، أغمض تي جاي عينيه وخلد إلى النوم.

قال تايريز: «لقد اصطدم بجانب الباب فقط. هذا كل شيء. إنه أعمى، وهذا أمر قد يحدث، أليس كذلك؟»

قلت له: «يجب أن يبقى هنا الليلة. لكنه سيكون بخير.»

نظر إلي تايريز، وسألني: «كيف؟ كيف يكون بخير والنزيف لا يتوقف؟

لم أجد إجابة.

– يجب أن أخرجه من هنا.

لم يكن يقصد المستشفى.

مد تايريز يديه إلى جيبه، وبدأ يعد أوراقًا نقدية. لم أكن في مزاج جيد، فرفعت يدي لإيقافه قائلًا:

– سأعود لأتفقده لاحقًا.

– شكرًا لمجيئك، يا دوك. أنا أقدر ذلك.

كنت على وشك أن أذكره بأنني أتيت من أجل ابنه، وليس من أجله هو، ولكنني آثرت الصمت.

كن حذرًا، فكر كارلسون، فيما تسارع خفقان قلبه. كن حذرًا جدًا.

تحلق الأربعة، كارلسون، ستون، كرينسكي، وديمونتي حول طاولة اجتماعات، مع مساعد النائب العام لانس فين. كان فين نذلًا طموحًا، ذا حاجبين لا يكفان عن الحركة، ووجه شمعي إلى حدّ يبدو وكأنه قد يذوب إذا ما تعرض لحرارة مرتفعة. وكان مظهره يوحي بالسرور الكبير.

قال ديمونتي: «لنقبض عليه.»

قال لانس فين: «من جديد، قصوا علي رواية متينة تمامًا تكفي للزج به في السجن.»

أومأ ديمونتي برأسه ناحية زميله.

– هيا، يا كرينسكي، أمتِعني.

أخذ كرينسكي دفتره وبدأ يقرأ:

– قُتِلت ريبيكا شايس برصاصتين في الرأس من مسافة قريبة جدًا، بمسدس أوتوماتيكي من عيار تسعة ملمترات. وبموجب مذكرة تفتيش فدرالية، عُثر على مسدس من عيار تسعة ملمترات في مرأب الدكتور دايفيد بِكْ.

سأل فين: «هل من بصماتٍ على المسدس؟»

twitter @baghdad_library

– لا. ولكن الكشف الجنائي أكد أن المسدس الذي عُثر عليه في مرأب الدكتور بِكْ هو سلاح الجريمة.

ابتسم ديمونتي ورفع حاجبيه، وسأل:

– هل من شخصٍ آخر هنا يشعر بالإثارة؟

قطب فين حاجبيه، ثم قال: «هلا تتابع الكلام.»

– بموجب المذكرة عينها، عُثر على قفازَي لاتكس من مستوعب قمامة في منزل الدكتور دايفيد بِكْ. كما عُثر على بقايا بارود على القفاز الأيمن، والدكتور دايفيد بِكْ يستخدم اليد اليمنى.

رفع ديمونتي حذاءه المصنوع من جلد الثعبان، وحرك المسواك في فمه، وقال: «أوه، نعم، حبيبي، المزيد، المزيد. أنا أحب ذلك.»

عبس فين. أما كرينسكي، الذي لم تفارق عيناه الدفتر، فقد بلل إصبعه وقلب الصفحة.

– على القفاز المطاطي الأيمن ذاته، عثروا في المختبر على شعرة مطابقة للون شعر ريبيكا شايس.

«أوه! أوه!» بدأ ديمونتي يصرخ في نشوة وهمية. أو مَن يدري؟ لربما كانت حقيقية.

تابع كرينسكي يقول:

– الحصول على نتيجة حاسمة لاختبار الحمض النووي سوف يستغرق مزيدًا من الوقت. وعلاوة على ذلك، وجدنا بصمات الدكتور دايفيد بِكْ في مسرح الجريمة، إنما لا في الغرفة المظلمة حيث عُثر على جثتها.

أغلق كرينسكي دفتره، فتحولت كل العيون إلى لانس فين.

وقف فين وفرك ذقنه. لم يبالغ الجميع في ردة فعلهم، شأن ديمونتي، إلا أنهم كانوا يشعرون بشيء من الإثارة. وملأت جو الغرفة شرارات الشعور بحماسة ما قبل الاعتقال، ونشوة القضايا الجنائية الكبيرة. ستُعقَد مؤتمرات صحفية، وترد اتصالات هاتفية من سياسيين، وتظهر الصور في الجرائد.

وحده نيك كارلسون ظل على شيء من القلق، ولم تتوقف أصابعه عن لي مشبك الورق، وتقويمه لليّه من جديد. كان أمرًا أقوى منه. إن شيئًا ما

يزعجه، وهو شيء لم يعرف ما هو، لم يستطع وضع اليد عليه، وكان يثير استياءه الشديد. أوّلًا، كان منزل الدكتور بِكْ يعج بأجهزة التنصت. كان أحدهم يتنصت عليه، وعلى هاتفه أيضًا. ولم يبدُ أن أحدًا يعرف أو يبالي.

قال ديمونتي: «لانس.»

تنحنح لانس فين، وسأل: «أتعرف أين الدكتور بِكْ الآن؟»

أجاب ديمونتي: «في عيادته، كلفتُ شرطيين بمراقبته.»

أومأ فين برأسه.

قال ديمونتي: «هيا يا لانس، دعني ألقي القبض عليه.»

قال فين: «لنتصل بالسيدة كرايمشتاين أوّلًا، من باب اللياقة.»

أخبرت شونا ليندا بكل شيء تقريبًا. كل شيء ما عدا رؤية بِكْ لإليزابيت على الكمبيوتر. ليس لأنها كانت تولي تلك الرواية أية مصداقية، فقد أثبتت بأنها كانت خدعة رقمية. ولكن بِكْ كان مصرا. قال لها: «لا تخبري أحدًا.» لم تكن تحب أن تخفي عن ليندا أسرارًا، لكن ذلك كان أفضل من خيانة ثقة بِكْ.

ظلت ليندا تراقب عيني شونا طيلة الوقت. لم تومئ برأسها أو تتكلم أو حتى تتحرك. وعندما انتهت شونا، سألتها ليندا:

– هل رأيت الصور؟

– لا.

– أين عثرت عليها الشرطة؟

– لا أعلم.

وقفت ليندا وقالت:

– محال أن يمس دايفيد إليزابيت بأذى.

– أعلم ذلك.

لفت ليندا ذراعيها حول جسدها. راحت تتنفس بعمق مرات عدة. وغاب كل لون عن وجهها. سألتها شونا:

– هل أنت بخير؟

– ما الذي تخفينه عني؟

twitter @baghdad_library

– ما يجعلك تعتقدين بأنني أخفي شيئًا؟

إكتفت ليندا بالنظر إليها.

قالت شونا:

– إسألي أخاك.

– لماذا؟

– ليس من حقي الكلام.

رن الجرس مرة أخرى، فأجابت شونا.

– نعم؟

سُمع صوت يقول عبر مكبر الصوت: «أنا هيستر كرايمشتاين.»

ضغطت شونا الزر وتركت الباب مفتوحًا. بعد دقيقتين، دخلت هيستر بسرعة إلى الغرفة.

– هل تعرفان مصورة فوتوغرافية تدعى ريبيكا شايس؟

قالت شونا: «بالتأكيد. لم أرها منذ وقت طويل. وأنت يا ليندا؟»

قالت ليندا: «لم أرها منذ أعوام طويلة. تقاسمت وإليزابيت شقة في وسط المدينة. لماذا؟»

أجابت هيستر: «لقد قُتلت ليلة أمس، ويعتقدون أن بِكْ قتلها.»

تجمدت المرأتان حيث هما، وكأنما صفعهما أحد ما. إستعادت شونا السيطرة على نفسها أوّلًا، فقالت:

– ولكنني كنت مع بِكْ الليلة الماضية. في منزله.

– حتى أية ساعة؟

– أية ساعة تريدين؟

عبست هيستر، وقالت:

– لا تمارسي معي ألاعيب، يا شونا. في أي ساعة غادرت المنزل؟

– حوالى العاشرة أو العاشرة والنصف. في أي ساعة قُتلت؟

– لا أعلم بعد. ولكن لدي مصدرًا في الداخل، وهو يقول إنهم يملكون أدلة متينة ضده.

– هذا جنون.

تصاعد رنين هاتف خلوي. فأخذت هيستر كرايمشتاين هاتفها ووضعته على أذنها، وقالت: «ماذا؟»

تحدث الشخص على الطرف الآخر لمدة بدت طويلة. أصغت هيستر في صمت، وراحت أساريرها تتراخى في ما يشبه الهزيمة. بعد دقيقة أو دقيقتين، أغلقت الهاتف بحدة من دون أن تودع محدثها.

تمتمت قائلة: «كان هذا اتصال لياقة.»

– ماذا؟

– سيلقون القبض على أخيك. أمامنا ساعة واحدة لتسليمه إلى السلطات.

twitter @baghdad_library

24

كان متنزه واشنطن سكوير بارك هو كل ما يسعني التفكير فيه. صحيح أن أمامي أربع ساعات قبل موعد اللقاء هناك، ولكن اليوم هو يوم إجازتي، إذا ما استثنينا الحالات الطارئة. كنت حرا كعصفور – كما تقول أغنية لينرد سكينرد – وقد أراد هذا العصفور أن يطير إلى متنزه واشنطن سكوير بارك.

كنت في طريق الخروج من العيادة عندما دوت الموسيقى البائسة لجهازي الطنان. تنهدت وتحققتُ من الرقم، فكان لهاتف هيستر كرايمشتاين، ويحمل رمز الاتصال الطارئ.

هذا ليس خبرًا سارًا بلا شك.

خطر لي لثانية أو اثنتين أن أتجاهل الاتصال، وأواصل التحليق. ولكن ما جدوى ذلك؟ عدتُ إلى غرفة الفحص، لأجد بابها مغلقًا والرافعة الحمراء في مكانها، أي أن طبيبًا آخر يشغل الغرفة.

سرت عبر الرواق وانعطفت إلى اليسار، فوجدت غرفة فارغة في قسم التوليد والأمراض النسائية. هناك شعرت وكأنني جاسوس في معسكر عدو. كانت الغرفة تلتمع بكثير من بريق المعدن. ووسط أربطة الحوامل والأدوات الأخرى التي تبدو كأنها تعود إلى القرون الوسطى، على نحو يثير الرعب، وقفت أطلب الرقم.

لم تكلف هيستر كرايمشتاين نفسها عناء السلام، بل قالت توًا:

– بِكْ، لدينا مشكلة كبيرة. أين أنت؟

– في العيادة، ماذا يجري؟

قالت:

– أجبني على سؤال واحد. متى رأيت ريبيكا شايس لآخر مرة؟

شعرت بضربات مكتومة وبطيئة تهوي على قلبي. أجبتها:

– أمس. لماذا؟

– وقبل ذلك؟

– منذ ثماني سنوات.

أطلقت كرايمشتاين لعنة خافتة. فسألتها:

– ماذا يحدث؟

– قُتلت ريبيكا شايس ليلة البارحة في الستوديو الخاص بها، برصاصتين في رأسها.

خامرني شعور بأنني أغوص، كما يشعر به المرء قبل أن يغفو، وخانتني ساقاي فسقطت مرتطمًا بكرسي، وقلت:

– يا إلهي...

– بِكْ، أصغ إليّ. أصغِ إليّ جيدًا.

تذكرتُ كيف بدت ريبيكا البارحة.

– أين كنت ليلة البارحة؟

أبعدت الهاتف قليلًا، وتنشقت بعض الهواء. ماتت ريبيكا. الغريب أن منظر شعرها اللامع الجميل أبى أن يفارق مخيلتي. فكرت في زوجها. فكرت في ما ستحمل له الليالي، وهو يرقد في ذلك السرير متذكرًا كيف كان شعرها ينبسط فوق الوسادة.

– بِكْ؟

– في منزلي. في منزلي مع شونا.

– وبعد ذلك؟

– خرجت لأسير.

– أين؟

twitter @baghdad_library

– بقرب منزلي.

– أين؟

لم أجب.

– أصغِ إلي بِكْ. وجدوا سلاح الجريمة في منزلك.

سمعت الكلمات، ولكنها عانت صعوبة في الوصول إلى دماغي. فجأة شعرت بأن الغرفة ضيقة، لا نوافذ فيها، ووجدت صعوبة في التنفس.

– هل تسمعني؟

قلت: «نعم.» وأضفت بعدما بدأت أفهم ما تقوله: «هذا غير ممكن.»

– إسمع. لا وقت لدينا لهذا الآن. سيُلقى القبض عليك. لقد تحدثت مع مساعد النائب العام. إنه نذل، ولكنه وافق على أن تسلم أنت نفسك.

– سيقبضون علي؟

– ركز معي يا بِكْ، أرجوك.

– لم أفعل شيئًا.

– ليس لهذا الأمر أهمية الآن. سيقبضون عليك، ويوجهون إليك التهمة، ثم نخرجك بكفالة. أنا في طريقي إلى العيادة الآن لاصطحابك. إبقَ مكانك، ولا تقل شيئًا لأحد. أتسمعني؟ لا لشرطة نيويورك، ولا للشرطة الفدرالية، ولا لشريك زنزانتك، هل تفهم؟

تعلقت نظراتي بالساعة فوق طاولة الفحص. إنها الثانية وبضع دقائق. واشنطن سكوير. فكرت في واشنطن سكوير. قلتُ:

– لا يمكنني أن أدعهم يلقون القبض علي يا هيستر.

– ستكون بخير.

– كم من الوقت؟

– علامَ؟

– على خروجي بكفالة.

– أنا غير واثقة. لا أعتقد أن الكفالة مشكلة في ذاتها. فلا سوابق لك، وأنت عضو محترم في المجتمع، لك جذور وروابط. قد يكون عليك تسليم جواز سفرك.

– لكن كم من الوقت؟

– كم من الوقت علامَ يا بِكْ؟ لست أفهم.

– على خروجي.

– إسمع، سأحاول أن أحثهم. ولكن حتى ولو أسرعوا بالإجراءات – ولا أقول إنهم سيفعلون – فعليهم أيضًا إرسال بصمات أصابعك إلى مركزهم في ألباني. تلك هي القاعدة المتبعة. وإذا حالفنا الحظ... إذا حالفنا الحظ حقًا، تُوجه إليك التهمة قبل منتصف الليل.

– منتصف الليل؟

قبض القلق على صدري بأصابع فولاذية. السجن يعني عدم ذهابي إلى لقاء واشنطن سكوير بارك. كان اتصالي بإليزابيت في غاية الهشاشة كخيوط من الزجاج البندقي، وإذا لم أكن في واشنطن سكوير عند الخامسة... قلت لهيستر:

– مستحيل.

– ماذا؟

– عليك بتأخيرهم هيستر. فليلقوا القبض عليّ غدًا.

– أنت تمزح أليس كذلك؟ لعلهم وصلوا الآن، ويراقبونك.

مددت رأسي من الباب. لم أكن أستطيع، من حيث أنا، سوى رؤية جزء من مكتب الاستقبال، أي الزاوية القريبة من الجهة اليمنى، ولكن ذلك كان كافيًا.

رأيت رَجُلَي شرطة، وربما أكثر.

عدت إلى الغرفة، وقلت: «يا إلهي!»

– بِكْ؟

قلت من جديد: «لا يمكنني أن أدخل السجن. ليس اليوم.»

– لا تستسلم للهلع يا بِكْ. إبقَ حيث أنت. لا تتحرك، ولا تتكلم، ولا تفعل شيئًا. فقط اجلس في عيادتك وانتظرني. أنا في طريقي إليك.

وأنهت المكالمة.

ماتت ريبيكا، وهم يظنون أنني القاتل. أمر سخيف طبعًا ولكن لا بد من وجود صلة. زرتها أمس للمرة الأولى منذ ثمانية أعوام، وفي الليلة نفسها قُتلت.

تبًا للجحيم. ماذا يجري هنا؟

twitter @baghdad_library

فتحت الباب، واسترقت النظر إلى الخارج. لم يكن رجلا الشرطة ينظران في اتجاهي. فتسللت خارجًا عبر الممر. كان ثمة مخرج طوارئ في الخلف، يمكنني أن أهرب من خلاله، وأذهب إلى واشنطن سكوير بارك.

هل كان ذلك يحدث فعلًا؟ هل حقًا سأفر من الشرطة؟

لم أكن أعلم. ولكن عندما وصلت إلى الباب، خاطرت بالنظر خلفي. لمحني أحد رجال الشرطة، فأشار إلي ثم أسرع نحوي.

دفعت الباب وركضت بكل ما أوتيت من قوة.

لم أستطع أن أصدق. كنت أهرب من رجال الشرطة.

إنغلق باب الطوارئ ووجدت نفسي في شارعٍ مظلم خلف العيادة، لا أعرفه. قد يبدو الأمر غريبًا، ولكن هذا الحي لم يكن حيي. كنت آتي إليه وأعمل وأنصرف فقط. وأبقى أسير محيط لا نوافذ فيه، محرومًا نور الشمس كبومة عنيدة. وجدتُني، على مسافة شارع واحد من مكان عملي، في مكان غريب تمامًا.

إنعطفت يمينًا دونما سبب محدد. ثم سمعت خلفي صوت الباب يُفتح.

«توقف! شرطة!»

لقد صرخوا بتلك العبارة حقًا. لم أتوقف عن الجري. هل سيطلقون النار؟ شككت في ذلك، نظرًا إلى تداعيات إطلاق النار على رجل أعزل يفر. ليس ذلك مستحيلًا في هذا الحي بأية حال، لكنه مستبعد.

لم يكن في هذا الشارع أشخاص كثيرون، لكن مَن كانوا فيه لم يعيروني سوى اهتمام عابر. واصلت الركض، وكان كل شيء يمر كالبرق. تجاوزت رجلًا ذا مظهر مثير للشكوك، ومعه كلب روتوايلر ذو مظهر مثير للشكوك. كان ثمة عدد من الرجال المسنين يجلسون في زاوية متذمرين من يومهم، ونساء يحملن أكياسًا كثيرة، وأطفال ربما يجدر بهم أن يكونوا في المدرسة، يستندون إلى أي شيء يجدونه، وهم في قمة الارتياح.

أما أنا، فقد كنت هاربًا من الشرطة.

كان ذهني يجد صعوبة في استيعاب ذلك. أحسست بتنميل في ساقي، ولكن صورة إليزابيت وهي تنظر في الكاميرا، كانت تبعث في دفعًا إضافيًا من القوة والعزم.

أخذت أتنفس بسرعة زائدة.

غالبًا ما يُحكى عن الأدرينالين، وكيف يفجر طاقة المرء ويمنحه قوة غير عادية، ولكن له ناحية سلبية. فهو يبعث إحساسًا مسكرًا، لا يمكن التحكم فيه، ويشحذ الحواس إلى درجة الشلل. وعلى المرء الإمساك بعنان تلك القوة لئلا تخنقه.

إندفعت في زقاق، هذا ما يفعلونه دائمًا في التلفزيون. ولكنه انتهى إلى طريق مسدود مليء بمستوعبات نفايات لها أبشع الروائح في العالم، وأكثرها إثارة للغثيان، إلى درجة أنها جعلتني أنخر كالحصان. في الماضي، ربما خلال عهدة العمدة لاغوارديا، لا بد من أن هذه المستوعبات كانت خضراء. أما اليوم فلم يبقَ منها سوى الصدأ، الذي نهش المعدن في بعض الأماكن، فاتحًا الطريق أمام الجرذان الكثيرة لتتدفق عبرها كالمياه القذرة في مجرور.

بحثت عن مخرج، عن باب، أو عن شيء ما، ولكني لم أجد شيئًا. لم يكن هناك من مخرج خلفي. فكرت في كسر نافذة للخروج، ولكن النوافذ السفلية كانت جميعها مزودة بقضبان حديدية.

كان السبيل الوحيد للخروج هو العودة من حيث أتيت، حيث ستراني الشرطة بلا شك.

كنت عالقًا في فخ.

نظرتُ إلى اليسار، ثم إلى اليمين، وبعد ذلك، وهذا غريب فعلًا، نظرت إلى الأعلى.

رأيت سلالم النجاة في الحرائق.

كان عدد منها فوق رأسي. إستقيتُ ما في جسدي من الأدرينالين، وقفزت بكل ما أوتيت من قوة، وكلتا يدي ممدودتان إلى الأعلى، فسقطت على مؤخرتي. حاولت مجددًا، فلم أنجح. كانت السلالم عالية جدًا.

ما العمل الآن؟

twitter @baghdad_library

ربما بإمكاني سحب مستوعب نفايات، والوقوف عليه للقفز. لكن الأجزاء العليا من المستوعبات تأكلها الصدأ. وحتى ولو تمكنت من الوقوف على أكوام القمامة، فلن أستطيع بلوغ السلالم.

تنفست بعمق وحاولت التفكير. كانت الرائحة النتنة تنال مني، ودخلت أنفي، وبدا أنها استقرت فيه. تراجعتُ عائدًا إلى مدخل الزقاق.

علا ضجيج جهاز لاسلكي، كما هو مألوف في أجهزة الشرطة.

ألصقت ظهري بالجدار ورحت أصغي.

يجب أن أختبئ.

إشتد ضجيج الأجهزة اللاسلكية، وسمعت أصواتًا. كان رجال الشرطة يقتربون، وكنت مكشوفًا بشكل كامل. إلتصقت بالجدار أكثر، وكأنما ذلك سيساعدني، أو كأنهم سيمرون بي فيظنونني لوحة جدارية، ويتابعون طريقهم.

مزق دوي صفارات الإنذار سكون الجو.

إنها صفارات تدوي من أجلي أنا.

صوت خطوات. إنها تقترب بدون شك. لم يكن هناك سوى مكان واحد للاختباء.

إخترت بسرعة حاوية اعتبرتها الأقل نتانة، وأغمضت عينيّ وغصت بداخلها.

حليب فاسد. فاسد جدًا. كانت تلك أول رائحة أشمها، ولكنها لم تكن الوحيدة. كان هناك شيء ما يشبه القيء وأسوأ، وكنت جالسًا فيه. التصق بي شيء مبلل ونتِن. فتشنجت معدتي وأحسستني على وشك التقيؤ.

سمعت أحدهم يجري في مخرج الزقاق، فبقيت مختبئًا.

صعد جرذ على ساقي.

كادت تفلت مني صرخة، ولكن شيئًا ما في لاوعيي كتمها. يا إلهي! كان هذا سرياليًا. حبست أنفاسي، لكن ذلك لم يدم طويلًا. حاولت التنفس من فمي، ولكن الغثيان عاودني. فرفعت قميصي وأغلقت بها أنفي وفمي، فساعدني ذلك، لكن ليس كثيرًا.

توقف ضجيج الأجهزة اللاسلكية، وكذلك صوت الخطوات. هل خدعتهم؟ إذا كان الأمر كذلك، فلن يدوم هذا طويلًا. دوت صفارات إنذار

جديدة، تناغمت مع الصفارات الأخرى، في صخب شرطة حقيقي. لا شك بأن تعزيزات جديدة وصلت إلى رجال الشرطة، ولن يلبث أحدهم أن يعود للتحقق من الزقاق. ثم ماذا؟

أمسكت بحافة الحاوية لكي أرفع نفسي إلى الخارج، وجرح الصدأ كفي، فرفعت يدي إلى فمي. كنت أنزف. حذرني طبيب الأطفال بداخلي فورًا من مخاطر الإصابة بالكزاز، لكن الرجل في اعتبر أن الكزاز هو أبسط همومي.

أصغيت.

لا صوت خطوات، لا ضجيج أجهزة لاسلكية، صفارات الإنذار ما زالت تدوي، ولكنه أمر بديهي. طلبوا المزيد من التعزيزات. في مدينتنا الجميلة مجرم طليق، وسيأتي الأبطال بقوة كبيرة للقبض عليه، ويطوقون المنطقة ويمشطونها.

كم ابتعدت في هروبي؟

لست أدري، ولكنني أعرف شيئًا واحدًا: يجب أن أواصل الابتعاد، يجب أن أبتعد عن العيادة.

كان ذلك يعني الخروج من هذا الزقاق.

إقتربت من المخرج بحذر. حتى الآن، لا صوت أقدام ولا ضجيج أجهزة لاسلكية. هذه علامة جيدة. حاولت التفكير لبرهة. الفرار خطة ممتازة ولكن تحديد الوجهة أفضل. قررت أن علي مواصلة الاتجاه شرقًا، برغم أن ذلك يعني المرور بأحياء أقل أمانًا. تذكرت أنني رأيت سككًا حديدية فوقي.

قطار الأنفاق.

إنه الحل المثالي للخروج من هنا. كل ما علي فعله هو الصعود إلى عربة وتغيير اتجاهي فجأة بضع مرات، وقد أنجح في التواري. لكن أين يقع أقرب مدخل؟

كنت أحاول أن أتخيل خريطة قطار الأنفاق، عندما دخل شرطي إلى الزقاق.

كان يافعًا، ونظيفًا، ونضرًا، ووردي الوجه. وكان كُمّا قميصه الأزرق مثنيين إلى الأعلى بعناية، وقد لف حول عضلتَي ساعديه المنفوختين رباطين مطاطيين.

أجفل عندما رآني، فلم يقلّ عنّي مفاجأة بهذه المقابلة.

twitter @baghdad_library

تجمد كلانا في مكانه. لكن تجمده دام جزءًا من الثانية أكثر.

لو قاربته كملاكم، أو كخبير في الكونغ فو، لربما انتهى بي الأمر أحصي ما سقط من أطرافي وأسناني. ولكنني لم أقاربه كذلك، فقد تملكني الذعر، وتصرفت بدافع الخوف.

قذفت بنفسي نحوه.

شددت ذقني إلى الداخل، وخفضت رأسي، واندفعت كصاروخ نحو وسط جسده. كانت إليزابيت تمارس رياضة كرة المضرب. وقالت لي مرة إن من الأفضل، حينما يكون الخصم عند الشبكة، توجيه الكرة إلى بطنه، لأنه لن يعرف في أي اتجاه يتحرك، وبذلك تتأخر ردة فعله.

وهذا ما حدث هنا بالضبط.

إصطدم جسدي بجسده، وأمسكت بكتفيه مثل قرد يتشبث بسياج، فاختل توازننا. ثم ثنيت ركبتي وغرستهما في صدره. ظلت ذقني إلى الداخل، ورأسي تحت فك الشرطي الشاب.

كان لسقطتنا صوت مكتوم هائل.

سمعت صوت شيء ينكسر، وأحسست بألمٍ شديد في المكان حيث التقت جمجمتي بفكه. صدر عن الشرطي الشابّ نفْثٌ خافت. لقد خرج الهواء من رئتيه، وأظن فكه قد تحطم. في حالة من الذعر التام نهضت متعثرًا وابتعدت عنه، وكأنه مسدس كهربائي صاعق.

لقد اعتديت على ضابط شرطة.

لا وقت للتفكير. أردت فقط الابتعاد عنه. استطعت الوقوف وهممت بأن أستدير وأهرب، حين شعرت بيده على كاحلي. فنظرت إلى الأسفل والتقت أعيننا.

كان يتألم. أنا من تسبب له بذلك الألم.

حافظت على توازني ووجهت إليه ركلة استقرت في أضلاعه. صدر عنه نفْث مبتل هذه المرة، وسال الدم من فمه. كنت عاجزًا عن أن أصدق ما أفعله. ركلته مجددًا ركلة تكفي لأتخلص من قبضته، فتحررت منه.

ثم ركضت بأقصى سرعة.

25

إستقلت هيستر وشونا سيارة أجرة ومضتا إلى العيادة، فيما ذهبت ليندا بالقطار رقم 1 لزيارة مستشارهم المالي في «المركز المالي العالمي»، للبحث في تسييل أملاك نملكها لتأمين قيمة الكفالة.

كانت عدة سيارات للشرطة متوقفة أمام عيادة بِكْ، في اتجاهات مختلفة، وكأنها أسهم لعبة رماية قذفها رجل سكران. وأومضت أضواؤها الزرقاء والحمراء دوارة، ودوت صفارات الإنذار. وسرعان ما وصل المزيد من سيارات الشرطة.

سألت شونا: «يا للجحيم! ماذا يجري هنا؟»

شاهد النائب العام لانس فين هيستر قبل أن تشاهده هي، فأسرع نحو المرأتين، ووجهه قرمزي اللون غضبًا، وعروق جبهته تنبض.

قال فين من دون مقدمات: «لقد هرب السافل!»

تلقت هيستر الصاعقة الكلامية، وردت: «لا بد من أن رجالك قد أفزعوه.»

وصلت سيارتان أخريان للشرطة، وكذلك شاحنة أخبار القناة السابعة، فأطلق فين شتيمة خافتة، وقال لهيستر:

– تبًا يا هيستر، أتعلمين كيف سأبدو الآن؟

– إسمع يا لانس...

twitter @baghdad_library

– سأبدو كنذل رخيص يعامل الأغنياء معاملة خاصة. كيف أمكنك أن تفعلي بي هذا يا هيستر؟ هل تعلمين ما سيفعل بي العمدة؟ سيفترسني حيًا. وتاكر – تاكر هو النائب العام في مانهاتن – رباه، هل تتصورين ماذا سيفعل؟

– سيد فين!

كان أحد رجال الشرطة يناديه، فنظر فين إليهما مرة أخرى قبل أن ينصرف بانفعال.

استدارت هيستر بسرعة نحو شونا، وسألتها:

– هل فقد بِكْ عقله؟

– إنه خائف.

صاحت هيستر: «إنه يهرب من رجال الشرطة، هل تفهمين؟ هل تفهمين ما معنى ذلك؟» وأشارت نحو شاحنة الأخبار، ثم أضافت: «بربك، وسائل الإعلام هنا. سيصورونه على أنه قاتل فار. هذا خطير، وسيجعله يبدو مذنبًا، ويؤثر في هيئة المحلفين.»

قالت شونا: «إهدئي قليلًا.»

– أهدأ؟ هل تدركين ماذا فعل؟

– لقد فر. هذا كل ما في الأمر. مثل أو. جاي، الذي لا يبدو أن ذلك قد أضر به أمام هيئة المحلفين.

– نحن لا نتحدث عن أو. جاي هنا يا شونا، بل عن طبيب أبيض البشرة وثري.

– بِكْ ليس ثريًا.

– ليس هذا هو المقصود، تبًا. بعد ما جرى، سيرغب الجميع في النيل منه. إنسي الكفالة. إنسي المحاكمة العادلة.

أخذت نفسًا عميقًا وعقدت ذراعيها، ثم أضافت: «فين ليس الوحيد الذي يخاطر بسمعته الآن.»

– ماذا تعنين؟

صاحت هيستر:

– أعني أنا! بضربة واحدة، دمر بِكْ مصداقيتي مع النيابة العامة. حين أتعهد بتسليم شخصٍ ما، ينبغي أن أسلمه.

– هيستر؟

– ماذا؟

– لا أبالي بسمعتك.

سُمع زعيق مفاجئ، جعلهما تنتفضان وتلتفتان لتريا سيارة إسعاف تصل بسرعة. علت صرخة ثم أخرى، وبدأ رجال الشرطة يثبون في كل مكان، ككرات كثيرة أُطلقت معًا تحت زجاج آلة فليبرز.

توقفت سيارة الإسعاف بضربة مكابح شديدة، وقفز من مقصورتها الأمامية مسعفان، رجل وامرأة، بسرعة شديدة. ففتحا الباب الخلفي وأخرجا نقالة.

صاح أحدهم: من هنا! إنه هنا!

شعرت شونا وكأن قلبها قد توقف عن الخفقان. أسرعت نحو فين، وتبعتها هيستر التي سألت فين: «ما الخطب؟ ماذا حدث؟»

لكن فين تجاهلها.

– لانس؟

أخيرًا نظر إليهما، وكانت عضلات وجهه ترتعش غضبًا، وأجاب: «موكلك»

– ما به؟ هل هو مصاب؟

– لقد اعتدى على شرطي.

هذا جنون.

بهروبي، تجاوزت خطًا أحمر، ولكن الاعتداء على هذا الشرطي الشاب... لا عودة إلى الوراء الآن، لذا ركضت. ركضت بكل ما أوتيت من قوة.

«سقط ضابط شرطة!»

صاح أحدهم مناديًا بذلك فعلًا. ثم توالى المزيد من الصيحات، ومن ضجيج الأجهزة اللاسلكية، ومن صفارات الإنذار. كانت كلها تتجه إلي، فكاد قلبي يقفز من صدري. واصلت حث ساقي على الجري، لكني بدأت أشعر بأنهما متصلبتان وثقيلتان، وكأن عضلاتهما وأربطتهما تتحول إلى حجارة. كنت منهكًا تمامًا، وبدأ المخاط يسيل من أنفي، واختلط بالأوساخ المتراكمة على شفتي العليا ودخل فمي.

twitter @baghdad_library

واصلت الانعطاف مراوغًا من مبنى إلى آخر، وكأن ذلك سيخدع رجال الشرطة. لم ألتفت خلفي لأرى إن كانوا يتبعونني. كنت أعلم أنهم يتبعونني، صفارات الإنذار وضجيج الأجهزة اللاسلكية أكدت لي ذلك.

لم يكن لدي أمل بالنجاة.

مررت بسرعة في أحياء لم أكن لأغامر في المرور بها بالسيارة. قفزت فوق سياج وعدوتُ عبر أعشاب طويلة في ما ربما كان ملعبًا. يتحدث الناس عن ارتفاع أسعار العقارات في مانهاتن. أما هنا، وفي مكان غير بعيد من طريق هارلم ريفر، الكثير من الأراضي الشاغرة، وقد تناثر فيها الزجاج المكسور، وأنقاض صدئة لما كان في يوم من الأيام أراجيح ونوادٍ رياضية مفتوحة، وربما أيضًا سيارات.

أمام عدد من المباني السكنية الخاصة بذوي الدخل المحدود، كانت مجموعة من المراهقين السود، بمظاهر وملابس متجانسة تخص عصابات السود، راح أفرادها ينظرون إلي وكأنني قطعة حلوى لذيذة. كانوا على وشك القيام بشيء ما – لا أدري ما هو – عندما أدركوا أن الشرطة تطاردني.

سرعان ما بدأوا بالهتاف لي.

– هيا أيها الفتى الأبيض!

أومأت برأسي قليلًا عند مروري أمامهم، تمامًا كعداء الماراثون وهو يظهر امتنانه لتشجيع الحشود. أحدهم صاح «ديالو!»

واصلت الركض ولكنني طبعًا كنت أعلم جيدًا مَن هو أمادو ديالو. ما من أحد في مدينة نيويورك لا يعرف مَن هو. فقد أصيب بإحدى وأربعين طلقة نارية أطلقها عليه رجال الشرطة، ولم يكن مسلحًا. ظننتُ لوهلة أنه نوع من التحذير بأن الشرطة قد تطلق علي النار.

لكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق.

دافع محامي الدفاع عن أمادو ديالو قائلًا إن رجال الشرطة، ولما حاول ديالو إخراج محفظته، اعتقدوا أنه يحاول أن يسحب مسدسًا. ومنذ ذلك الحين يقوم الناس بالاحتجاج، فيمدون أيديهم إلى جيوبهم بسرعة ويشهرون محافظهم، ويهتفون «ديالو!» وذكر أفراد شرطة الشوارع أنهم ما زالوا اليوم يشعرون بالخوف يعتريهم، كلما مد أحدهم يده إلى جيبه بتلك الطريقة.

حدث ذلك الآن. فقد قام حلفائي الجدد، على أساس أنهم ربما ظنوني قاتلًا، بشهر محافظهم. تردد الشرطيان اللذان كانا يطاردنني لبرهة كانت كفيلة بأن أبتعد عنهما أكثر.

ولكن بعد ذلك؟

أحسست بالنار في حلقي، فقد كنت أبتلع كثيرًا من الهواء. وشعرت بحذائي ثقيلًا وكأنه من الرصاص. أدركني الكسل، ثم علق إصبع قدمي بشيء ما، ففقدت توازني وتعثرت، وانزلقت على الرصيف خادشًا وجهي وكفي وركبتي.

تمكنت من النهوض ولكن ساقيّ كانتا ترتعشان.

كان المطاردون يقتربون مني.

ألصق العرق قميصي بجسدي، وكان الهواء يصفر في أذنيّ بقوة. لطالما كنت أكره الجري. يتحدث الذين يكتشفون لذة الركض كيف أدمنوا هوايتهم تلك، وبلغوا حالة من الانخطاف تسمى نشوة العداء. ليكن. سأظل على اعتقادي الراسخ بأن تلك بالنشوة، شأنها شأن نشوة خنق الذات، سببها نقص وصول الأكسجين إلى الدماغ، أكثر منه تدفق الأندورفين.

صدقوني، لم يكن في ذلك أي شعور بالمتعة.

كنت منهكًا، منهكًا جدًا. لا أستطيع مواصلة الركض إلى الأبد. ألقيت نظرة خلفي فلم أرَ أثرًا لرجال الشرطة، وكان الشارع مهجورًا. جربت فتح أحد الأبواب بلا جدوى، ثم جربت بابًا آخر. عاد ضجيج الأجهزة اللاسلكية، فأخذت أركض. وفي نهاية الحي لمحت باب قبو مفتوحًا جزئيًا، وكان صدئًا أيضًا. كل شيء في هذا المكان كان صدئًا.

إنحنيت وسحبت المقبض المعدني، فانفتح بصريرٍ تعيس. نظرت إلى الظلمة تحتي.

صاح شرطي: «سدوا عليه الطريق من الجانب الآخر!»

لم أحاول حتى النظر إلى الخلف، بل دخلت الحفرة بسرعة. وجدت الدرجة الأولى من السلم، فكانت مهتزة. بحثت عن الدرجة الثانية، لكنها لم تكن موجودة.

twitter @baghdad_library

بقيت لثانية معلقًا في الهواء، مثل قيوط البرنامج الكرتوني الشهير، بعدما يسقط عن جرف صخري، قبل أن أهوي في الحلكة.

لعل السقطة لم تزد عن ثلاثة أمتار، ولكن بدا لي أنني قضيت وقتًا طويلًا قبل الوصول إلى الأرض. حركت ذراعي، ولكن ذلك كان بلا طائل، فقد سقط جسدي على الإسمنت، فاصطكت أسناني من شدة الصدمة.

كنت راقدًا على ظهري، أنظر إلى الأعلى. إنغلق الباب فوقي، وكان هذا أمرًا حسنًا، على ما أظن، ولكن الظلام بات دامسًا. أجريت تقييمًا سريعًا لحالتي الصحية، كان الطبيب فيّ يجري فحصًا داخليًا. كان كل شيء يؤلمني.

سمعت رجال الشرطة مرة أخرى. لم يتوقف دوي صفارات الإنذار، أو لعلها كانت تدوي الآن في أذنيّ. سمعت أصواتًا كثيرة، وكثيرًا من ضجيج الأجهزة اللاسلكية.

كانوا يطبقون علي.

إنقلبت على جانبي، ووضعت يدي اليمنى أرضًا، فاشتعلت جروح كفي ألمًا. بدأ جسدي يرتفع، وتبعه رأسي، الذي صرخ احتجاجًا عندما وقفتُ. وكدت أسقط أرضًا من جديد.

ماذا الآن؟

هل علي الاختباء هنا وحسب؟ لا، هذا لن يجدي نفعًا. ففي النهاية سيبدأون البحث من منزل إلى آخر، ويُقبض علي. وحتى لو لم يفعلوا، فأنا لم أهرب بنية الاختباء في قبو قذر. هربتُ لئلا أتخلف عن موعدي مع إليزابيت في واشنطن سكوير.

كان علي أن أتحرك.

ولكن إلى أين؟

بدأت عيناي تتكيفان مع الظلام، أقله إلى حدّ سمح لي برؤية أشكال غامضة. رأيت صناديق مكدسة بعضها فوق بعض كيفما اتفق، وأكوامًا من السجاد، وبعض مقاعد الحانات ومرآة مكسورة. رأيت انعكاس صورتي في المرآة، فكدت أقفز إلى الخلف مجفلًا. كان في جبيني جرح عميق، كما انشق سروالي عند كلا الركبتين، أما قميصي فكان ممزقًا كقميص «هالك، المسخ

العجيب» في البرنامج التلفزيوني. وكنت ملطخًا بالسخام من رأسي حتى أخمص قدمي، كما لو أنني منظف مداخن.

إلى أين أذهب؟

لا بد من وجود درج في مكان ما هنا. مددتُ قدمي إلى الأمام متحسسًا طريقي، وتحركت بما يشبه الرقصة المتشنجة، مستخدمًا قدمي اليسرى وكأنها عصا مكفوف. قرقع بعض الزجاج المكسور تحت قدميّ، لكنني واصلت السير.

سمعت صوتًا كالدمدمة، ثم اعترضت طريقي فجأة كومة عملاقة من السجاد، وامتدت نحوي يد، وكأنها تمتد من القبر. فكتمت صرخة.

صاح بي: «هيملر يحب شرائح لحم التونة!»

بدأ الرجل – أرى الآن بوضوح أنه رجل – بالنهوض. كان طويل القامة، أسود البشرة، ذا لحية خطها الشيب كثيرًا، وصوفية جدًا حتى بدا الرجل معها وكأنه يأكل خروفًا.

صاح الرجل: «هل تسمعني؟ هل تسمع ما أقوله لك؟»

واقترب مني، فتراجعت منكمشًا.

«هيملر يحب شرائح لحم التونة!»

بدا واضحًا أن الرجل الملتحي مستاء لسبب ما. لوح بقبضته في اتجاهي، فابتعدت بدون تفكير. مرت قبضته أمامي بقوة كافية، أو ربما بقدر كافٍ من الكحول، ليفقد توازنه ويسقط على وجهه. لم أتردد في الانتظار، بل عثرت على الدرج وركضت إلى الأعلى.

لكني وجدت بابًا مقفلًا.

– هيملر!

كان صوته مرتفعًا، بل صاخبًا. ضغطت على الباب لفتحه، ولكن بدون جدوى.

– هل تسمعني؟ هل تسمع ما أقوله؟

سمعت صريرًا، فنظرت خلفي، ورأيت شيئًا جمّد الدم في عروقي.

نور الشمس.

twitter @baghdad_library

فتح أحدهم الباب عينه الذي دخلت منه.

– مَن هناك؟

كانت النبرة آمرة. راح ضوء مشعل كهربائي يتراقص أرضًا، ووصل إلى الرجل الملتحي.

«هيملر يحب شرائح لحم التونة!»

– هل أنت من يصرخ أيها العجوز؟

– هل تسمعني؟

ضغطت الباب بكتفي لأفتحه، مسخرًا ثقلي كله. فجأة تراءت صورة إليزابيت، تلك التي رأيتها على شاشة الكمبيوتر، بذراعها المرفوعة، وعينيها اللتين تدعوانني، فضغطتُ بقوة أكبر، وانفتح الباب.

سقطت على أرضية الطابق الأرضي، في مكان غير بعيد من مدخل المبنى.

ماذا الآن؟

كان رجال الشرطة قريبين مني، وسمعت ضجيج الأجهزة اللاسلكية، وصوت أحدهم يستجوب كاتب سيرة هيملر. كان الوقت ضاغطًا، وأنا بحاجة إلى المساعدة.

ولكن من أين؟

لا يمكنني الاتصال بشونا، فلا شك بأن الشرطة تلاحقها. وكذلك الحال مع ليندا. أما هيستر فستصر على أن أسلم نفسي.

كان أحدهم يفتح الباب الأمامي.

ركضت عبر الرواق، وكانت الأرضية من مادة مشمعة، وقذرة، والأبواب جميعها معدنية وموصدة، زال عنها الطلاء. دفعت بابًا للطوارئ بقوة، وتسلقت سلم النجاة. توقفت عند الطابق الثالث ودخلت.

كان امرأة عجوز تقف في الممر.

كانت، ولدهشتي، امرأة بيضاء. لا شك بأنها سمعت الضجة وخرجت لترى ما يحدث. تجمدتُ في مكاني. كانت المسافة بينها وبين بابها المفتوح تسمح لي بالعبور.

ولكن هل سأجرؤ؟ هل سأجرؤ على أن أبلغ ذلك للفرار؟

نظرتُ إليها، فنظرتْ إلي بدورها. ثم أخرجتْ مسدسًا.

أوه، يا إلهي...

سألتني: «ماذا تريد؟»

سمعتُني أجيبها: «هل يمكنني استخدام الهاتف من فضلك؟»

قالت بدون تردد: «عشرون دولارًا.»

بحثت في محفظتي وسلمتها النقود، فأومأت السيدة العجوز برأسها وسمحت لي بالدخول. كانت الشقة صغيرة ومرتبة للغاية، ورأيت فوق كل الأرائك والطاولات الخشبية الصغيرة ذات الخشب الداكن اللون مطرزات من الدانتيل.

قالت: «هنا.»

كان الهاتف قديم الطراز ذا لوحة أرقام دائرية، فوضعت إصبعي في الثقوب الصغيرة. إنه لأمر مضحك. لم يسبق لي أن طلبت هذا الرقم من قبل، كما لم أرغب في ذلك قط. لكني كنت أحفظه غيبًا. لعل الأطباء النفسيين يسعدهم كثيرًا تحليل هذا الأمر. طلبت الرقم وانتظرت.

بعد رنتين أجاب صوت قائلًا: «نعم.»

– تايريز؟ أنا الدكتور بِكْ. إنني بحاجة إلى مساعدتك.

twitter @baghdad_library

26

هزت شونا رأسها، وقالت: «بِكْ يؤذي شخصًا ما؟ هذا مستحيل.»

عاد العِرق ينتفض في جبهة فين مساعد النائب العام. إقترب منها إلى أن كاد وجهه يصطدم بوجهها، وقال لها:

– لقد هاجم شرطيًا في زقاق، ولعله حطم فك الرجل وبعض أضلاعه.

ثم اقترب فين أكثر وقال، ورذاذ لعابه يسقط على خدَّيْ شونا:

– أتسمعين ما أقوله لك؟

– أسمعك، والآن ابتعد قليلًا يا ذا الأنفاس الكريهة، وإلا ركلت خصيتيك حتى تنغرزا في حلقك.

بقي فين في مكانه لثانية كانت كافية ليطلق شتيمة، قبل أن ينصرف. وكذلك فعلت هيستر كرايمشتاين، التي بدأت تعود أدراجها في اتجاه برودواي. لحقت بها شونا وسألتها: «أين تذهبين؟»

قالت هيستر: «أنا أتنحى عن القضية.»

– ماذا؟

– إبحثي له عن محامٍ آخر يا شونا.

– لا يمكنك أن تكوني جادة.

– بلى.

– لا يمكنك أن تتخلي عنه بكل بساطة.

– أنظري إليّ أفعل ذلك.

– هذه إساءة إلى مصلحة بِكْ.

– وعدتُهم بأنه سيسلم نفسه.

– تبًا لوعدك. الأولوية هنا هي بِكْ، لا أنت.

– بالنسبة إليك، ربما.

– أتولين نفسك أولوية على موكل؟

– لا أريد العمل مع شخص يفعل شيئًا كهذا.

– مَن تحاولين أن تخدعي؟ سبق أن دافعتِ عن مهووسي اغتصاب جنسي.

لوحت هيستر بيدها، وقالت:

– سأنصرف.

– أنت منافقة لعينة وعطشى إلى الشهرة الإعلامية.

– ما تقولينه مؤلم يا شونا.

– سأذهب إليهم.

– ماذا؟

– سأذهب إلى وسائل الإعلام.

توقفت هيستر، وسألتها:

– ماذا ستقولين لهم؟ إنني تخليت عن مجرمٍ كاذب؟ ممتاز، هيا اذهبي. سأسرب عن بِكْ معلومات سيئة، إلى حدّ يبدو معه مجرمٌ آكل لحوم بشر كجيفري داهمر، زوجًا مثاليًا.

– ليس لديك ما تسربينه.

رفعت هيستر كتفيها، وقالت: «لم يكن ذلك مشكلة لي قط.»

تبادلت الامرأتان النظرات شزرًا، ولم تبادر أي منهما إلى إبعاد عينيها عن الأخرى. ثم قالت هيستر بصوت رق فجأة:

– قد تظنين أن سمعتي ليست على المحك، ولكنك مخطئة. إذا لم يكن بوسع مكتب النائب العام الاعتماد على كلمتي، فلا نفع مني لموكليّ الآخرين، وكذلك لا نفع مني لبِكْ. الأمر بهذه البساطة: لا أريد أن أخسر مكتبي وموكليّ لأن صديقك تصرف بحماقة.

twitter @baghdad_library

هزت شونا رأسها، وقالت: «إرحلي، لا أريد أن أراك.»

– ثمة أمر آخر.

– ماذا؟

– الأبرياء لا يهربون يا شونا. أراهن بمئة دولار مقابل دولار واحد على أن صديقك بِكْ قتل ريبيكا شايس.

قالت شونا:

– قبلتُ الرهان. هذا شأنك. ثمة أمر آخر أقوله لك أيضًا يا هيستر: إذا قلت كلمة سوء واحدة بحق بِكْ، سيحتاجون إلى مِغرفة لجمع ما يتبقى من أشلائك. هل نحن متفاهمتان؟

لم تجب هيستر. وما كادت تبتعد عن شونا خطوة حتى مزق الهواء صوت رصاصة.

تقوقعتُ ورحت أهبط سلم نجاة صدئًا، حين كاد صوت الرصاصة يقلبني عنه. فانبطحت على الممر ومكثت أنتظر.

سُمع المزيد من أصوات الرصاص.

سمعت صرخات. كان علي أن أتوقعها، ومع ذلك كانت الضوضاء شديدة. طلب مني تايريز أن آتي إلى هنا وأنتظره. تساءلت كيف كان يخطط لإخراجي، لكنني بدأت أفهم.

بعملية تضليل.

سمعت من البعيد صوتًا يصرخ: «رجل أبيض يطلق النار في كل مكان!» تلاه صوت آخر: «رجل أبيض يحمل مسدسًا! رجل أبيض يحمل مسدسًا!»

سُمع مزيد من أصوات الرصاص، لكن ضجيج الأجهزة اللاسلكية توقف تمامًا، برغم أنني أنصت جيدًا. بقيت منبطحًا ولم أحاول التفكير كثيرًا. بدا لي أن ذهني قد توقف عن العمل. منذ ثلاثة أيام، كنت طبيبًا متفانيًا في عملي، أسير نائمًا في حياتي الخاصة. لكني، ومنذ ذلك الحين، رأيت شبحًا، وتلقيت رسائل إلكترونية من عالم الأموات، وأصبحت مشتبهًا به، لا بجريمة

قتل واحدة، بل باثنتين، وتحولت إلى فارّ من العدالة، واعتديت على شرطي وطلبت المساعدة من تاجر مخدرات معروف.

يا لها من اثنتين وسبعين ساعة.

كدت أضحك.

– مرحبًا، يا دوك.

نظرت إلى الأسفل، فرأيت تايريز برفقة رجل أسود آخر، في أوائل عقده الثالث، لا يقل حجمًا عن هذا المبنى إلّا قليلًا. حدق العملاق إلي من خلف نظارته الشمسية التي تتميز بالغموض المتهكم، وتتناسب تمامًا ووجهه الخالي من أي تعبير.

– هيا يا دوك، لننصرف.

هبطت السلم مسرعًا، وواصل تايريز النظر يمينًا ويسارًا، فيما وقف العملاق جامدًا تمامًا، وذراعاه معقودتان على صدره، في الوقفة التي كنا نسميها وقفة الجاموس. ترددت قبل السلم الأخير، باحثًا عن وسيلة لفتحه للوصول إلى الأسفل.

– إلى يسارك رافعة يا دوك.

وجدتها، وسحبتها فانزلق السلم إلى الأسفل. عندما وصلتُ إلى الأرض، بدرت من تايريز تكشيرة، وهز بيده أمام أنفه اشمئزازًا.

– رائحتك منتنة يا دوك.

– لم يتسن لي الوقت للاستحمام. آسف.

– من هنا.

تسلل تايريز عبر الفناء الخلفي، وتبعته بخطى حثيثة جدًا أحيانًا لئلا أتخلف عنه. سار العملاق خلفنا في صمت. لم يحرك رأسه يمينًا أو يسارًا قط، لكنني شعرت بأنه لم يُغفل رؤية الكثير.

كانت في انتظارنا سيارة بي.أم.دبليو سوداء، ذات نوافذ داكنة، وهوائي متطور، وسلسلة معدنية تحيط بلوحة التسجيل، وكان محركها يشتغل. كانت أبوابها كلها مغلقة، لكنني استطعتُ الإحساس بموسيقى الراب، التي راح إيقاعها يرتج في صدري كشوكة رنانة لتعيير الأنغام.

twitter @baghdad_library

قلت له عابسًا: «السيارة، ألا تلفت الانتباه؟»

– لو كنت شرطيًا، وتبحث عن طبيب أبيض كالثلج، ما هو آخر مكان تبحث فيه؟

كان على صواب.

فتح العملاق الباب الخلفي، فدوت الموسيقى بصوت صاخب جدًا كأنها حفلة موسيقية لفرقة بلاك ساباث. مد تايريز ذراعه كبواب فندق، فصعدت إلى السيارة، وجلس إلى جانبي. فيما جلس العملاق في مقعد السائق.

لم أفهم الكثير مما كان مغني الراب يقوله، ولكنه بدا غاضبًا من «الرجل». وفجأة فهمت.

قال تايريز: «هذا هو بروتوس.»

كان يقصد السائق العملاق. حاولت أن أرى عينيه في مرآة الرؤية الخلفية، ولكن النظارة الشمسية حالت دون ذلك.

قلت له: «سررت بلقائك.»

لم يجب بروتوس.

حولت انتباهي إلى تايريز من جديد، وسألته:

– كيف استطعت القيام بذلك؟

– بعض رجالي يطلقون النار في الشارع 147.

– ألن تعتقلهم الشرطة؟

نخر تايريز ساخرًا، وأجاب: «نعم، بالطبع.»

– بمثل هذه السهولة؟

– هناك، نعم، الأمر سهل. المبنى رقم 5 في هوبارت هاوس لنا، أدفع للمستأجرين عشرة دولارات في الشهر ليرموا قمامتهم أمام الأبواب الخلفية، فيسدونها، ويعجز أفراد الشرطة عن عبورها. إنه مكان جيد للقيام بأعمالنا. وهكذا يطلق رجالي بعض الرصاصات عبر النوافذ، هل تفهم ما أريد قوله؟ وحين يفتح رجال الشرطة الأبواب يكونون قد تواروا عن الأنظار.

– ومن كان يصرخ بوجود رجل أبيض يحمل مسدسًا؟

– رجلان آخران من رجالي كذلك، ركضا في الشارع صائحين أن ثمة رجلًا أبيض مجنونًا.

قلت: «نظريًا، أنا.»

كرر تايريز مبتسمًا: «نظريًا، هذه كلمة كبيرة وجميلة يا دوك.»

أسندت رأسي إلى الخلف، وأحسست بالتعب الشديد في عظامي. كان بروتوس يقود باتجاه الشرق، واجتاز الجسر الأزرق بقرب ملعب يانكي – لم أعرف اسم ذلك الجسر قط – ما يعني أننا في برونكس. إنكمشت في مقعدي لبعض الوقت تحسبًا لاحتمال أن ينظر أحد إلى داخل السيارة. ثم تذكرت بأن النوافذ داكنة، فنظرت إلى الخارج.

كانت تلك المنطقة في غاية البشاعة، مثل تلك المشاهد التي نراها في أفلام نهاية العالم بعد انفجار القنبلة. كانت ثمة آثار لما ربما كان في الماضي مباني، وهي كلها في مراحل مختلفة من التداعي. لقد انهارت تلك المباني، نعم، لكن انهيارها حدث من الداخل، وكأنما نُهشت بنى الدعم فيها.

تواصلت الرحلة لبعض الوقت. حاولتُ التمسك بما يحدث، لكن ذهني كان يخادعني. كان جزء مني يدرك بأني قريب من حالة الصدمة، فيما الجزء الآخر لا يسمح لي حتى بالتفكير في ذلك. رحت أركز على ما يحيط بي. كلما تقدمنا بالسيارة، أي كلما أوغلنا أكثر في المنطقة المنهارة، كانت المساكن المأهولة تتناقص عددًا. برغم أننا كنا على مسافة كيلومترات قليلة فقط من العيادة، لم أدرِ أين نحن. أظننا لا نزال في برونكس، ربما في جنوب برونكس.

كانت الإطارات القديمة والفرشات المثقوبة ملقاة وسط الطريق كجرحى الحرب، وظهرت بين الأعشاب العالية كتل كبيرة من الإسمنت. كما رأيت هياكل سيارات، وخيل إلي أنني أرى حرائق هنا وهناك.

قال تايريز بضحكة خافتة: «أغالبًا ما تأتي إلى هنا يا دوك؟»

لم أكلف نفسي عناء الرد.

أوقف بروتوس السيارة أمام مبنى متداعٍ آخر. كان سياج شبكي يطوق المبنى الحزين، وسُدت نوافذه برقائق الخشب. رأيت ورقة ملصقة على الباب، لعلها كانت إنذارًا بالهدم. كان الباب أيضًا من رقائق الخشب، فانفتح

twitter @baghdad_library

وخرج منها رجل متعثرًا وقد رفع يديه لحماية عينيه من أشعة الشمس، فظهر كدراكولا يترنح تحت الضربات التي تجهز عليه.

ظل عالمي يدور كدوامة.

قال تايريز: «هيا بنا.»

خرج بروتوس أوّلًا من السيارة، وفتح لي الباب، فشكرته، إلا أنه لم يتزحزح.

ذكرني بوجه الهندي الذي يظهر على متاجر بيع السيجار، الذي لا يمكننا تخيله وهو يبتسم، أو ربما لا نرغب في ذلك.

من جهة اليمين، كان السياج مقصوصًا ومقلوبًا، فتسللنا عبره. إقترب الرجل المتعثر من تايريز، فتجمد بروتوس لكن تايريز هدأه بحركة من يده. تبادل الرجل وتايريز تحية حارة ومصافحة معقدة. ثم ذهب كل منهما في سبيله.

قال لي تايريز: «تعال.»

إجتزت الباب وذهني لا يزال مخدرًا. هبت في وجهي الروائح النتنة أوّلًا، كرائحة البول الحمضية، ورائحة البراز الكريهة التي لا يخطئها أنف. كان شيءٌ ما يحترق، وظننتُني أعرف ما هو. وبدا لي أن رائحة العرق الأصفر الرطبة تنبعث من الجدران. لكن كان ثمة شيء آخر هنا. كانت رائحة، ليست رائحة الموت، بل رائحة ما قبل الموت، كالغرغرينا، وكأن شيئًا ما يُحتضر ويتفسخ فيما لا يزال يتنفس.

كانت الحرارة الشديدة أشبه بما يخرج من كوة فرن ملتهب. كان أشخاص، ربما بلغ عددهم خمسين أو مئة، مرميين أرضًا كتذاكر رهانات خاسرة في سباق خيول. كان ظلام دامس يسود المكان، وبدا يفتقر إلى الماء والكهرباء وكل أنواع الأثاث. كانت الألواح الخشبية تحجب ضوء الشمس. والإضاءة الوحيدة كانت من خلال الشقوق الضيقة التي تتسلل منها أشعة الشمس كمنجل الحصاد. كان يمكن تمييز بعض الظلال والأشكال.

أعترف بأنني ساذج في موضوع المخدرات. شاهدت مرارًا الكثير من آثارها في غرفة الطوارئ. ولكني شخصيًا لم أهتم بالمخدرات قط. السم المفضل لدي هو الكحول، كما أظن. ومع ذلك، فقد تلقيت ما يكفي من الإشارات لأدرك أننا في مكان لتعاطي المخدرات.

قال تايريز: «من هنا.»

بدأنا المشي عبر الجرحى، بقيادة بروتوس. كان الراقدون أرضًا يفسحون له المجال وكأنه النبي موسى. سرت خلف تايريز. كانت أطراف أنابيب تدخين المخدرات تشتعل فتثقب الظلمة. ذكرني ذلك بسيرك بارنوم وبايلي الذي كنت أذهب إليه طفلًا، وبالمشاعل الصغيرة التي نديرها في الظلام. هذا ما ذكرني فيه المكان. رأيت الظلام، ورأيت الظلال، ورأيت ومضات من الضوء.

لم يكن ثمة موسيقى، وبدا أن أحدًا لم يكن يتكلم كثيرًا. سمعت همهمة، وأصوات الامتصاص المبللة من أنابيب تدخين المخدرات. كان الجو يتمزق أحيانًا بصرخات تكاد لا تكون بشرية.

كذلك سمعتُ تأوهات البعض ممن يمارسون الجنس في أشد الوضعيات فحشًا، علنًا، وبدون أية محاولة للاختباء من العيون.

رأيت مشهدًا معينًا، سأعفيكم من تفاصيله، جعلني أبتعد رعبًا. كان تايريز ينظر إلى تعابيري بشيء من التسلية.

قال وهو يشير إلى شيء ما: «حين يعجزون عن تأمين النقود، يقايضون بهذا من أجل الحصول على جرعة مخدرات.»

شعرت بالغثيان، فالتفتّ إليه، لكنه هز كتفيه بلا مبالاة، وقال لي:

– التجارة هي التي تجعل العالم يدور يا دوك.

واصل تايريز وبروتوس السير، وواكبتهما مترنحًا. كانت معظم الجدران الداخلية قد انهارت على الأرض. وكان الأشخاص، كبارًا، صغارًا، سودًا، بيضًا، رجالًا، نساءً، مرميين في كل مكان، خمولين، لا شكل لهم، كالساعات في لوحات دالي.

سألت تايريز:

– هل تدخن المخدرات يا تايريز؟

– كنت أدخنها. أدمنتها وأنا في السادسة عشرة.

– كيف توقفت؟

ابتسم تايريز، وسألني:

– أترى صديقي بروتوس؟

twitter @baghdad_library

– صعب ألا أراه.

– قلت لـه إنني سأعطيه ألـف دولار عـن كل أسبـوع لا أدخـن فيه المخدرات، فانتقل للسكن معي.

أومأت برأسي موافقًا. بدا الأمر أكثر فعالية بكثير من أسبوع مع بيتي فورد.

فتح بروتوس بابًا. هذه الغرفة، وبرغم أنها غير حسنة التأثيث، كان فيها على الأقل طاولات وكراسٍ، وحتى أضواء وثلاجة. كما لاحظت وجود مولد كهربائي نقال في الزاوية.

دخلتها مع تايريز، فأغلق بروتوس الباب وبقي في الممر. وبقينا وحدنا.

قال تايريز: «أهلًا بك في مكتبي.»

– هل لا يزال بروتوس يساعدك في الابتعاد عن المخدرات؟

هز رأسه وقال: «لا، تي جاي يفعل ذلك الآن. أتفهم ما أقوله؟»

كنت أفهم. سألته:

– ألا مشكلة لديك في ما تفعله هنا؟

– لدي الكثير من المشاكل يا دوك.

جلس تايريز ودعاني إلى أن أجلس أيضًا. إلتمعت عيناه، ولم أحب ما رأيته فيهما. أضاف: «أنا لست من الصالحين.»

لم أعرف بما أجيب، فغيرت الموضوع، وقلت له: «يجب أن أكون في واشنطن سكوير بارك عند الخامسة.»

مال إلى الوراء، وقال:

– قل لي ما الأمر.

– إنها قصة طويلة.

أخرج تايريز شفرة كليلة وبدأ ينظف أظافره، وأضاف:

– عندما يمرض طفلي، أذهب إلى الخبير، أليس كذلك؟

هززتُ برأسي موافقًا. فأضاف:

– عندما تكون لديك مشاكل مع القانون، عليك أن تفعل الشيء ذاته.

يا لها من مقارنة.

– أنت في مأزق سيئ يا دوك.

ثم أضاف بعدما باعد بين ذراعيه:

– المآزق السيئة هي عالمي. أنا أفضل دليل يمكنك أن تحظى به.

رويت له القصة، كلها تقريبًا. هز رأسه كثيرًا ولكنني أشك في أنه صدقني حين قلت له أنْ لا صلة لي بالجريمتين، كما أشك في أنه يبالي. حين انتهيتُ، قال:

– حسنًا، دعنا نهيئك. وبعد ذلك ثمة أمر آخر أود أن أحدثك بشأنه.

– ما هو؟

لم يجب تايريز، واقترب مما بدا خزانة معدنية في الزاوية. وفتحها بمفتاح، ونظر إلى داخلها وأخرج مسدسًا.

قال لي ممازحًا، وهو يعطيني إياه: «غلوك يا عزيزي، غلوك.» فتجمدتُ حيث أنا، والتمعتْ بذهني صورة من سواد ودم، وما لبثت أن تلاشت. لم ألاحقها، لقد مر وقت طويل. أخذت المسدس بإصبعين، وكأنه ساخن. أضاف تايريز قائلًا: «مسدس الأبطال.»

كنت على وشك أن أرفض المسدس، ولكن ذلك سيكون غباء. كنت مشتبهًا به في جريمتي قتل، وقد اعتديت على شرطي، وقاومت اعتقالي، وعرقلت سير العدالة. ما قيمة تهمة حيازة سلاح غير قانوني فوق ذلك كله؟

قال تايريز: «إنه ملقم.»

– هل من وسيلة للأمان فيه؟

– لم يعد فيه ذلك.

قلت: «أوه.» قلبت المسدس في يدي ببطء مرات عدة. وتذكرت آخر مرة حملت فيها مسدسًا. إنه لشعور جيد أن أحمل مسدسًا من جديد. ربما بسبب وزنه. راقني ملمسه، وبرودة الفولاذ، وتكيف شكله مع كفي. لكن لم يرقني أنني أحببتُ الإحساس بالمسدس.

أعطاني شيئًا يشبه هاتفًا خلويًا، وقال لي:

– خذ هذا أيضًا.

– ما هذا؟

twitter @baghdad_library

عبس تايريز، وسألني:

– ماذا يبدو لك؟ إنه هاتف محمول، ولكنّ فيه رقمًا مسروقًا، لا يمكنهم العثور عليك بواسطته.

أومأت برأسي، وقد شعرت بأنني خارج عنصري الطبيعي.

قال لي تايريز وهو يشير إلى يميني:

– خلف ذلك الباب حمام. لا دش فيه بل حوض استحمام. إغتسل لتزيل عن نفسك رائحتك الكريهة. سأحضر لك بعض الملابس النظيفة، ومن ثم سنأخذك، بروتوس وأنا، إلى واشنطن سكوير.

– قلت إنك تريد أن تحدثني في أمر آخر.

– سنتحادث بعد أن تغير ملابسك.

27

حدق إريك وو إلى الشجرة المنبسطة الأغصان. كان وجهه هادئًا، وقد مالت ذقنه قليلًا إلى الأمام.

– إريك؟

كان ذلك صوت لاري غاندل.

لم يلتفت وو، فسأله غاندل:

– هل تعرف ما اسم هذه الشجرة؟

– لا.

– شجرة دردار الجلاد.

– اسم فاتن.

إبتسم وو، وتابع غاندل يقول:

– يعتقد بعض المؤرخين أن هذه الحديقة كانت تستخدم خلال القرن الثامن عشر لتنفيذ أحكام الإعدام العلنية.

– هذا رائع يا إريك.

– أجل.

مر بهما رجلان عاريا الصدر على مزلاجيهما. وكانت موسيقى جفرسون إيربلاين تنبعث من مكبر صوت. كان متنزه واشنطن سكوير، والذي سُمي باسم جورج واشنطن طبعًا، من الأماكن التي حاولت التشبث بفترة الستينيات،

twitter @baghdad_library

على الرغم من أن قبضتها لم تنفك تنزلق. كان فيها دائمًا محتجون من أجل قضية ما، لكنهم بدوا أقرب إلى ممثلين في مسرحية تحيي الحنين إلى قضية ما، منهم إلى ثوار أصيلين. وكان فنانو الشوارع يعتلون المنبر بإتقان زائد عن الحد. وبدا وجود المشردين الفولكلوري مبالغًا به بعض الشيء.

سأل غاندل: «هل أنت متأكد من أن هذا المكان مغطى تمامًا؟»

أومأ وو برأسه، وهو لا يزال في مواجهة الشجرة، وقال: «ستة رجال بالإضافة إلى الرجلين في الشاحنة.»

نظر غاندل خلفه. كانت الشاحنة بيضاء اللون، وتحمل لافتة مغنطيسية كتب عليها «دهانات بي أند تي»، مرفقة برقم هاتف ورسم ظريف لرجل يشبه إلى حدّ كبير الرجل في لعبة المونوبولي، ويحمل سلمًا وفرشاة للطلاء. وإذا ما سُئل الشهود ما أوصاف الشاحنة، فلن يتذكروا سوى اسم شركة الدهانات، وربما رقم الهاتف.

وكلاهما وهمي لا وجود له.

كانت الشاحنة مركونة على خط ثانٍ، بصورة مخالفة. فالشاحنة التي تتوقف بشكل قانوني في مانهاتن، هي أكثر إثارة للشكوك من تلك التي تتوقف على خط ثانٍ. ومع ذلك كان شاغلوها حذرين. فإذا ما اقترب منهم شرطي، يبتعدون بالشاحنة إلى موقف في شارع لافاييت، حيث يغيرون لوحتَي التسجيل واللافتة المغاطيسية، ثم يعودون إلى المكان.

قال وو: «ربما عليك العودة إلى الشاحنة.»

– أتظن أن بِكْ سينجح في الوصول إلى هنا؟

– أشك في ذلك.

– خيل إلي أن اعتقاله سيدفعها إلى الخروج. لكنني لم أتخيل أنهما سيضربان موعدًا للقاء.

كان أحد مخبريهم، وهو الرجل الأجعد الشعر ذو الكنزة الرياضية في مقهى كينكوز ليلة البارحة، قد شاهد الرسالة تظهر في كمبيوتر المقهى. وحين نقل الرسالة، كان وو قد زرع الأدلة في منزل بِكْ.

غير مهم، سينجح الأمر.

قال غاندل:

– علينا القبض على كليهما، لكنها هي أولويتنا. وإذا ساءت الأمور، نقتلهما. لكن الأفضل أن نقبض عليهما حيين فنكتشف ما يعرفان.

لم يجب وو، بل ظل يحدق إلى الشجرة.

– إريك؟

– شنقوا أمي على شجرة كهذه.

حار غاندل جوابًا، فاكتفى بكلمة «آسف.»

تابع وو يقول:

– ظنوها جاسوسة. جردها ستة رجال من ملابسها، وجلدوها بالسياط لساعات، على جسدها كله. حتى لحم وجهها تمزق. لكنها حافظت على وعيها طوال الوقت، وظلت تصرخ. قضت وقت طويلًا قبل أن تموت.

قال غاندل بصوت رقيق: «يا إلهي.» ثم استأنف وو: «حين انتهوا، شنقوها على شجرة ضخمة.» وأشار إلى دردار الجلاد، قبل أن يتابع قائلًا: «شجرة كهذه. أرادوا منها أن تكون عبرة لئلا يجرؤ أحد على التجسس. لكن الطيور والحيوانات تمكنت من جثتها. وبعد يومين، لم يبقَ على الشجرة سوى عظام.»

أعاد وو سماعتي مشغلة الموسيقى إلى أذنيه، وابتعد عن الشجرة، ثم قال لغاندل: «عليك أن تتوارى عن الأنظار.»

عانى لاري صعوبة في إبعاد عينيه عن شجرة الدردار الضخمة، ومع ذلك فقد وافق وسار مبتعدًا.

twitter @baghdad_library

28

إرتديت سروال جينز أسود اللون، محيط خصره أشبه بمحيط إطار عجلة شاحنة، فطويت الفائض منه وشددت الحزام. وبدا عليّ القميص الأسود لفريق وايت سوكس كالفستان. أما قبعة البايسبول السوداء، والتي تحمل شعارًا لم أعرفه، فكانت ذات مقدمة مكسورة. وكذلك أعطاني تايريز نظارة شمسية أنيقة كالتي يفضلها بروتوس.

كادت ضحكة تفلت من تايريز لدى خروجي من الحمام، وقال لي:

– مظهرك جيد يا دوك.

– أعتقد أن الكلمة التي تبحث عنها هي «رائع».

ضحك ضحكة خافتة وهز رأسه، معلقًا: «يا للبيض.» ثم عاد إلى جديته. ومد إلي كدسة من الأوراق المشبوكة بالدباسة. أخذتها وقرأت عليها عنوان: «الوصية والرغبات الأخيرة.» نظرت إلى تايريز متسائلًا، فأجاب:

– هذا ما كنت أنوي التحدث معك في شأنه.

– في شأن وصيتك؟

– ما زال لدي عامان آخران بحسب خطتي.

– أية خطة؟

– سأواصل ما أفعل لمدة عامين آخرين، فأجمع ما يكفي من المال لإخراج تي جاي من هنا. أعتقد أن نسبة نجاحي هي ستون إلى أربعين في المئة.

– النجاح فيمَ؟

نظر تايريز في عينيّ، وأجاب: «أنت تعرف.»

كنت فعلًا أعرف. يعني البقاء حيًا. سألته: «أين ستذهب؟»

أعطاني بطاقة بريدية، عليها صورة شمس ومياه زرقاء وأشجار نخيل، تجعدت لكثرة ما تداولتها الأيدي. وقال بصوت رقيق: «إلى فلوريدا، جنوبًا. أعرف هذا المكان. إنه هادئ، وفيه حوض سباحة ومدارس جيدة. لا أحد هناك سيتساءل من أين لي أموالي، هل تفهم ما أقول؟»

أعدت إليه الصورة، وقلت له: «لا أفهم ما علي فعله في هذا الشأن.»

رفع الصورة وقال: «هذه هي الخطة إذا تحققت الستون بالمئة.» ثم أشار إلى الوصية وأضاف: «وهذه هي الخطة إذا تحققت الأربعون.»

قلت له إنني لم أفهم بعد. فتابع:

– ذهبت منذ ستة أشهر إلى وسط المدينة، تعلم ما أقول، ووجدتُ لي محاميًا مشهورًا، كلفني لقاؤه ساعتين ألفَي دولار. إسمه جويل ماركوس. إذا مت، عليك أن تذهب لرؤيته، فقد عينتك منفذًا لوصيتي. لدي بعض الوثائق في خزنة، سترشدك إلى مكان الأموال.

– لماذا اخترتني أنا؟

– لأنك تبالي بابني.

– ولاتيشا؟

قال ساخرًا:

– إنها امرأة يا دوك. بمجرد أن أموت، ستبحث عن رجل آخر، أتفهم ما أقول؟ وربما تنجب طفلًا جديدًا، أو تعود إلى المخدرات.

إستوى في كرسيه، وطوى ذراعيه قائلًا:

– لا يمكن الوثوق بالنساء يا دوك، لا شك بأنك تدرك هذا.

– إنها والدة تي جاي.

– صحيح.

– وهي تحبه.

– نعم، أعلم ذلك. ولكنها مجرد امرأة، هل تفهم ما أقول؟ إن أعطيتها مبلغًا كهذا، ستنفقه في يوم واحد. لهذا السبب أنشأت صندوق ائتمان، وما

twitter @baghdad_library

إلى ذلك. أنت منفذ الوصية. إذا أرادت مالًا من أجل تي جاي، لا تناله إلا بموافقتكما، أنت وجويل ماركوس.

رغبت في الاحتجاج بالقول إن في سلوكه تحيزًا ذكوريًا، وإنه يفكر كالرجل البدائي، ولكن الوقت لم يكن مناسبًا لذلك. تحركت فوق كرسي ونظرت إلى تايريز. يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، ربما. وسبق لي أن رأيت الكثيرين أمثاله، ممن جمعتُهم دائمًا في إطار واحد، مغيبًا وجوههم في كتلة مظلمة واحدة دعوتها «الأشرار».

– تايريز؟

نظر إلي.

– إرحل الآن.

لكنه عبس.

– إستخدم الأموال التي لديك. إبحث عن عمل في فلوريدا. يمكنني أن أقرضك مالًا أكثر إن احتجت إليه. لكن خذ عائلتك وارحل الآن.

هز رأسه.

– تايريز؟

وقف وقال: «هيا بنا، من الأفضل أن نذهب.»

– ما زلنا نبحث عنه.

كان لانس فين يغلي غضبًا، ووجهه الشمعي على وشك الذوبان. وكان ديمونتي يعلك، وكرينسكي يدون الملاحظات، وستون يرفع سرواله.

بدا كارلسون مشوش الذهن، وانحنى فوق فاكس ورد إليه في السيارة.

قال لانس فين بانفعال: «ماذا عن الرصاص؟»

إكتفى الشرطي ذو الهندام الرسمي – والذي لم يكلف كارلسون نفسه عناء الاستفسار عن اسمه – برفع كتفيه، وأجاب:

– لا أحد يعلم شيئًا. أظن أن ما من صلة بين الأمرين.

صاح فين:

– ما من صلة؟ أي أحمق غير كفء أنت يا بيني؟ كانوا يركضون في الشارع ويصرخون بأنه رجل أبيض.

– حسنًا، لا أحد يعلم شيئًا حتى اللحظة.

قال فين:

– إضغطوا عليهم. إضغطوا عليهم بقوة. كيف لرجل مثله أن يهرب؟

– سنقبض عليه.

ربت ستون على كتف كارلسون، وسأله: «ما الأمر، يا نيك؟»

نظر كارلسون إلى الورقة عابسًا، ولم يتكلم. لقد كان رجلًا أنيقًا، ومنظمًا إلى حدّ الهوس الإكراهي. يبالغ في غسل يديه، وغالبًا ما يقفل بابه ثم يفتحه نحو عشر مرات قبل مغادرة منزله. واصل النظر إلى الورقة لأن فيها أمرًا مثيرًا للريبة.

– نيك؟

إستدار كارلسون نحو ستون وسأله:

– المسدس عيار 38 والذي وجدناه في خزنة سارة غودهارت.

– الخزنة التي وجدنا مفتاحها على الجثة؟

– صحيح.

– ما به؟

أجاب كارلسون وهو لا يزال عابسًا:

– توجد ثغرات كثيرة هنا.

– ثغرات؟

– أوّلًا، نحن نفترض أن خزنة سارة غودهارت هي لإليزابيت بِكْ، صحيح؟

– صحيح.

تابع كارلسون ملاحظًا:

– لكن أحدهم دفع قيمة الإيجار السنوي للخزنة طوال السنوات الثماني الماضية. إليزابيت بِكْ ميتة، والأموات لا يدفعون الفواتير.

– لعله كان والدها. أظنه يعرف أكثر مما يبوح به.

لم يحب كارلسون ذلك، وأضاف:

twitter @baghdad_library

– ماذا عن أجهزة التنصت التي وجدناها في منزل بِكْ؟ ما تفسير ذلك؟

أجاب ستون وهو يرفع كتفيه:

– لا أعلم، ربما اشتبه به شخص آخر في الشرطة.

– كنا لنعلم بذلك. وأيضًا هذا التقرير عن المسدس، من عيار 38 الذي وجدناه في الخزنة – وأشار إليه – هل رأيت تقرير مكتب الكحول والتبغ والأسلحة النارية؟

– لا.

– «مانع الرصاص» لم يقدم لنا أي تفسير. لكن هذا غير مفاجئ، لأن بياناته لا تعود ثماني سنوات إلى الوراء.

«مانع الرصاص» هو كناية عن وحدة تحليل للمقذوفات، يستخدمها مكتب الكحول والتبغ والأسلحة النارية، للربط بين المعلومات المتعلقة بالجرائم السابقة وبين الأسلحة النارية المكتشفة حديثًا.

تابع كارلسون يقول:

– ولكن المركز الوطني لتعقب المعلومات توصل إلى نتيجة. إحزر من كان آخر مالك مسجل للمسدس.

أعطى ستون الورقة، فبحث فيها عن الاسم ووجده. قال:

– ستيفن بِكْ؟

– والد دايفيد بِكْ.

– إنه ميت، أليس كذلك؟

– بلى.

أعاد ستون الورقة إليه، وقال:

– لعل ابنه ورث مسدسه. إنه مسدس بِكْ.

– لماذا إذًا تخفيه زوجته في خزنة مع تلك الصور؟

فكر ستون في الأمر لبرهة وأجاب: «لربما كانت تخشى أن يحاول قتلها به.»

إزداد وجه كارلسون عبوسًا، وقال:

– ثمة ما لا نعرفه.

– إسمع يا نيك، دعنا لا نعقد الأمر أكثر مما هو عليه. أثبتنا تورط بِكْ في قتل ريبيكا شايس. وهذا سليم تمامًا. لننسَ أمر إليزابيت بِكْ، اتفقنا؟

نظر إليه كارلسون وسأله : «لننسَ أمرها؟»

تنحنح ستون وبسط كفيه وقال:

– لنكن واقعيين. إثبات التهمة على بِكْ في جريمة شايس أمر سهل. ولكن جريمة قتل زوجته... بربك! هذه القضية تعود إلى ثماني سنوات. صحيح أن لدينا بعض المعطيات، ولكنها ليست بالكافية للنيل منه. ربما فات الأوان.

أضاف وهو يرفع كتفيه بطريقة دراماتيكية مبالغ فيها:

– ربما من الأفضل ترك المياه الراكدة وحالها.

– عمّ تتحدث؟

إقترب ستون وأشار إلى كارلسون كي ينحني، وأجاب:

– بعضهم في مكتب التحقيق الفدرالي يفضل لو أننا لم نُثر هذه المسألة.

– مَن لا يريدنا أن نثير ماذا؟

– ليس الأمر بذي أهمية يا نيك. جميعنا في صف واحد، أليس كذلك؟ إن وجدنا بأن روي السفاح لم يقتل إليزابيت بِكْ، فسيثير هذا بوجهنا الكثير من المشاكل، صحيح؟ وقد يطلب محاميه إعادة محاكمته...

– لم يحاكموه قط في جريمة قتل إليزابيت بِكْ.

– ولكننا اعتبرناها إحدى جرائم روي السفاح. إثارة القضية مجددًا ستثير الشكوك. الأمر أنظف كما هو عليه الآن.

قال كارلسون:

– لا أريد أمرًا نظيفًا. أريد الحقيقة.

– كلنا نريد ذلك يا نيك، ولكننا نريد العدالة قبل كل شيء. سيُحكم على بِكْ بالحبس المؤبد لقتل ريبيكا شايس. ويبقى روي السفاح في السجن. هذا ما يجب أن يكون.

– ثمة ثغرات، يا توم.

twitter @baghdad_library

– أنت لا تنفك تقول هذا، ولكنني لا أرى ثغرات. أنت كنت أول من اشتبه بأن بِكْ هو قاتل زوجته.

– تمامًا، قاتل زوجته، لا ريبيكا شايس.

– لا أفهم ما تعني.

– ثمة خطب في جريمة قتل شايس.

– هل تمزح؟ إنها تجعل القضية أقوى. كانت شايس تعرف شيئًا ما، وحين بدأنا نقترب من الحقيقة، اضطر بِكْ إلى إسكاتها.

عاد العبوس إلى وجه كارلسون. فتابع ستون يقول:

– ماذا؟ هل تعتقد بأن زيارة بِكْ إلى ستوديو ريبيكا أمس، مباشرة بعدما شددنا الضغط عليه، كانت مجرد صدفة؟

– لا.

– ماذا إذًا يا نيك؟ ألا ترى؟ الخيوط تتلاقى بشكل كامل تمامًا.

قال كارلسون:

– إلى حدّ مبالغ فيه.

– دعك من هذا الهراء.

– دعني أسألك أمرًا يا توم. بأية براعة خطط بِكْ لجريمة قتل زوجته ونفذها؟

– بمنتهى البراعة.

– تمامًا. قتل الشاهدين، وتخلص من جثتيهما، ولولا الأمطار والدب لما عثرنا على شيء أبدًا. ولنكن واقعيين، حتى مع ذلك، ما زلنا لا نملك أدلة كافية لاتهامه، ناهيك عن إدانته.

– إذًا؟

– إذًا لماذا أصبح بِكْ فجأة بهذا القدر من الغباء؟ هو يعلم أننا نطارده، ويعلم أن مساعد شايس سيشهد على أنه قابل ريبيكا يوم الجريمة. فلماذا يكون غبيًا إلى حدّ أن يخفي المسدس في مرأبه؟ لماذا يكون غبيًا إلى حدّ أن يترك القفازين في مستوعب نفايات منزله؟

قال ستون:

– الإجابة سهلة، كان على عجلة من أمره هذه المرة. مع زوجته، كان لديه متسع من الوقت للتخطيط للجريمة.

– هل رأيت هذا؟

وأعطى كارلسون ستون تقرير المراقبة، ثم أضاف:

– زار بِكْ الطبيب الشرعي هذا الصباح، لماذا؟

– لا أعرف. لعله أراد أن يعرف ما إذا كان في ملف تشريح الجثة ما قد يدينه.

عاد وجه كارلسون إلى العبوس من جديد. وكان يشعر برغبة ملحة في غسل يديه، وأضاف:

– ثمة ما لا ندركه يا توم.

– لا أرى ذلك، ولكن علينا القبض عليه في شتى الأحوال. وبعد ذلك يمكننا توضيح كل الأمور، اتفقنا؟

توجه ستون نحو فين، فيما بقي كارلسون مستغرقًا في شكوكه. فكر مرة أخرى في زيارة بِكْ لمكتب الطبيب الشرعي. ثم أخرج هاتفه ومسحه بمنديل، وطلب رقمًا. وحين أجابه شخص ما، قال له: «أريد التحدث مع الطبيب الشرعي لمقاطعة ساسكس.»

twitter @baghdad_library

29

في الماضي، أي منذ عشرة أعوام، كان لها أصدقاء يقيمون في فندق تشيلسي في الشارع الغربي الثالث والعشرين. كان نصف الفندق للسياح ونصفه الآخر للمقيمين، كما كان غريبًا عن كل محيطه. فقد توافد إليه فنانون، وكتاب، وطلاب، ومدمني ميثادون، من كل مشرب وانتماء. وظهرت فيه الأظافر السوداء، وطلاء الوجه القوطي الأبيض، وأحمر الشفاه بلون الدم، والشعر المستقيم كالعصي، قبل أن يصبح ذلك موضة رائجة.

لم يتغير ذلك كثيرًا. كان الفندق مكانًا جيدًا لمن يريد أن يبقى مجهولًا.

بعد شراء شريحة بيتزا من مطعم في الجهة المقابلة من الشارع، استأجرت لها غرفة ولم تغادرها. نيويورك. قالت عنها ذات مرة إنها مدينتها، لكن هذه هي زيارتها الثانية لها منذ أكثر من ثماني سنوات.

لقد اشتاقت إليها.

بحركة متمرسة واحدة من يدها، أعادت لم شعرها تحت غطاء الشعر المستعار، وقد اختارت له اليوم لونًا أشقر بجذور داكنة. ووضعت على عينيها نظارة ذات إطار سلكي، وأدخلت طاقم أسنان اصطناعية في فمها، فغير ذلك شكل وجهها.

كانت يداها ترتعدان.

كان على طاولة المطبخ تذكرتا سفر بالطائرة. هذه الليلة، سيستقلان طائرة الرحلة 174 للخطوط الجوية البريطانية من مطار جون كنيدي إلى مطار هيثرو في لندن، حيث تكون صِلَتها في انتظارهما، ومعها هويتان جديدتان. ثم سيتوجهان بالقطار إلى مطار غاتويك، ليسافرا منه في رحلة بعد الظهر إلى نيروبي، كينيا. وهناك، تقودهما عربة جيب إلى سفوح جبل ميرو في تانزانيا، يلي ذلك ثلاثة أيام من السير.

وحالما يصلان إلى أحد المواقع القليلة على الأرض، حيث لا راديو ولا تلفزيون ولا كهرباء، سيكونان حرين.

كانت تذكرتا الطائرة باسمَي ليزا شرمان، ودايفيد بِكْ.

رتبت شعرها المستعار من جديد، ونظرت في المرآة، فزاغت عيناها، وعادت لبرهة إلى البحيرة. إشتعلت في صدرها شرارة الأمل، ولأول مرة لم تفعل شيئًا لإخمادها. إبتسمت وغادرت الغرفة.

إستقلت المصعد إلى الردهة وخرجت لتنعطف إلى الشارع الثالث والعشرين.

كان متنزه واشنطن سكوير بارك على مسافة مشوار جميل من ذلك الشارع.

أوصلني تايريز وبروتوس إلى تقاطع الشارع الغربي الرابع وشوارع لافاييت، على مسافة ثلاثة أو أربعة مربعات شرق المتنزه. كنت أعرف المنطقة جيدًا، فقد سبق أن تقاسمت إليزابيت وريبيكا شقة في واشنطن سكوير. كانتا سعيدتين بشعورهما بأنهما طليعيتان في شقتهما في ويست فيلاج: المصورة الفوتوغرافية والمحامية – الناشطة الاجتماعية، الحالمتان بحياة بوهيمية وسط أبناء المدينة الذين نشأوا مثلهما في الضواحي، وكانوا ذوي طموح كبير و«ثوار صناديق ائتمان». بصراحة لم ينطلِ الأمر علي، ولكن لا بأس.

آنذاك، كنت أدرس في كلية الطب في جامعة كولومبيا، وأقطن شمال المدينة في جادة هايفن بقرب المستشفى الذي يُعرف الآن باسم مستشفى نيويورك المَشْيَخي. ولكنني أمضيت طبعًا الكثير من الوقت هنا.

twitter @baghdad_library

كانت تلك سنوات جيدة.

نصف ساعة حتى موعد اللقاء.

سرت عبر الشاع الغربي الرابع، متجاوزًا مبنى «تسجيلات البرج»، لأدخل منطقة من المدينة تشغل جامعة نيويورك قسمًا كبيرًا منها. لا شك بأن جامعة نيويورك أرادت أن يكون هذا الأمر معروفًا، فقد أعلنت ملكيتها لهذه الأرض عبر أعلام زرعتها في كل مكان، وتحمل شعار الجامعة البنفسجي الصارخ. كانت تلك الأعلام القبيحة تملأ المكان، فتتميز للعيان عن اللون القرميدي الداكن لغرينويتش فيلاج. كانت تلك نزعة تملكية وتوسعية أيضًا، في منطقة صغيرة تعتبر ليبرالية. ولكن تلك هي الحال.

كان قلبي يخفق بعنف وكأنه يحاول الخروج من صدري.

ألعلها وصلت؟

لم أركض. حافظت على هدوئي، وحاولت عدم التفكير في ما ستحمله الساعة المقبلة. كانت جروح محنتي الأخيرة في مرحلة وسطى بين الإحساس بالحريق والاستحكاك. رأيت انعكاس صورتي في نافذة مبنى، ولاحظت أنني سخيف جدًا في ملابسي المستعارة التي لا تلائم سوى فتيان الغيتوهات السود.

كان سروالي لا ينفك ينزلق، فرفعته بيد واحدة وحاولت المحافظة على وتيرة سيري.

لعل إليزابيت في المتنزه الآن.

ظهرت الساحة أمامي، لا تبعد زاويتها الجنوبية الغربية سوى مسافة مربع واحد. بدا أن في الجو اضطرابًا، كإنذار عاصفة، لكن ذلك ربما لم يكن سوى نتاج مخيلتي الجامحة. أبقيت رأسي منخفضًا. هل وصلت صورتي إلى محطات التلفزيون؟ هل أوقف المقدمون برامجهم لتوجيه نداء إلى مَن يشاهدني للإبلاغ عني؟ شككتُ في ذلك، لكن عينيّ لازمتا أسفلت الطريق.

حثثت الخطى. لطالما بدت لي ساحة واشنطن سكوير مكتظة في أشهر الصيف. هذا الغليان الذي تشهده تلك الساحة، والأحداث الكثيرة التي تجري فيها، بدت لي مبالغًا بها دائمًا. كنت أدعو ذلك «ميزة اصطناعية.» كانت بقعتي المفضلة هي حيث ذلك التجمع البشري الكبير بقرب طاولات

الألعاب الإسمنتية. لعبتُ الشطرنج هناك أحيانًا، وكنت بارعًا فيها. ولكن الشطرنج كان في هذه الحديقة وسيلة ممتازة لتحقيق التعادل الاجتماعي. فالجميع، أغنياء، وفقراء، وبيض، وسود، ومتشردون، وناجحون، ومستأجرون، وملاكون... يتآخون حول البيادق الصغيرة البيضاء والسوداء، السحيقة العهد. أفضل لاعب قابلته هنا كان رجلًا أسود أمضى معظم فترات بعد الظهر في الحقبة السابقة لإدارة العمدة جولياني، في مضايقة سائقي السيارات محاولًا الحصول على بعض القطع نقدية في مقابل تنظيف الزجاج.

لم تكن إليزابيت قد وصلت بعد.

جلستُ على مقعد.

مضت خمس عشرة دقيقة أخرى.

إشتد الضيق على صدري أربعة أضعاف. لم أشعر بمثل هذا الخوف طوال حياتي. فكرت في عرض شونا التكنولوجي. خدعة؟ تساءلتُ مجددًا: ماذا لو أن الأمر كله مجرد خدعة؟ ماذا لو أن إليزابيت ماتت فعلًا؟ ماذا أفعل آنذاك؟

قلت لنفسي إنها تكهنات غير مجدية، ومضيعة للطاقة.

لا بد من أنها حية. لا خيار آخر.

جلستُ، وانتظرت.

قال إريك وو بهاتفه الخلوي: «إنه هنا.»

نظر لاري غاندل عبر النافذة الداكنة للشاحنة. كان دايفيد بِكْ فعلًا حيث يُفترض به أن يكون، وهو في ملابس رعاع الأزقة، كما كانت الخدوش والكدمات تغطي وجهه بالكامل.

هز غاندل رأسه، وقال متعجّبًا: «يا للجحيم، كيف نجا؟»

قال إريك وو بصوته المدندن: «يمكننا دائمًا أن نسأله.»

– يجب أن يتم هذا الأمر بسلاسة، يا إريك.

– بالتأكيد.

– هل الجميع في أماكنهم؟

– طبعًا.

twitter @baghdad_library

نظر غاندل إلى ساعته، وقال: «يجب أن تصل بين دقيقة وأخرى.»

كان البناء الأكثر لفتًا للأنظار في واشنطن سكوير، والواقع بين شارعي سوليفان وتومسون، عبارة عن برج عالٍ من الحجارة ذات اللون البني الباهت، في الجانب الجنوبي من المتنزه. يعتقد غالبية الناس أن البرج لا يزال جزءًا من كنيسة جادسون التذكارية. ولكنه ليس كذلك. فخلال العقدين الماضيين، كان البرج مقرا لمهاجع الطلاب ولمكاتب جامعة نيويورك. وكان بلوغ قمة البرج سهلًا على كل من يبدو عليه أنه يعرف طريقه، وهذا ما فعلتْه.

من الأعلى، كان بإمكانها أن ترى المتنزه كله. وعندما فعلت، بدأت تبكي.

لقد أتى بِكْ. كان متنكرًا بطريقة غريبة، ربما بسبب الرسالة الإلكترونية التي حذرته من أنهم قد يلاحقونه. رأته جالسًا على المقعد وحده، ينتظر، وساقه اليمنى تهتز صعودًا وهبوطًا. هذا شأنه دائمًا حين يكون متوترًا.

– آه يا بِكْ...

كان صوتها مطبوعًا بالألم والعذاب المرير. واصلت التحديق إليه.

ما الذي فعلته؟

يا لغبائها.

أجبرت نفسها على الابتعاد. خانتها ساقاها، وانزلقت وظهرها إلى الجدار حتى وصلت إلى الأرض. لقد أتى بِكْ من أجلها.

ولكنهم أتوا أيضًا من أجلها.

كانت متأكدة من ذلك، فقد لمحت ثلاثة منهم على الأقل. ربما أكثر. ولمحت أيضًا عربة «دهانات بي أند تي». طلبت رقم الهاتف المكتوب على لافتة الشاحنة، ولكنه كان خارج الخدمة. إستفسرت عنه في دليل الهاتف، فلم يكن هناك أي شركة باسم «دهانات بي أند تي».

لقد عثروا عليهما. على الرغم من كل احتياطاتها، كانوا هناك.

أغمضت عينيها بألم. غبية. كم كانت غبية. خُيل إليها أنها قد تنجح. كيف سمحت بأن يحدث ذلك؟ أعمت اللهفة حسن تقديرها للأمور. لقد

أدركت ذلك الآن. خدعت نفسها بطريقة أو بأخرى، معتقدة أن بوسعها تحويل كارثة اكتشاف الجثتين عند البحيرة إلى هدية رائعة من القدر.

غبية.

جلست وخاطرت بنظرة أخرى باتجاه بِكْ. شعرت بأن فكي كماشة يعتصران قلبها. كان يبدو وحيدًا جدًا هناك، وصغيرًا، وضعيفًا، وعاجزًا. هل تقبّل بِكْ فكرة موتها؟ ربما. هل تجاوز الصدمة وبنى حياته مجددًا؟ أيضًا ربما. هل أفاق من أثر تلك الضربة، لكي يسدد له غباؤها ضربة هائلة أخرى؟

حتمًا.

عادت إليها الدموع.

أخرجت تذكرتَي الطائرة. الاستعداد. كان الاستعداد دائمًا سر بقائها. الاستعداد لكل احتمال. لهذا خططت للقائهما هنا، في متنزه عام تعرفه جيدًا، وهو أمر في مصلحتها. لم تعترف بالأمر لنفسها، لكنها كانت تعلم أن هذه الإمكانية – لا، هذا الاحتمال – لم يكونا مستبعدَين.

إنتهى الأمر.

الكوة الصغيرة، هذا إن وُجدت فعلًا في أي وقت من الأوقات، قد أُغلِقت بقوة.

حان وقت الذهاب. بمفردها. وهذه المرة نهائيًا.

تساءلت كيف ستكون ردة فعله على عدم حضورها. هل سيواصل البحث في كمبيوتره عن رسائل إلكترونية لن تصل أبدًا؟ هل سيتفحص وجوه الغرباء ويتخيل بأنه يرى وجهها. هل سينسى كل شيء ويمضي قُدُمًا؟ وإذا أرادت أن تكون صادقة مع نفسها، هل حقًا كانت تريده أن يفعل ذلك؟

ليس الأمر بذي أهمية. البقاء أوّلًا. بقاؤه هو، بأية حال. ما من خيار أمامها. عليها أن ترحل.

سلخت نظراتها عنه بصعوبة بالغة وأسرعت تنزل الدرج. كان هناك مخرج خلفي يفضي إلى الشارع الغربي الثالث، فلم تكن حتى في حاجة إلى دخول المتنزه. دفعت الباب المعدني الثقيل وخرجت. وفي شارع سوليفان، وجدت سيارة أجرة على زاوية بليكر.

twitter @baghdad_library

إسترخت في مقعدها وأغمضت عينيها.

سألها السائق: «إلى أين؟»

قالت: «إلى مطار جون كينيدي.»

30

مر وقت طويل جدًا.

بقيت جالسًا على المقعد، أنتظر. كان بوسعي أن أرى في البعيد قوس النصر الرخامي الشهير في المتنزه. يُقال إن مَن صمم ذلك القوس كان ستانفورد وايت، المهندس المعماري الشهير في بداية القرن العشرين، والذي قتله، بدافع الغيرة، رجل نافسه على حب فتاة شابة. لم أفهم هذا. كيف يمكن تصميم شيء ليس إلا نسخة عن عمل شخص آخر؟ لم تكن حقيقة كون قوس النصر في واشنطن نقلًا تاما لقوس النصر في باريس سرًا على أحد. كان سكان نيويورك يشعرون بحماسة كبيرة لشيء هو في الحقيقة مجرد عمل منقول. ولم أدرِ لماذا.

بات لمس القوس محظورًا، فقد طُوق بسياج شبكي شبيه بما شاهدته منذ قليل في جنوب برونكس، لردع فناني الجدران. كانت السياجات تملأ المتنزه، فكل مروجه المعشبة أحاط بها سياج، وفي أكثر الأماكن، سياج مزدوج.

أين كانت؟

كانت طيور الحمام تتبختر بشيء من التملكية التي يوصف بها السياسيون عادة. تدفق الكثير منها ناحيتي، وراحت تنقر حذائي الرياضي، قبل أن ترفع رؤوسها خائبة لأنه غير صالح للأكل.

– تاي يجلس هنا عادة.

twitter @baghdad_library

كان صاحب الصوت متشردًا جلس قبالتي، ويعتمر قبعة تعلوها شفرتان دوارتان، وله أذنان كأذني سبوك في أفلام ستارترك.

قلت: «أوه.»

– إنه يطعمها، وهي تحب تاي.

قلت مجددًا: «تاي.»

– لهذا تجمعت حولك. ليس لأنها أحبتك، لعلها تظنك تاي أو صديقًا له.

– آه هه.

نظرت إلى ساعة يدي. لقد مضى على جلوسي هنا ما يقارب الساعتين. لن تأتي. لا بد من أن خطبًا قد وقع. من جديد، تساءلت عما إذا كان هذا كله مجرد خدعة. ولكني سرعان ما طردت الفكرة من رأسي. من الأفضل أن أواصل الافتراض أن تلك الرسائل كانت حقًا من إليزابيت. إذا كان كل شيء مجرد خدعة... حسنًا، سوف أعلم ذلك في النهاية.

مهما حدث، أحبك...

هذا ما قالته الرسالة. مهما حدث. وكأن ثمة خطبًا قد يحدث. وكأن علي أن أنسى الأمر وأمضي قدمًا.

تبًا لهذا.

إنه لشعور غريب. أجل، لقد كنت محطمًا، والشرطة في أعقابي. ومنهكًا، وعلى حافة فقداني صوابي. ومع ذلك شعرتُ بقوة لم أعهدها في منذ سنوات. لا أعرف لماذا، لكنني عرفت أنني لن أستسلم أبدًا. وحدها إليزابيت كانت تعرف كل تلك الأشياء: وقت القبلة، السيدة الوطواطة، مراهقون يشعرون بالإثارة. إذًا إليزابيت هي مَن بعثت بالرسائل الإلكترونية. أو أن شخصًا ما أرغمها على إرسالها. في كلا الحالين، لقد كانت حية. وكان علي أن أتابع البحث. ما من سبيل آخر.

إذًا، ما العمل الآن؟

أخرجت هاتفي الخلوي الجديد. فركت ذقني لدقيقة، ثم خطرت ببالي فكرة. ضغطت أزرار الهاتف، ورأيت رجلًا جالسًا قبالتي يلقي نحوي نظرة، بعدما مضى عليه وقت طويل وهو يقرأ جريدة. لم يرقني ذلك. الحذر ولا الندم. فوقفتُ وابتعدتُ عن حيث يستطيع أحد سماعي.

أجابت شونا: «آلو؟»

قلت: «هاتف العجوز تيدي.»

– بِكْ؟ يا للجحيم! ماذا...

– ثلاث دقائق.

وأقفلتُ الخط. كنت واثقًا من أن هاتفَي شونا وليندا مراقَبان، وتستطيع الشرطة سماع كل كلمة نقولها. لكن عجوزًا أرملًا يُدعى ثيودور مالون، كان يقطن شقة في الطابق الواقع تحت شقتهما. وكانت شونا وليندا تتفقدانه من حين إلى آخر، وتملكان مفتاحًا لشقته. سأتصل بهما إلى هناك، حيث لا يتنصت أفراد شرطة نيويورك أو الشرطة الفدرالية إلى ذلك الهاتف. لن يستطيعوا ذلك في الوقت المناسب بأية حال.

طلبت الرقم.

قالت شونا مقطوعة الأنفاس: «آلو؟»

– أنا بحاجة إلى مساعدتك.

– أتعرف ما يجري؟

– أفترض بأن حملة كبرى شُنت لمطاردتي.

لم يفارقني شعوري الغريب بالهدوء، خارجيًا على الأقل.

– بِكْ، عليك أن تسلم نفسك.

– لم أقتل أحدًا.

– أعرف، ولكن إن بقيت فارًا...

قاطعتها قائلًا:

– هل تريدين مساعدتي أم لا؟

– قلْ.

– هل حددوا ساعة وقوع الجريمة؟

– حوالى منتصف الليل، التوقيت الذي يتحدثون عنه ضيق قليلًا، لكنهم يظنونك ذهبت بعدما غادرتُ منزلك.

– حسنًا. أريد أن أسألك خدمة.

– سلْ.

twitter @baghdad_library

– أوّلًا، عليك أن تحضري كلوي.

– كلبتك؟

– نعم.

– لماذا؟

– في البداية، لأنها تحتاج إلى نزهة.

كان إريك وو يتحدث بهاتفه الخلوي، فقال:

– إنه يتكلم بالهاتف، ولكن مخبري عاجز عن الاقتراب منه أكثر.

– هل اكتشف أمره؟

– ربما.

– إذًا لعله يلغي اللقاء.

لم يجب وو. بل راقب الدكتور بِكْ يعيد هاتفه إلى جيبه، ويبدأ باجتياز المتنزه. قال وو:

– لدينا مشكلة.

– ما هي؟

– يبدو أنه يغادر المتنزه.

صمت المتحدث على الطرف الآخر، فلبث وو ينتظر.

قال غاندل: «سبق أن أفلت من بين أيدينا.»

لم يجب وو.

– لا نستطيع أن نجازف يا إريك. أمسِك به حالًا، واكتشف ما يعرفه، ثم أنهِ الأمر.

أشار إريك برأسه ناحية الشاحنة، ثم راح يسير باتجاه بِكْ، وقال لمحدثه:

– لك ذلك.

تجاوزتُ تمثال غاريبالدي مستلًا سيفه. الغريب أنه كانت في ذهني وجهة أقصدها. لن أزور روي السفاح طبعًا، فذلك غير وارد حاليًا. ولكن صاحب الاسم الذي يبدأ بحرفي ب. ف. في مفكرة إليزابيت، أو بيتر فلانري، المحامي

الذي يطارد الأطباء المخلين بواجباتهم، فقد كان مسألة أخرى. ما زال بإمكاني أن أذهب إلى مكتبه وأتحدث إليه. لم أكن أعرف ما سأعلمه منه، ولكنني سأفعل شيئًا ما. ستكون تلك بداية.

كان إلى يميني ملعب للأطفال، ولكن مَن فيه لم يتجاوز عددهم العشرة. وإلى يساري ممر للكلاب يحمل الاسم الطنان «متنزه جورج للكلاب»، وكان مكتظًّا بكلاب تحمل ربطات مزخرفة، وبمرافقيها من البشر. على مسرح المتنزه، كان رجلان يمارسان ألعاب الخفة. مررتُ بمجموعة من الطلاب يرتدون معاطف البانشو، يجلسون في نصف دائرة. ظهر فجأة إلى يميني رجل آسيوي، ذو شعر أشقر مصبوغ، وعضلاته مفتولة كأبطال برامج الكرتون. نظرتُ خلفي، فوجدت أن قارئ الجريدة قد توارى.

أثار ذلك تساؤلي.

لقد بقي جالسًا في ذلك المكان طيلة فترة وجودي في المتنزه. والآن، بعد ساعات عدة، قرر الانصراف في الوقت عينه الذي انصرفتُ فيه. محض مصادفة؟ ربما.

ستكون ملاحقًا.

هذا ما قالته الرسالة الإلكترونية. لم تقل «ربما». بدت الكلمتان، وبعد التفكير، واثقتين جدًا. تابعت سيري ورحت أفكر في الأمر أكثر. محال. حتى أفضل متعقب في العالم لن يستطيع اللحاق بي بعد كل ما خضته اليوم.

لا يُعقل أن يكون قارئ الجريدة يتعقبني. أقله، لم يكن بإمكاني تصور ذلك.

هل اعترضوا الرسالة الإلكترونية؟

لم أرَ كيف يمكنهم فعل ذلك، فقد محوتُها، كما أنها لم تمر بكمبيوتري قط.

عبرت الجهة الغربية من ساحة واشنطن سكوير. حين وصلت إلى الرصيف، شعرت بيد أحدهم على كتفي. كانت خفيفة في البداية، كما لو أن صديقًا قديمًا تسلل خلفي لمفاجأتي. إلتفت إلى الخلف، وتسنى لي الوقت الكافي لأرى أنه الآسيوي ذو الشعر المصبوغ.

ثم أطبقتْ أنامله على كتفي.

twitter @baghdad_library

31

إخترقت أصابعه شق المفصل كرؤوس الحراب، فضربت موجة من الألم الصاعق جانبي الأيسر، وخارت ركبتاي. حاولت أن أصرخ أو أن أقاومه، لكنني كنت عاجزًا تمامًا عن الحراك. توقفت شاحنة بيضاء على مقربة منا، وانفتح بابها الجانبي. وضع الآسيوي يده على عنقي، وعصر بأصابعه نقاط الضغط من كلا الجانبين، فدارت عيناي في محجريهما. وبيده الأخرى تلاعب بعمودي الفقري، فانحنيت إلى الأمام، وأحسستُني أُطوى.

دفعني نحو الشاحنة، فامتدت أيدٍ وسحبتني إلى داخلها. سقطتُ على الأرض المعدنية الباردة. لم يكن ثمة مقاعد. أُغلق الباب، وانطلقت الشاحنة تسير بين السيارات.

ذلك كله، بدءًا بيد الرجل على كتفي وحتى عودة الشاحنة للانطلاق، لم يستغرق أكثر من خمس ثوانٍ.

فكرت في المسدس.

حاولت الوصول إليه، لكن أحدهم قفز على ظهري، وجمد يدي. سمعت صوت طقة معدنية، وقُيدت ذراعي اليمنى من المعصم بأرضية الشاحنة. قُلبت، فكادت كتفي تنخلع. كانا اثنين، بات بوسعي أن أراهما. رجلان أبيضان، لهما من العمر ثلاثون عامًا ربما. كنت أراهما بوضوح، بوضوح شديد، وبوسعي التعرف إليهما. لا بد من أن يدركا ذلك.

لم يكن هذا جيدًا.

قيدا يدي الأخرى، فرقدتُ منشور الذراعين على أرضية الشاحنة. ثم جلسا على ساقي. فبتّ مكبلًا وتحت رحمتهما تمامًا.

سألتهما: «ماذا تريدان؟»

لم يجب أحد. توقفت الشاحنة فجأة عند أحد المنعطفات، ودخلها الآسيوي الضخم، فاستأنفت سيرها. إنحنى نحوي، وراح يحدق إلي بشيء من الفضول، ثم سألني:

– لماذا كنت في المتنزه؟

فاجأتني نبرة صوته. توقعت صوتًا مزمجرًا أو مهددًا، ولكن نبرته كانت رقيقة، وحادة وطفولية، على نحو يبعث القشعريرة في البدن.

سألته: «من أنت؟»

سدد إلى معدتي لكمة، كانت من القوة لدرجة أنني تأكدت من أن مفاصل أصابعه خدشت أرضية الشاحنة. حاولت أن أنحني أو أتقوقع ككرة، لكن ذلك كان مستحيلًا بسبب قيودي والرجلين الجالسين على ساقي. هواء. كل ما أردته كان الهواء. ظننتُني سأتقيأ.

ستكون ملاحَقًا...

كل الاحتياطات: الرسائل الإلكترونية المجهولة المرسل، والكلمات المرمزة، والتحذيرات، تبدو الآن منطقية. كانت إليزابيث خائفة. لم أمتلك كل الأجوبة بعد. تبًا، لم أمتلك أيًا منها. لكنني فهمت أخيرًا أن اتصالاتها السرية كانت نتيجة للخوف من أن يعثروا عليها.

أن يعثر عليها هؤلاء الرجال.

كنت أختنق، وراحت كل خلية في جسمي تطالب بالأكسجين. وأخيرًا، أومأ الآسيوي إلى الرجلين الآخرين، فنهضا عن ساقي. ثنيت ركبتي نحو صدري، وحاولت استنشاق بعض الهواء، متخبطًا كمن يعاني نوبة صرع. بعد قليل، استعدت تنفسي. ركع الآسيوي بجانبي ببطء. لم أبعد عينيّ عن عينيه، أو على الأقل، حاولت ألا أبعدهما. لم يكن ذلك يشبه التحديق في عيني إنسان آخر، أو حتى في عيني حيوان. لم تكن

twitter @baghdad_library

له عينا كائن حي. لو أن لخزانة الملفات عينين، لكان هذا شعور المرء بالنظر إليهما.

لكنني لم أطرف.

كان خاطفي شابًّا، ولا يتجاوز الخامسة والعشرين في أقصى حد. وضع يده على الجهة الداخلية لذراعي، فوق المرفق تمامًا، وسألني مجددًا بصوته المدندن:

– لماذا كنت في المتنزه؟

قلت له: «أحب المتنزه.»

ضغط إلى الأسفل بقوة، بإصبعين فقط، فشهقتُ. إخترقت أصبعاه لحمي وبلغتا كتلة من الأعصاب، فبدأت عيناي تجحظان. لم أعرف ألمًا كهذا قط. عطل الألم كل إحساس آخر. ورحت أتخبط كسمكة تلفظ أنفاسها على صنارة. حاولت أن أركل، ولكن ساقي سقطتا كرباطين مطاطيين، وكنت عاجزًا عن التنفس.

لم يفلتني.

كنت أتوقع منه أن يحرر ذراعي من قبضته، أو يخفف الضغط قليلًا، ولكنه لم يفعل. بدأت أصدر أنينًا خفيضًا متقطعًا، ولكنه واصل الضغط، وتعبيره ينم عن الملل.

تابعت الشاحنة سيرها. حاولت أن أتخلص من الألم، أن أقسمه إلى فترات متقطعة، بدون جدوى. كنت بحاجة إلى استراحة، لثانية واحدة فقط. كنت بحاجة إلى أن يفلت ذراعي، ولكنه بقي كحجر، وواصل النظر إلي بعينيه الفارغتين. كان الضغط يتصاعد في رأسي، وعجزت عن الكلام. حتى لو أردت إخباره ما أراد معرفته، إلا أن حلقي انغلق. وكان يعرف ذلك.

النجاة من الألم. هذا كل ما أمكنني التفكير فيه. لكن كيف أنجو من الألم؟ بدا أن كياني كله تركز على كتلة الأعصاب في ذراعي. شعرتُ بجسدي يحترق، وتزايد الضغط في جمجمتي.

قبل ثوانٍ من انفجار دماغي، أزال قبضته فجأة. شهقت مجددًا، وهذه المرة كانت شهقة ارتياح. لكنه كان ارتياحًا قصير الأمد، فقد انزلقت يده حتى أسفل صدري وتوقفت هناك.

– لماذا كنت في المتنزه؟

حاولت التفكير، واختلاق كذبة مقبولة. ولكنه لم يمنحني الوقت لذلك. بل قرصني في العمق، وعاد الألم، أسوأ من ذي قبل. إخترقت إصبعه كبدي كحربة، فتخبطت في قيودي، وانفتح فمي في صرخة صامتة.

رحت أهز رأسي بعنف إلى الأمام وإلى الخلف. وآنذاك لمحت مؤخرة رأس السائق. كانت الشاحنة قد توقفت، ربما عند إشارة المرور. وكان السائق ينظر إلى الأمام مباشرة، إلى الطريق، كما أظن. ثم حدث كل شيء بسرعة كبيرة.

شاهدت رأس السائق يستدير نحو نافذة بابه وكأنه سمع ضجيجًا. ولكن الأوان كان قد فات، فقد أصابه شيء ما في جانب جمجمته، وسقط كبطة في حقل رماية. ثم فُتح بابا الشاحنة الأماميان.

– إرفعوا أيديكم حالًا!

ظهر مسدسان، مصوبان إلى الجهة الخلفية من الشاحنة. أفلتني الآسيوي، فسقطت إلى الخلف عاجزًا عن الحركة.

رأيت خلف المسدسين وجهين مألوفين، وكدت أصرخ فرحًا.

تايريز وبروتوس.

أتى أحد الرجلين الأبيضين حركة، فما كان من تايريز إلا أن أطلق عليه النار. إنفجر صدر الرجل وسقط إلى الخلف مفتوح العينين. سقط ميتًا، لا شك في ذلك. وفي المقعد الأمامي راح السائق يئن وقد بدأ يستعيد وعيه. فسدد بروتوس إلى وجهه ضربة شديدة بمرفقه، فعاد السائق إلى صمته.

كان الرجل الأبيض الآخر رافعًا يديه. أما جلادي الآسيوي فلم تتغير تعابيره قط، بل نظر إلى ما يجري، وكأنما يفعل ذلك من مسافة بعيدة، ولم يرفع يديه أو يخفضهما. جلس بروتوس في مقعد السائق، ووضع السيارة في سرعة الانطلاق، فيما أبقى تايريز سلاحه مصوبًا نحو الرجل الآسيوي، وقال للآخر:

– فك قيوده.

نظر الرجل الأبيض إلى الآسيوي، الذي أومأ برأسه موافقًا، ففك قيودي. حاولت الجلوس، ولكنني شعرت وكأن شيئًا بداخلي تحطم، وكان حطامه ينغرز في أنسجتي.

twitter @baghdad_library

سألني تايريز: «هل أنت بخير؟»

تمكنت من الإيماء برأسي.

– أتريدني أن أقتلهما؟

نظرت إلى الرجل الأبيض الذي لا يزال يتنفس، وسألته: «مَن كلفك العمل؟»

مال الرجل الأبيض بعينيه نحو الآسيوي الشاب، وحذوت حذوه. سألته: «مَن كلفك العمل؟»

إبتسم الآسيوي أخيرًا، لكن ذلك لم يغير نظرة عينيه. وآنذاك، ومن جديد، حدث كل شيء بسرعة كبيرة.

لم أرَ يده تندفع قط، لكنني لم أشعر إلا بالآسيوي يمسك بمؤخرة عنقي، ويقذفني بدون مجهود يُذكر نحو تايريز. أحسستُني طائرًا، أركل الهواء بقدمي، وكأن ذلك قد يبطئ من سرعتي. رآني تايريز آتيًا إليه، لكنه لم يستطع الابتعاد، فسقطت عليه. حاولت النهوض بسرعة، ولكن حين وقفنا، كان الآسيوي قد خرج عبر باب الشاحنة الجانبي.

توارى تمامًا عن الأنظار.

قال تايريز: «بروس لي اللعين يتناول المنشطات.»

هززتُ برأسي.

كان السائق يتحرك مجددًا، فجهز بروتوس قبضته، لكن تايريز ثناه عن ذلك. وقال لي:

– هذان الاثنان لا يعرفان شيئًا.

– أعلم.

– بإمكاننا أن نقتلهما أو ندعهما يذهبان في سبيلهما.

قال ذلك وكأنما الأمران سيان بالنسبة إليه، أو كأنه يلعب القرعة بقطعة نقدية. فقلت له:

– دعهما يذهبان.

وجد بروتوس حيًا هادئًا، لعله في برونكس، لا أعلم. ترجل الأبيض الذي لا يزال يتنفس من تلقاء نفسه، أما السائق والرجل الميت فقد رماهما بروتوس

إلى الخارج ككيسَي قمامة. إنطلقنا بالسيارة مجددًا، وساد الصمت بيننا لبضع دقائق.

عقد تايريز يديه خلف رقبته واسترخى، قائلًا:

– لقد أحسنا صنيعًا ببقائنا قريبين، أليس كذلك يا دوك؟

أومأت برأسي موافقًا على ما اعتبرتُه أقل التعابير وصفًا لحدث، في ألف عام.

twitter @baghdad_library

32

كانت ملفات التشريح القديمة تُحفظ في مركز ضخم لتخزين البيانات في لايتون، نيوجرسي، غير البعيدة من حدود ولاية بنسلفانيا. وصل العميل الخاص نيك كارلسون وحيدًا إلى هناك. لم يكن يحب مراكز التخزين كثيرًا، فهي تبعث فيه قشعريرة التطير من القطط السوداء. كان المركز يبقى مفتوحًا أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، بلا حراس، وليس فيه سوى كاميرا مراقبة من ماركة مقلدة عند المدخل... الله وحده يعلم ما تخفيه هذه العنابر الإسمنتية. كان كارلسون يعلم أن الكثير منها مليء بالمخدرات والمال وشتى أنواع السلع المهربة، إلا أن ذلك لم يزعجه كثيرًا. لكنه تذكر حادثة خطف تعرض لها أحد كبار إداريي شركات النفط، منذ سنوات قليلة، عندما حُبس الرجل في أحد تلك العنابر وتُرك ليموت اختناقًا. كان كارلسون موجودًا حين عُثر عليه. ومنذ ذلك الحين، بات يتخيل وجود أشخاص أحياء هنا أيضًا، من بين أولئك المفقودين بدون تفسير، مكبلين في الظلام على مسافة أمتار فقط من حيث هو، يحاولون جاهدين التخلص من كمامات أفواههم.

غالبًا ما يقول الناس إن هذا العالم مريض، لكنهم لا يدركون بأي قدر هو كذلك.

خرج تيموثي هاربر الطبيب الشرعي في المقاطعة من حجرة مكتب أشبه بمرأب، وبيده ظرف أسمر كبير مغلق بخيط ملفوف. وأعطى كارلسون ملف تشريح مدونًا عليه اسم إليزابيت بِكْ.

قال هاربر: «عليك توقيع بيان استلامه.»

وقّع كارلسون القسيمة. ثم سأل هاربر:

– ألم يخبرك بِكْ إطلاقًا لماذا أراد رؤيته؟

– قال إنه زوج حزين وذكر أنه يريد طي هذه الصفحة، وما خلا ذلك...

ورفع هاربر كتفيه. سأله كارلسون:

– هل طرح أي سؤال آخر حول القضية؟

– لم يطرح أي سؤال لافت.

– وما هي الأسئلة غير اللافتة التي طرحها؟

فكر هاربر في الأمر قليلًا، ثم أجاب:

– سألني عما إذا كنت أتذكر مَن تعرّف على الجثة.

– وهل كنت تتذكر؟

– في البداية، لا.

– مَن تعرّف عليها؟

– والدها، ومن ثم سألني كم استغرق الأمر.

– أي أمر؟

– التعرّف على الجثة.

– لا أفهم.

– وأنا أيضًا لم أفهم، بكل صراحة. أراد معرفة ما إذا كان والدها تعرّف على الجثة بسرعة، أو أن الأمر استغرق منه بضع دقائق.

– ولماذا قد يريد معرفة ذلك؟

– لا علم لي.

حاول كارلسون أن يجد تفسيرًا منطقيًا لهذا السؤال، بدون نتيجة. وسأل هاربر:

– بمَ أجبته؟

– بالحقيقة، وهي أنني لا أتذكر. وافترضتُ أن التعرّف جرى في وقت مألوف، وإلا لتذكرت.

– هل من شيء آخر؟

twitter @baghdad_library

– في الواقع لا.

وأضاف هاربر يقول:

– إذا انتهينا هنا، فلدي فَتَيان صدما سيارة هوندا سيفيك بعمود هاتف، ينتظرانني.

قبض كارلسون على الملف في يده، وقال:

– نعم، انتهينا. ولكن ماذا أفعل إن كان علي الاتصال بك؟

– سأكون في المكتب.

«بيتر فلانري، محامٍ في الاستئناف» كانت هذه اللافتة مكتوبة بأحرف ذهبية على زجاج الباب المحبحب. وكان في الزجاج ثقب بحجم قبضة يد، سده أحدهم بشريط لاصق رمادي، بدا قديمًا.

شددتُ القبعة فوق رأسي حتى غطت أذني. كانت أعضائي تتألم مما عانته على يد الآسيوي. وذُكر اسمي على محطة الإذاعة التي تقود المستمعين في جولة على العالم في اثنتين وعشرين دقيقة. لقد أصبحت رسميًا رجلًا مطلوبًا.

ثمة أمور من الصعب استيعابها. لقد كنت في ورطة هائلة، ومع ذلك بدا كل شيء بعيدًا، على نحو غريب، وكأنه يحدث مع شخص تربطني به معرفة سطحية. أنا، نفسي، الرجل الذي هنا، لم أكن أبالي كثيرًا. كان همي الأوحد منصبًا على العثور على إليزابيت، وكل ما عدا ذلك كان بالنسبة إلي مجرد تفاصيل.

كان تايريز معي. توزع خمسة أو ستة أشخاص في قاعة الانتظار. إثنان منهما يضعان حول عنقهما طوقًا طبيًا، وآخر كان معه عصفور في قفص، ولا أعلم لماذا. لم يكلف أحد منهم نفسه الالتفات نحونا، وكأنهم قارنوا بين جهد النظر إلينا وبين الفوائد المحتملة من ذلك، فقرروا أن الأمر لا يستحق العناء.

كانت موظفة الاستقبال تضع شعرًا مستعارًا قبيحًا جدًا، ونظرت إلينا وكأننا قطعة من القذارة.

طلبتُ رؤية بيتر فلانري.

أجابت: «إنه مع موكّل.» لم تكن تطقطق بعلكة في فمها، لكن صوتها بدا أشبه بمَن يفعل ذلك.

ثم تولى تايريز الأمر، فأخرج، كساحر خفيف اليد، لفافة من المال أسمك من معصمي، وقال لها: «قولي له إن هذه دفعة أولى على حساب توكيله بقضية.» ثم أضاف مبتسمًا ابتسامة عريضة: «ثمة لفافة أخرى لك، إذا دخلنا لمقابلته في الحال.»

ما هي إلا دقيقتان حتى دخلنا قدس أقداس الأستاذ فلانري. إنبعثت من مكتبه رائحة السيكار ومزيل الغبار برائحة الليمون. وكان يتألف من أثاث رخيص من النوع الذي يركّبه المستعمِل شخصيًا، مدهون بلون داكن ليوحي بأنه من خشب السنديان والماهوغاني، لكنه لا يُقنِع مَن يشاهده إلا بقدر ما يُقنع به المشاهدين شعر مستعار مصنوع في لاس فيغاس. لم يكن على الجدران شهادات جامعية، بل فقط بعض الشهادات الزائفة لإثارة انطباع من يسهل إثارة انطباعهم. إحدى الشهادات كانت لعضوية فلانري في «الجمعية الدولية لمتذوقي النبيذ»، وأخرى كانت إفادة بحضوره «المؤتمر الحقوقي في لونغ آيلاند» في العام 1996. يا للإنجاز المشرف! ثمة أيضًا صور فوتوغرافية أبهتتها الشمس لفلانري في شبابه، برفقة أشخاص أظنهم إما من المشاهير أو من الشخصيات السياسية المحلية، ولكنني لم أعرف أيًا منهم. وكانت صورة المشاركة في لعبة الغولف، الضرورية في كل مكتب، تنتصب بزهو هناك أيضًا في إطار مكسو بالخشب، خلف مكتبه.

قال فلانري، بحركة ترحيب كبيرة من يده: «أرجوكما، تفضلا بالجلوس أيها السيدان.»

جلست أنا، وبقي تايريز واقفًا وعاقدًا ذراعيه، مستندًا إلى الجدار الخلفي.

«إذًا»، قال فلانري وهو يمط الكلمة وكأنه يمضغ تبغًا، وتابع: «كيف يمكنني أن أساعدكما؟»

كان لبيتر فلانري مظهر الرياضيين الذين استسلموا للترهل. وقد تناقصت خصلات شعره الأشقر وتساقطت، وارتخت ملامحه. كان يرتدي بذلة

twitter @baghdad_library

بثلاث قطع، من النوع الذي يُباع جاهزًا في المتاجر الكبرى، قديمة الطراز جدًا، وفي جيب صديريتها ساعة معلقة بسلسلة من الذهب الزائف.

قلت له: «أريد أن أطرح عليك سؤالًا حول قضية قديمة.»

نظر إلي بعينيه اللتين حافظتا على زرقة الشباب الشفافة. ورأيت على المكتب صورة لفلانري مع امرأة ممتلئة الجسم، وفتاة في حوالي الرابعة عشرة من عمرها، تبدو أزمة المراهقة بوضوح تام عليها. كانوا كلهم يبتسمون، لكنني شعرت بأن في الصورة توترًا، وكأنهم يستعدون لتلقي ضربة.

قال مكررًا: «قضية قديمة؟»

– زارتك زوجتي منذ ثماني سنوات. أريد أن أعرف لماذا.

نظر فلانري ناحية تايريز، الذي لا يزال عاقد الذراعين، فلم يرَ منه سوى نظارته الشمسية، ثم قال:

– لا أفهم، هل كانت قضية طلاق؟

– لا.

«إذًا...» ورفع كتفيه بتعبير عن الرغبة في مساعدتي، لكنه أضاف: «المحامي ملزم تجاه موكله بالكتمان. أجهل كيف يمكنني مساعدتك.»

– لا أعتقد أنها كانت موكلتك.

– أنت تحيرني يا سيد...

وانتظرني لأذكر اسمي. فقلت له:

– بِكْ، الدكتور بِكْ، لا السيد بِكْ.

لدى سماعه اسمي، هبطت ذقنه المكتنزة لحمًا حتى تكاد تبدو ذقنين. فتساءلت عما إذا قد سمع تقارير الأخبار، ولكنني لم أعتقد أن ذلك كان السبب.

– إسم زوجتي هو إليزابيت.

لم يتفوه فلانري بكلمة.

– أنت تتذكرها، أليس كذلك؟

مجددًا، رمى نظرة خاطفة ناحية تايريز.

– هل كانت موكلتك يا سيد فلانري؟

تنحنح، وقال: «لا، لم تكن موكلتي.»

– ولكنك تتذكر مقابلتكما؟

تململ فلانري في كرسيه، وأجاب:

– نعم.

– عمّ تحدثتما؟

– لقد مضى وقت طويل للغاية، دكتور بِكْ.

– أتقول إنك لا تتذكر؟

لم يجب مباشرة على ذلك السؤال، بل قال:

– زوجتك قُتلتْ، أليس كذلك؟ أتذكر أنني شاهدت ذلك في الأخبار.

حاولت أن أبقي الحديث في مساره، فسألته:

– لماذا أتت زوجتي لمقابلتك، يا سيد فلانري؟

– أنا محامٍ.

قال ذلك وكاد ينفخ صدره زهوًا.

– ولكنك لست محاميها.

قال محاولًا أن يستعيد السيطرة على الموقف: «ومع ذلك، لوقتي ثمن»، وأضاف بعد أن سعل في قبضة يده: «ذكرتَ شيئًا يتعلق بدفعةٍ أولى.»

نظرت خلفي، لكن تايريز أخذ المبادرة، فأخرج لفافة المال، وبدأ يسحب الأوراق، ثم رمى ثلاثمئة دولار على المكتب، وحدج فلانري بنظرة قاسية من خلف نظارته الشمسية، قبل أن يعود إلى حيث كان.

نظر فلانري إلى المال ولكنه لم يلمسه. ضم أصابع يديه وضغط بكف على الأخرى، وقال:

– هب أنني أرفض أن أخبرك.

– لا أرى لما قد ترفض. إتصالك بها لا يخضع لضرورة كتمان المعلومات، صحيح؟

– أنا لا أتحدث عن ذلك.

إخترقت نظراته عينيّ، ثم قال بعد تردد:

– هل كنت تحب زوجتك يا دكتور بِكْ؟

twitter @baghdad_library

– كثيرًا جدًا.

– هل تزوجتَ مجددًا؟

– لا، ولكن ما شأن هذا بذاك؟

إستوى في كرسيه وقال:

– إذهب. خذ مالك واذهب.

– الأمر في غاية الأهمية يا سيد فلانري.

– لا أرى أهميته. ماتت منذ ثماني سنوات، وقاتلها في انتظار تنفيذ حكم الإعدام به.

– ما الذي تخشى إطلاعي عليه؟

لم يجب فلانري في الحال. إقترب تايريز مجددًا من المكتب، فنظر إليه فلانري وفاجأني بتنهيدة عميقة تصدر عنه، قبل أن يقول لتايريز:

– أسدِ إلي معروفًا، وكفى حركات استعراضية. سبق لي أن توكلت عن معتوهين، ستبدو مثل ماري بوبينز إذا ما قورنتَ بهم.

بدا تايريز وكأنه على وشك أن يرد، ولكن ذلك لم يكن ليفيد. ناديته، فنظر إلي، وهززت رأسي، فعاد أدراجه. تراجع تايريز إلى الخلف. كان فلانري يعض شفته السفلى، فتركته يفعل. كان بوسعي أن أنتظر. قال لي بعد فترة:

– لست بحاجة إلى أن تعرف.

– بلى.

– ذلك لن يعيد زوجتك إلى الحياة.

– ربما يعيدها.

لفت قولي انتباهه، فعبس في وجهي، لكن لينًا ما ظهر في تعابيره.

قلت له: «رجاءً.»

أزاح كرسيه جانبًا ومال إلى الخلف، وراح يحدق إلى ستائر النافذة التي اصفر لونها وتفتتت، وذلك في حقبة فضيحة واترغايت. ثنى يديه وأسندهما إلى كرشه. رحت أراقب كيف راحت تلك اليدان تعلوان وتهبطان مع أنفاسه. بدأ كلامه قائلًا:

– كنت آنذاك محامي دفاع عام، أتعرف ما يعني ذلك؟

– كنت تدافع عن المتهمين العاجزين عن توكيل محام.

– تقريبًا، بين الحقوق التي تتلى على الشخص عند اعتقاله، حقه بتوكيل محامٍ إذا كان ذلك في وسعه، وإلا فأنا مَن تُوكل إليه القضية.

هززتُ برأسي، ولكن نظراته لم تفارق الستائر. وأضاف:

– بأية حال، توكلت في إحدى أشهر قضايا جرائم القتل في الولاية.

أحسستُ بشيء بارد يتلوى في معدتي، وسألته:

– قضية مَن؟

– قضية براندون سكوب، ابن الملياردير، أتتذكرها؟

تجمدتُ مرتعبًا، وضاقت بي أنفاسي. لا عجب أن اسم فلانري بدا لي مألوفًا. براندون سكوب. كدت أهز رأسي مجيبًا بالنفي، ليس لأني لم أتذكر القضية، بل لأنني أردته أن يقول كل شيء إلا ذلك الاسم.

رغبة في الإيضاح، دعوني أخبركم ما قالته الصحف: تعرض براندون سكوب، 33 عامًا، للسرقة والقتل منذ ثمانية أعوام. نعم ثمانية أعوام، ربما قبل حوالى الشهرين من مقتل إليزابيت. أُصِيبَ برصاصتين، وألقيت جثته على مقربة من مشروع إسكاني في هارلم، بعد أن سُرق ما كان معه من مال. تناولت وسائل الإعلام القضية بكثير من الكتابات العاطفية، وسلطت الأضواء بقوة على أعمال براندون الخيرية، وتحدثت عن مساعدته أطفال الشوارع، وعن تفضيله العمل مع الفقراء على إدارة مجموعة الشركات العالمية التي يملكها أبوه، وما إلى ذلك من الأحاديث. كانت تلك إحدى جرائم القتل التي «تصدم أمّة» وتؤدي إلى توجيه الكثير من الاتهامات وتثير كثيرًا من النقاشات. وأنشئت مؤسسة خيرية باسم سكوب براندون الشاب، وشقيقتي ليندا هي من تتولى إدارتها. لا يسعكم أن تصدقوا مقدار الأعمال الخيرية التي تقوم بها في عملها هناك.

قلت له بصوت رقيق:

– أتذكرها.

– أتتذكر أنه تم اعتقال أحدهم بتهمة ارتكاب الجريمة؟

– أحد فتيان الشوارع، ممن ساعدهم، أليس كذلك؟

twitter @baghdad_library

– نعم قبضوا على هيليو غونزاليز، وكان آنذاك في الثانية والعشرين من عمره، ويقطن في باركر هاوس في هارلم. كان سجله الجنائي كبيرًا جدًا ككتاب للأرقام القياسية: سطو مسلح، حرق متعمد، اعتداء... كان شابا رائعًا بالفعل، السيد غونزاليز هذا!

شعرت بجفاف في فمي، وسألته:

– ألم تُسقَط عنه كل التهم في النهاية؟

– بلى. في الواقع لم يكن لديهم الكثير من الأدلة. وُجدت بصماته في مسرح الجريمة، ولكن، كذلك بصمات كثيرين. كما وجدوا حيث يقيم غونزاليز خصلًا من شعر سكوب، وحتى بقعة دم مطابقة لدمه. ولكن سكوب سبق أن زار ذلك المبنى. كان بوسعنا أن نزعم بسهولة أن ذلك سبب وجود تلك الأدلة في المكان. ومع ذلك توفر لديهم من الأدلة ما يكفي لاعتقاله، وكانت الشرطة على يقين من أن المزيد منها قد يظهر.

سألته: «ماذا حدث؟»

ظل فلانري يتجنب النظر إلي، ولم يرقني ذلك. كان هذا الرجل يعيش في عالم من الأحذية اللماعة، والأحاديث حيث تتلاقى العيون بالعيون. أنا أعرف هذا الصنف من الرجال. لم أشأ أن تربطني بهم صلة، لكنني كنت أعرفهم. تابع حديثه قائلًا:

– كانت الشرطة متأكدة من ساعة الوفاة، فالطبيب الشرعي حدد بدقة درجة حرارة الكبد. قُتِلَ سكوب عند الساعة الحادية عشرة ليلًا، وهامش الخطأ هو نصف ساعة، لا أكثر.

قلت له:

– لا أفهم. ما شأن هذا بزوجتي؟

عاد لضم أصابعه، وأجاب:

– علمت أن زوجتك كانت تعمل مع الفقراء أيضًا، وفي الواقع، في المكتب عينه مع الضحية.

لم أعرف أين سيصل الحديث، لكني شعرت بأن نهايته لن تروقني. ساورني لثانية شك في صحة ما يقوله فلانري، وتساءلتُ عما إذا كنت حقًا أريد

سماع ما سيقوله، وعما إذا كان علي أن أنهض عن الكرسي وأنسى الموضوع برمته. لكنني سألته: «إذًا؟»

قال بإيماءة صغيرة من رأسه:

– إنه لأمر نبيل، أن يعمل المرء مع الفقراء المحرومين.

– يسعدني أن هذا رأيك.

– هذا كان دافعي الأساسي لاختيار المحاماة. مساعدة الفقراء.

لجمت إحساسي بالغثيان، واستويت قليلًا في جلستي، وقلت له: هلا تخبرني ما علاقة زوجتي بكل هذا؟

– هي أطلقت سراحه.

– مَن؟

– موكلي، هيليو غونزاليز. زوجتك أطلقت سراحه.

عبستُ وسألته: «كيف؟»

– قدمتْ له حجة غياب.

توقف قلبي، وكذلك توقفت رئتاي. وكدت أقرع صدري لأجعل أعضائي تستأنف عملها. وسألته:

– كيف؟

– أتعني كيف قدمت له حجة غياب؟

أومأت برأسي إيجابًا وأنا مخدر، لكنه ظل يتجنب النظر إلي. فقلت بصوت متهدج «نعم.»

أجاب:

– أمر بسيط. قالت إنها وهيليو كانا معًا وقت الجريمة.

بدأ ذهني يتخبط، تائهًا وسط محيط، من دون خشبة نجاة. قلت له:

– لم أقرأ شيئًا من هذا في الجرائد.

– تم التعتيم على الأمر.

– لماذا؟

twitter @baghdad_library

– أوّلًا، لأن زوجتك طلبت ذلك. كما أن النيابة العامة لم تشأ افتضاح أمر خطأها في الاعتقال. فجرى ذلك بأكبر قدر ممكن من التكتم. إضافة إلى بعض المشاكل في شهادة زوجتك.

– أية مشاكل؟

– لقد كذبت في البداية.

شعرت بنفسي أتخبط أكثر في المحيط، وأغرق في الماء، قبل أن أطفو إلى السطح لأتخبط ثانية.

– عمّ تتكلم؟

– إدعت زوجتك أنها كانت تقابل غونزاليز لاستشارة في شأن وظيفة، في مكتب المؤسسة الخيرية ساعة الجريمة. فلم يصدق أحد تلك الرواية.

– لماذا؟

رفع حاجبًا علامة التشكيك، وسألني: «إستشارة في شأن وظيفة عند الحادية عشرة ليلًا؟»

أومأت برأسي موافقًا وأنا مخدر الحواس.

– لذلك، وبصفتي محامي السيد غونزاليز، لفتّ انتباه زوجتك إلى أن الشرطة ستحقق في حجة الغياب التي قدمتها، وإلى أن مكاتب المؤسسة مجهزة بكاميرات مراقبة، تسجل على أفلام دخول الجميع وخروجهم. آنذاك، اعترفت زوجتك بالحقيقة.

وتوقف عن الكلام. فقلت له:

– تابع.

– الأمر بديهي، أليس كذلك؟

– أخبرني في كل حال.

رفع فلانري كتفيه، وقال:

أرادت أن تجنب نفسها – وتجنبك أنت أيضًا على ما أظن – الإحراج. لذلك أصرت على الكتمان. كانت في منزل غونزاليز، يا دكتور بِكْ. كانا على علاقة غرامية منذ ما قبل شهرين.

لم أبدِ أي ردة فعل. ولم ينبس أحد ببنت شفة. سمعت من البعيد زعيق طائر. لعله ذاك الذي رأيناه في قاعة الانتظار. وقفت، وتراجع تايريز خطوة.

قلت له بصوت هادئ جدًا: «شكرًا على الوقت الذي منحتني إياه.»

أومأ فلانري برأسه ناحية ستائر النافذة.

قلت له: «هذا غير صحيح.»

لم يجب، لكنني لم أتوقع منه أن يجيب.

twitter @baghdad_library

33

جلس كارلسون في السيارة. لا تزال ربطة عنقه معقودة بدقة، وقد خلع سترة بذلته ووضعها على علاقة خشبية تدلت من خطاف المقعد الخلفي للسيارة. راح مكيف السيارة ينفث الهواء بقوة وبصوت مرتفع. قرأ كارلسون العنوان المكتوب على ظرف التشريح: إليزابيت بِكْ، ملف رقم 87002-94. بدأت أصابعه تفك الخيط، فانفتح الظرف، وأخرج كارلسون المحتويات ونشرها على المقعد بجواره.

ما الذي أراد الدكتور بِكْ معرفته؟

كان ستون قد أعطاه الجواب البديهي: أراد بِكْ معرفة ما إذا كان في التقرير ما يدينه. كان ذلك التحليل يتوافق مع نظرياتهما الأولى، كما أن كارلسون هو من بدأت الشكوك تساوره في مصداقية السيناريو المتداول لجريمة قتل إليزابيت بِكْ. وكان أول من اعتقد أن جريمة القتل ليست كما ظهرت عليه، وأن الدكتور دايفيد بِكْ، الزوج، هو من خطط لجريمة قتل زوجته.

إذًا لماذا توقف الآن عن تصديق ذلك السيناريو؟

درس بعناية الثغرات التي ظهرت في تلك النظرية، ولكن ستون كان أيضًا مقنعًا في سدها. في كل قضية ثغرات، يدرك كارلسون هذا. وفي كل قضية عناصر غير مكتملة. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلا بد من أن المحققين أغفلوا شيئًا ما.

إذًا لماذا بات الآن يشك في أن بِكْ مذنب؟

ربما كان للأمر صلة بأن القضية أصبحت فجأة سهلة أكثر مما يجب، وبدأت الأدلة تظهر فجأة متناغمة تمامًا مع نظريتهم. أو ربما لأن شكوكه استندت إلى ما لا يمكن الوثوق به أي «الحدس»، على الرغم من أن كارلسون لم يكن يومًا من كبار المتحمسين لذلك الجانب تحديدًا في عمل التحري. فغالبًا ما كان الحدس وسيلة لتدوير الزوايا الصعبة، وتقنية ذكية لاستبدال الأدلة الدامغة والوقائع بشيء آخر أكثر غموضًا وتقلبًا. أسوأ المحققين الذين عرفهم كارلسون كانوا يعتمدون على هذا الحدس المزعوم.

حمل الصفحة الأولى من التقرير. كانت تحتوي معلومات عامة: إليزابيت باركر بِكْ، محل إقامتها، تاريخ ميلادها (كانت في الخامسة والعشرين حين ماتت)، بيضاء، طولها 171 سنتمترًا، وزنها 49 كيلوغرامًا، نحيلة. أظهر الفحص الخارجي تخشب الجثة. وكانت ثمة بثور على الجلد وتسرب للسوائل من فتحات الجسد. وهو ما أشار إلى أن الوفاة حدثت قبل أكثر من ثلاثة أيام. كان سبب الوفاة طعنة سكين في الصدر، سببت نزيفًا دموي حادًا في الشريان الأورطي الأيمن. كانت أيضًا على يديها وأصابعها جروح، نظريًا لأنها حاولت أن ترد عن نفسها هجومًا بالسكين.

أخرج كارلسون دفتره وقلمه من ماركة «مون بلان»، وكتب فيه «**جروح دفاعية ناتجة عن هجوم بسكين؟!؟!**» ووضع تحت العبارة عدة خطوط. جروح دفاعية؟ لم يكن هذا أسلوب روي السفاح. فهو يعذب ضحاياه، ويقيدهن بالحبال، ويفعل ما يحلو له بهن، وحين لا يعود لأولئك الضحايا القدرة على وعي ما يحدث لهن، يقتلهن.

ما سبب وجود جروح دفاعية على يديها؟

تابع كارلسون القراءة. قرأ ما كُتب عن الشعر ولون العينين. ومن ثم، وفي منتصف الصفحة الثانية، كانت في انتظاره صدمة أخرى.

وُسمت إليزابيت بحرف «ك» بعد حدوث الوفاة.

أعاد كارلسون قراءة هذا الجزء. ومجددًا أخرج مفكرته وكتب عبارة «**بعد حدوث الوفاة**». ثمة شيء غير واضح. لطالما وسم روي السفاح ضحاياه

twitter @baghdad_library

وهنّ على قيد الحياة. قيل في المحكمة الكثير عن تلذذه برائحة الجلد المحترق، وبصرخات ضحاياه وهو يسمهن.

أوّلًا، الجروح الدفاعية، والآن هذا. ثمة خطب ما.

نزع كارلسون نظارته وأغمض عينيه. فكر في نفسه: «إرباك». الإرباك يثير استياءه. كانت ثغرات المنطق متوقعة، ولكن تلك الثغرات تتحول هنا إلى هوات. فمن جهة، كان تشريح الجثة يؤيد نظريته الأساسية بأن جريمة قتل إليزابيت بِكْ قد دُبرت بحيث تبدو وكأنها عمل روي السفاح. ولكن، لو كان هذا صحيحًا، فإن النظرية قد بدأت تتفكك من الجانب الآخر.

حاول أن يأخذ الأمور خطوة خطوة. أوّلًا، ما الذي جعل بِكْ متلهفًا بهذا القدر للاطلاع على هذا الملف؟ ظاهريًا، أصبحت الإجابة واضحة. فكل مَن يدقق في الملف سيدرك أن هناك احتمالًا كبيرًا بأن روي السفاح لم يقتل إليزابيت بِكْ. لكن هذا الأمر ليس مؤكدًا، فالقتلة التسلسليون برغم ما نقرأه عنهم، ليسوا بالأشخاص الذين يتبعون عادة واحدة. لعل روي السفاح غيّر أسلوبه، أو سعى إلى بعض التنوع. ومع هذا، فما يقرأه كارلسون هنا كان كافيًا ليثير التساؤلات.

لكن السؤال الكبير الذي ينتج عن كل هذا هو: لماذا لم يلاحظ أحد هذه التناقضات آنذاك؟

بحث كارلسون في الاحتمالات. روي السفاح لم يتهم قط بجريمة قتل إليزابيت بِكْ. باتت الأسباب واضحة للغاية الآن. لعل المحققين اشتبهوا في الحقيقة. لعلهم أدركوا أن جريمة قتل إليزابيت لا تندرج في سياق جرائم روي السفاح، ولكن كشف تلك الحقيقة لم يكن ليفيد إلّا محامي الدفاع عن روي السفاح. إن المشكلة في الادعاء على قاتل تسلسلي تكمن في أن العدالة تلقي حوله شبكة واسعة جدًا، فلا بد من أن يتسرب شيء إلى الخارج. فلا يكون على محامي الدفاع إلا اختيار قضية على حدة، والكشف عن تناقضاتها، فيؤثر سقوطها على كل القضايا الأخرى. وهكذا، بدون اعتراف، نادرًا ما يحاكَم مجرم على كل جرائمه دفعة واحدة، بل يتم الأمر خطوة خطوة. ولعل المحققين الذين يدركون هذا، أرادوا فقط إغلاق ملف جريمة قتل إليزابيت بِكْ.

ولكن هذا السيناريو لم يخلُ من المشاكل الكبيرة أيضًا.

فوالد إليزابيت وعمها، وكلاهما عامل في أجهزة تطبيق القانون، قد شاهدا الجثة. ولا شك بأنهما اطلعا على ملف التشريح هذا. أما كانت التناقضات لتثير تساؤلهما؟ هل يسمحان لقاتلها الحقيقي بالنجاة فقط لضمان إدانة روي السفاح؟ كان كارلسون يشك في ذلك.

إذًا، أين يقوده هذا؟

واصل قراءة الملف، فوقع على أمر مذهل آخر. آنذاك، كان مكيف الهواء في السيارة يجعله يشعر ببرد شديد وصل إلى عظامه. أنزل كارلسون نافذة وسحب مفتاح التشغيل. قرأ في أعلى الصفحة: «تقرير السموم». وفقًا للتحاليل، عُثر في دم إليزابيت على آثار كوكايين وهيروين. كما وُجدت آثار أخرى في شعرها وأنسجتها، ما يشير إلى أن تعاطيها المخدرات كان أكثر من عابر.

هل كانت هذه الأمور مترابطة؟

كان كارلسون يفكر في الأمر عندما رن هاتفه، فأجاب قائلًا: «كارلسون.»

قال ستون: «وجدنا شيئًا.»

وضع كارلسون الملف جانبًا، وسأله: «ماذا؟»

– بِكْ حجز تذكرة سفر بالطائرة إلى لندن، من مطار جون كينيدي. طائرته تقلع بعد ساعتين.

– أنا في طريقي إلى هناك.

وضع تايريز يده على كتفي فيما كنا نسير، ثم قال للمرة الألف: «السافلات. لا يمكن الوثوق بهن.»

لم أكلف نفسي عناء الإجابة.

أدهشني في البداية أن يستطيع تايريز اقتفاء أثر هيليو غونزاليز بهذه السرعة، ولكن شبكات معلومات الشوارع كانت متطورة شأنها شأن الشبكات الأخرى. سلوا أي عميل بورصة في مورغان ستانلي أن يرشدكم إلى نظير له في غولدمان ساكس، يفعل ذلك في دقائق. سلوني أن أحوّل مريضًا إلى أي طبيب

twitter @baghdad_library

في الولاية، لا يتطلب الأمر مني إلا مكالمة هاتفية واحـدة. فلماذا سيكون مجرمو الأزقة مختلفين؟

كان هيليو قد أنهى حديثًا عقوبة أربع سنوات في السجن بتهمة سطو مسلح. وكان مظهره يشي بذلك: نظارة شمسية، خرقة مشدودة حول رأسه، تي شيرت أبيض فوقه قميص قطني، لم يزرر فيه سوى الزر الأعلى، فبدا كرداء أو كجناحَي خفاش. كان كُمّا القميص مطويين إلى الأعلى، لتظهر تحتهما أوشام رديئة على زنده، وعلى عضلات السجون. إن لعضلات السجناء مظهرًا مميزًا، فهي ملساء كالرخام، على خلاف عضلات رياضيي النوادي.

جلسنا على درج في مكان ما في كوينز، لا يمكنني أن أحدد لكم أين يقع على وجه الدقة. كان إيقاع موسيقى لاتينية صاخبة يقرع صدري. مرت بنا نساء سمراوات، يرتدين ملابس ملتصقة بأجسادهن كثيرًا. أومأ لي تايريز برأسه، فالتفتّ إلى هيليو. وكان على وجهه ابتسامة ساخرة. تفرست فيه، فلم تخطر ببالي إلا كلمة واحـدة: حثالة، حثالة لا سبيل إليها، ولا تخترقها المشاعر. بمجرد النظر إليه نعرف أنه لن يترك في أثره سوى الدمار الكبير. السؤال هو: كم من الدمار؟ أدركت أن رأيي هذا يخلو من المحبة. كذلك أدركتُ أنه وبحسب ظاهر الأمور، يمكن قول الشيء نفسه عن تايريز. هذا غير مهم. لعل إليزابيت اقتنعت بإمكانية خلاص متسكعي الأزقة وذوي الضمائر المخدرة. أما أنا فلم أبلغ تلك القناعة بعد.

بدأت حديثي قائلًا:

– إعتُقلتَ منذ سنوات بتهمة قتل براندون سكوب. أعلم أنه قد أخلي سبيلك في تلك التهمة، ولا أرغب في أن أسبب لك مشاكل. ولكنني أحتاج إلى معرفة الحقيقة.

خلع هيليو نظارته الشمسية ونظر إلى تايريز نظرة خاطفة، وسأله: «هل أحضرت إلي شرطيًا؟»

قلت: «لست شرطيًا. أنا زوج إليزابيت بِكْ.»

أردت أن أرى ردة فعل، لكنني لم أنجح.

– إنها المرأة التي قدمت لك حجة غياب.

– أعلم جيدًا من تكون.

– هل كانت معك في تلك الليلة؟

تريث هيليو، ثم قال ببطء، وهو يبتسم لي بأسنان صفراء: «نعم، كانت معي طوال الليل.»

قلت له: «أنت تكذب.»

نظر هيليو مجددًا نحو تايريز، وسأله: «ما هذا يا رجل؟»

قلت: «أنا بحاجة إلى معرفة الحقيقة.»

– هل تظنني قتلت سكوب؟

– أنا أعرف أنك لم تقتله.

فاجأه قولي، وسألني:

– ماذا يحدث هنا؟

– أريدك أن تؤكد لي أمرًا.

إنتظر هيليو سؤالي.

– هل كنت مع زوجتي تلك الليلة؟ نعم أو لا؟

– ماذا تريد مني أن أقول، يا رجل؟

– الحقيقة.

– وإذا كانت الحقيقة أنها أمضيت الليل كله معي؟

– ليست تلك هي الحقيقة.

– ما الذي يجعلك متأكدًا جدًا؟

تدخل تايريز، وقال له: «أخبر الرجل ما يريد معرفته.»

تريث هيليو مجددًا في الإجابة، وقال:

– الحقيقة هي ما قالته. لقد مارست معها الجنس. آسف يا رجل، ولكن هذا ما حدث. أمضينا الليل نمارس الجنس.

نظرت إلى تايريز، وقلت له: «هلا تدعنا على انفراد قليلًا؟»

أومأ تايريز برأسه، ثم نهض وسار نحو سيارته. إستند إلى الباب الجانبي، عاقدًا ذراعيه، وبجانبه بروتوس. عدت أنظر إلى هيليو.

– أين قابلت زوجتي لأول مرة؟

twitter @baghdad_library

– في المركز.

– هل حاولت مساعدتك؟

رفع هيليو كتفيه، ولكنه امتنع عن النظر إلي.

– هل كنت تعرف براندون سكوب؟

إرتسم على وجهه لبرهة تعبير خوف، فقال لي:

– أنا ذاهب، يا رجل.

– ما من أحد سوانا هنا، يا هيليو. فتشني لتطمئن إلى أنني لا أحمل جهاز تنصت.

– هل تريدني أن أتخلى عن حجة غيابي؟

– نعم.

– ولماذا قد أفعل ذلك؟

– لأن شخصًا ما يقتل كل من له صلة بما حدث لبراندون سكوب. ليلة أمس، قتلت صديقة زوجتي في الستوديو الخاص بها. وقبضوا علي اليوم، ولكن تايريز تدخّل لإنقاذي. وهم يريدون الآن قتل زوجتي.

– ظننتُها ماتت.

– إنها قصة طويلة، يا هيليو، ولكن كل شيء يعود من جديد. إذا لم أعرف حقيقة ما حدث، فسنُقتل جميعًا.

لم أدرِ إن كان ما قلته حقيقة أو مبالغة، ولكنني لم أبالِ.

سألته بإصرار:

– أين كنت تلك الليلة؟

– معها.

– بوسعي أن أثبت أنكما لم تكونا معًا.

– ماذا؟

– كانت زوجتي في أتلانتيك سيتي. فواتيرها القديمة كلها معي، وبإمكاني أن أثبت ذلك. بإمكاني أن أنسف حجة غيابك يا هيليو، وسأفعل. أعلم أنك لم تقتل براندون سكوب. ولكن صدقني: سأجعلهم يعدمونك من أجل تلك الجريمة إذا لم تخبرني الحقيقة.

كنت أخادع. كنت أخادع بقوة. ولكنني رأيت أنني حققت الهدف.

– أخبرني الحقيقة، تبقَ حرًّا.

– لم أقتل ذلك الرجل. أقسم.

قلت مجددًا: «أعرف هذا.»

فكر في الأمر، ثم قال: «لا أعلم لماذا فعلتْ ذلك، اتفقنا؟»

أومأت برأسي، محاولًا أن أحمله على متابعة كلامه.

– سطوتُ على منزل في فورت لي تلك الليلة، لذا لم يكن لدي حجة غياب. ظننتُني سأسقط في جريمة قتل سكوب، ولكنها أنقذتني.

– هل سألتها لماذا فعلت ذلك؟

هز رأسه بالنفي. وقال: «سرتُ في ذلك، أبلغني محامي ما قالته، فأكدتُ ذلك، وخرجت من السجن.»

– وهل رأيت زوجتي بعد ذلك؟

– لا.

ثم نظر إلي وسألني:

– ما يجعلك واثقًا إلى هذا الحدّ بأن زوجتك لم تكن على علاقة بي؟

– أنا أعرف زوجتي.

إبتسم وقال: «أتظنها لن تخونك أبدًا؟»

لم أجب.

وقف هيليو وقال لي: «قل لتايريز إنه مدين لي بخدمة.»

أطلق ضحكة قصيرة، ثم استدار وسار مبتعدًا.

twitter @baghdad_library

34

كانت بدون أمتعة، ومعها تذكرة اشترتها عبر الإنترنت لتسجل سفرها بواسطة آلة، لا بواسطة شخص، ومكثت تنتظر في محطة طرفية قريبة، وعيناها على لوحة الانطلاق، في انتظار ظهور عبارة «الصعود إلى الطائرة» بالقرب من رقم رحلتها.

جلست في كرسي بلاستيكي، ونظرت إلى مدرج المطار. كانت شاشة تلفزيون تعرض أخبار قناة «سي.أن.أن»، وسمعت: «إليكم في الفقرة التالية العناوين الرئيسية لأخبار الرياضة.» أوجدت فراغًا في ذهنها. قبل خمس سنوات أقامت في قرية صغيرة بالقرب من غوا في الهند. كان لذلك المكان النائي والحقير شهرة بفضل معلم يوغا يعيش فيه، وله من العمر مئة عام. أمضت بعض الوقت مع معلم اليوغا، الذي حاول أن يعلمها أساليب التأمل، والتنفس بطريقة البرانایاما، وتنقية الذهن. لكن شيئًا من ذلك لم يدُم، فقد كانت ثمة أوقات تغرق خلالها في الظلمة. وفي لحظات الغرق تلك، غالبًا ما ترى بِكْ.

تساءلت حول خطوتها التالية. في الحقيقة لم يكن لديها خيار. إنها مسألة بقاء، والبقاء يعني الهروب. لقد أثارت مشكلة، وها هي تهرب من جديد، تاركة للآخرين مهمة معالجة ما خلّفته. ولكن أي خيار آخر لديها؟ كانوا في أعقابها. كانت في غاية الحذر، ومع ذلك لم يتوقفوا عن مراقبتها، بعد ثماني سنوات.

إقترب طفل من النافذة الزجاجية، وراح يضربها بنملء كفيه، سعيدًا. لحق به والده المُنهَك ورفعه عاليًا بين ذراعيه مبتسمًا. كانت تنظر إلى ذلك، ومضى بها عقلها إلى ما كان ممكنًا أن يكون. وجلس زوجان عجوزان إلى يمينها، يتجاذبان بودّ أطراف الحديث. في خلال سنوات المراهقة، اعتادت وبِكْ مشاهدة السيد والسيدة شتاينبرغ يتنزهان في ساحة داونينغ متشابكَي الذراعين، كل ليلة بدون انقطاع، بعد أن كبر أبناؤهما وغادروا العش العائلي. وعدها بِكْ بأن تكون حياتهما هكذا. ماتت السيدة شتاينبرغ عن اثنين وثمانين عامًا. وما لبث السيد شتاينبرغ، الذي كان بصحة جيدة على نحو مدهش، أن تبعها بعد أربعة أشهر. يُقال إن هذا يحدث كثيرًا للعجائز، وإن القلبين يصبحان قلبًا واحدًا، على حدّ قول سبرينغستين. فإذا ما فارق أحدهما الحياة تبعه الآخر. هل كانت هذه حالها مع دايفيد؟ لم يعيشا معًا واحدًا وستين عامًا، كالزوجين شتاينبرغ. ولكن حين نفكر في الأمر من الناحية النسبية، حين نفكر في أن أولى الذكريات لا وجود لها تقريبًا قبل سن الخامسة، وحين نتخيل أنها وبِكْ كانا، ومنذ سن السابعة، لا ينفصلان، وأن أيًا منهما لا ذكريات له من دون الآخر، وحين نفكر في الوقت الذي أمضياه معًا، لا بعدد السنوات، بل بالنسبة المئوية من الحياة، ندرك أنهما كانا أكثر ارتباطًا حتى من الزوجين شتاينبرغ.

إستدارت ونظرت إلى الشاشة. بدأت عبارة «الصعود إلى الطائرة» تومض إلى جانب «الرحلة 174 الخطوط الجوية البريطانية».

وارتفع في المطار صوت المناداة لصعود الركاب إلى طائرتها.

وقف كارلسون وستون، ومعهما رفيقاهما من الشرطة المحلية ديمونتي وكرينسكي، مع مديرة الحجز في شركة الخطوط الجوية البريطانية.

«لم يأتِ.» قالت لهم مديرة الحجز، وهي امرأة ترتدي بزة باللونين الأزرق والأبيض، وتلف منديلًا حول عنقها، جميلة اللكنة، وعلى صدرها بطاقة كُتب عليها «إميلي».

twitter @baghdad_library

أطلق ديمونتي شتيمة، ورفع كرينسكي كتفيه. لم يكن هذا بالأمر غير المتوقع. فقد نجح بِكْ في التخلص من مطارديه طوال اليوم، وكان مستبعدًا جدًا أن يكون مغفلًا بما يجعله يحاول ركوب الطائرة مستخدمًا اسمه الحقيقي.

قال ديمونتي: «طريق مسدود.»

ظل كارلسون يمسك ملف التشريح بإحكام إلى وركه. وسأل إميلي: «من هو الموظف الأكثر دراية بالكمبيوتر لديكم؟»

قالت بابتسامة تعبر عن الكفاءة: «أنا.»

قال كارلسون: «رجاءً، أحضري ملف الحجز.»

فعلت إميلي ما طُلب منها.

– هل يمكنك أن تخبريني متى حجز للرحلة؟

– منذ ثلاثة أيام.

تلقف ديمونتي هذه الفرصة، وقال: «كان بِكْ يخطط للهرب. الوغد!»

هز كارلسون رأسه، تعبيرًا عن عدم الموافقة.

– ما أدراك؟

أوضح كارلسون يقول:

– كنا نفترض أنه قتل ريبيكا شايس لإسكاتها. ولكن، إذا كان أحدهم ينوي مغادرة البلاد، فلماذا يكلف نفسه عناء ذلك؟ لماذا يجازف بالانتظار ثلاثة أيام وهو مطلوب في جريمة قتل جديدة؟

هز ستون رأسه، وقال: «أنت تبالغ في التفكير في هذه القضية يا نيك.»

قال كارلسون مصرًا:

– نحن نغفل شيئًا ما. لماذا في الأساس، قرر أن يهرب فجأة؟

– لأننا كنا نقترب منه.

– لم نكن نقترب منه منذ ثلاثة أيام.

– لعله علم أنها مسألة وقت، لا أكثر.

إزداد عبوس كارلسون.

إلتفت ديمونتي نحو كرينسكي، وقال: «هذه مضيعة للوقت. لنذهب من هنا» ثم نظر إلى كارلسون، وقال: «سنترك بعض أفراد الشرطة هنا، تحسبًا.»

أومأ كارلسون برأسه موافقًا، وهو نصف مصغٍ. حين انصرف الشرطيان، سأل إميلي: «هل كان بِكْ يسافر مع شخص آخر؟»

نقرت إميلي بعض مفاتيح الكمبيوتر، وأجابت: «كان حجزًا منفردًا.»

– كيف قام بالحجز؟ شخصيًا؟ عبر الهاتف؟ بواسطة وكالة سفر؟

نقرت المفاتيح مرة أخرى، وأجابت:

– لم يتم الحجز من خلال وكالة السفر. هذا ما أستطيع قوله لك. وإلا لظهرت عندي إشارة إلى عمولة الوكالة. تم الحجز مباشرة مع الخطوط الجوية البريطانية.

هذا الجواب لا يفيد في شيء.

– كيف دفع؟

– ببطاقة ائتمان.

– هل لي برقمها؟

أعطته الرقم، وبدوره أعطاه إلى ستون، الذي هز رأسه، وقال:

– هذه ليست إحدى بطاقاته. أقله ليست إحدى البطاقات التي نعلم بوجودها.

قال كارلسون: «تحقق من الرقم.»

كان هاتف ستون الخلوي في يده، فأومأ برأسه وأخذ يضغط على لوحة المفاتيح.

فرك كارلسون ذقنه، وتابع يسأل:

– قلتِ إنه حجز رحلته قبل ثلاثة أيام.

– هذا صحيح.

– أتعلمين الساعة التي قام بالحجز فيها؟

– في الواقع نعم، فالكمبيوتر يدمغ الساعة. السادسة وأربع عشرة دقيقة مساء.

twitter @baghdad_library

هز كارلسون برأسه، وأضاف:

– حسنًا، ممتاز. هل بإمكانك أن تخبريني عما إذا كان أحد غيره قد حجز للرحلة في الوقت نفسه تقريبًا؟

فكرت إميلي في الأمر، وقالت: «لم أجرب ذلك قط.» وأضافت: «مهلًا، دعني أرى شيئًا.» كتبت شيئًا في الكمبيوتر، وانتظرت. ثم كتبت المزيد، وانتظرت. وفي النهاية قالت: «الكمبيوتر لا يفرز المعلومات بحسب تاريخ الحجز.»

– ولكن المعلومات هنا؟

– نعم، مهلًا.

عادت أصابعها إلى الكتابة، وقالت: «أستطيع نسخ المعلومات إلى جدول بيانات. يمكننا إظهار خمسين حجزًا في الشاشة. ذلك سيجعل الأمر أسرع.»

كانت المجموعة الأولى من الحجوزات تضم زوجين حجزا مقعدين في اليوم نفسه ولكن قبل ساعات. لا فائدة من ذلك. أما المجموعة الثانية فلم تحوِ شيئًا. لكن الحظ حالفهم في المجموعة الثالثة.

قالت إميلي: «ليزا شرمان. تم حجز رحلتها في اليوم نفسه، بعد ثماني دقائق.»

لم يكن أمر كهذا يعني شيئًا في ذاته، طبعًا، ولكن كارلسون أحس بقشعريرةٍ باردة سرت في جسده.

أضافت إميلي قائلة: «أوه، هذا مثير للاهتمام.»

– ماذا؟

– توزيع المقاعد.

– ما به؟

– رُتب لها أن تجلس بالقرب من دايفيد بِكْ. الصف 16، المقعدان «ج» و«ح».

شعر بما يشبه الصعقة الكهربائية، وسألها: «هل قامت بتسجيل وصولها؟»

عادت إلى الكتابة، فاختفت الشاشة وظهرت مكانها أخرى. ثم أجابت:

– في الواقع، نعم. ولعلها في هذه اللحظة تصعد إلى الطائرة.

رتبت شريط حقيبة يدها، ووقفت. مشت بخطوات سريعة ورأس مرفوع. حافظت على النظارة والشعر المستعار والأسنان المستعارة. تمامًا كما تظهر عليه صورة ليزا شرمان في جواز سفرها.

كانت على مسافة أربع بوابات من الطائرة عندما سمعت جزءًا من تقرير على قناة «سي.أن.أن.» توقفت عن السير فجأة، فاصطدم بها رجل يجر حقيبة أمتعة ضخمة. وجه إليها بيده إشارة وقحة، كما لو أنها عرقلت سيره على الطريق السريع. لكنها تجاهلته وبقيت عيناها مسمرتين على الشاشة.

كانت المذيعة تقدم التقرير. وفي الزاوية اليمنى من الشاشة صورة لصديقتها القديمة ريبيكا شايس وبقربها صورة... بِكْ.

سارعت للاقتراب من الشاشة. تحت الصورتين كانت كلمات مكتوبة بلون الدم القاني: **«الموت في الغرفة المظلمة»**.

«... دايفيد بِكْ مشتبه به في جريمة القتل. ولكن هل هي الجريمة الوحيدة التي يُعتقد أنه ارتكبها؟ جاك تيرنر من «سي.أن.أن» يخبرنا المزيد عن هذا الموضوع.»

إختفت المذيعة عن الشاشة، وظهر مكانها رجلان يرتديان معطف شرطة نيويورك ويجران كيس جثث أسود على حمالة. عرفت المبنى فورًا وكادت تشهق. ثماني سنوات. لقد مرت ثماني سنوات ولا يزال ستوديو ريبيكا في المكان نفسه.

بدأ رجل، يُفترض أنه جاك تيرنر بتلاوة التقرير:

«إنها رواية متشابكة الخيوط. جريمة القتل هذه طاولت واحدة من أفضل مصوري الموضة في نيويورك. تم العثور على ريبيكا شايس جثة هامدة في غرفة التصوير المظلمة، مصابة برصاصتين في الرأس من مسافة قريبة.»

ظهرت صورة لريبيكا بابتسامة مشرقة. تابع التقرير يقول:

«المشتبه به هو صديق قديم لها، الدكتور دايفيد بِكْ، طبيب الأطفال في شمال المدينة.»

twitter @baghdad_library

ثم ظهرت صورة بِكْ، غير باسم، على الشاشة. فكادت تسقط أرضًا.

«نجا الدكتور بِكْ من الاعتقال في وقت سابق اليوم بعد اعتدائه على شرطي. ولا يزال فارًا، ويُعتبر مسلحًا وخطيرًا. إذا كانت لديكم معلومات عن مكان وجوده...»

ظهر رقم هاتف باللون الأصفر. قرأه جاك تيرنر ثم تابع تقريره:

«ولكن ما زاد في غموض هذه القصة، هي التسريبات القادمة من مركز الشرطة الفدرالية في مانهاتن. يبدو أنه تم ربط الدكتور بِكْ بمقتل رجلين اكتُشفت جثتاهما مؤخرًا في بنسلفانيا، في مكان غير بعيد من المنزل الصيفي لأسرة الدكتور بِكْ. أما الصدمة الكبرى على الإطلاق، فهي أن الدكتور دايفيد بِكْ مشتبه به أيضًا في جريمة قتل زوجته إليزابيت منذ ثماني سنوات.»

ظهرت على الشاشة صورة لامرأة كادت ألا تتعرّف عليها. شعرت فجأة بأنها عارية ومحاصرة. ثم اختفت صورتها لتعود الكاميرا مجددًا إلى المذيعة التي سألت المراسل:

«جاك، ألم يكن الاعتقاد سائدًا بأن إليزابيت بِكْ ضحية القاتل المتسلسل إلروي كيلرتون، المعروف بروي السفاح؟»

– صحيح. السلطات لا تفصح عن الكثير في الوقت الراهن، والمسؤولون ينفون هذه التقارير. ولكن التسريبات تأتي إلينا من مصادر موثوقة جدًا.

– هل عرفت الشرطة ما الدافع إلى تلك الجرائم، يا جاك؟

– لم نعرف الدوافع حتى الآن. ثمة تكهنات حول علاقة حب تنافسية على امرأة واحدة. السيدة شايس متزوجة من غاري لامونت، الذي يرفض حاليًا الخروج من عزلته. لكن ما يُقال لا يتعدى كونه مجرد تخمين في الوقت الراهن.

كانت تحدق إلى شاشة التلفزيون، وشعرت بعينيها تغرورقان بالدموع.

– وهل لا يزال الدكتور بِكْ طليقًا الليلة؟

– نعم، والشرطة تطلب تعاون المواطنين، ولكنها تشدد على أنه لا ينبغي لأحد الاقتراب منه بمفرده.

تبع ذلك بعض الثرثرة الفارغة.

إستدارت بعيدًا. ريبيكا. يا إلهي! ريبيكا لا. لقد تزوجت. لعلها اختارت الفساتين وآنية الخزف الصيني، وقامت بكل تلك الأمور التي دأبتا على الهزء بها. كيف؟ كيف تورطت ريبيكا في هذا؟ لم تكن ريبيكا تعلم شيئًا.

لماذا قتلوها؟

فجأة، عادت إليها الفكرة عينها، بقوة أكبر: «ماذا فعلتُ؟»

لقد عادت. فبدأوا البحث عنها. كيف تصرفوا؟ أمر بسيط. بمراقبة القريبين منها. يا لغبائها. عرّضت عودتها جميع العزيزين عليها إلى الخطر. لقد أفسدت كل شيء، وها هي صديقتها الحميمة قد ماتت.

«الرحلة 174 إلى لندن على متن طائرة الخطوط الجوية البريطانية. يُطلب من جميع الركاب الصعود إلى الطائرة حالًا.»

لا وقت لديها لتوبيخ الذات. فكري. ماذا يجب عليها أن تفعل الآن؟ كان أحباؤها في خطر. بِكْ، والذي تذكرت فجأة تنكره السخيف، كان هاربًا. كان في مواجهة أشخاص أقوياء، وإذا كانوا يحاولون إلصاق تهمة القتل به، الأمر الذي أصبح واضحًا الآن، فلن تكون لديه أية فرصة بالنجاة.

لا يمكنها أن ترحل. لا يمكنها ذلك الآن. ليس قبل أن تطمئن إلى أن بِكْ بأمان.

إستدارت وتوجهت إلى باب الخروج.

عندما شاهد بيتر فلانري أخيرًا التقرير الإخباري حول مطاردة دايفيد بِكْ، أخذ الهاتف واتصل بصديقٍ له في مكتب النائب العام.

سأل فلانري: «من يتولى قضية بِكْ؟»

– فين.

فكر فلانري: «أحمق حقيقي.» ثم قال:

– رأيتُ رجلكم اليوم.

– دايفيد بِكْ؟

– نعم، لقد زارني.

– لماذا؟

twitter @baghdad_library

دفع فلانري بكرسيه المريح إلى الخلف، وقال:
«ربما عليك أن تصلني بفين.»

35

مع هبوط الليل، وجد لي تايريز غرفة في شقة إحدى نسيبات لاتيشا. كان من الصعب أن نتخيل أن الشرطة ستكتشف علاقتي بتايريز. لكن لِمَ المجازفة؟

كان لتايريز جهاز كمبيوتر محمول، فاتصلنا عبره بالإنترنت. دققت في بريدي الإلكتروني على أمل أن أجد رسالة من مراسلي الغامض. لا شيء. في حساب العمل الخاص بي. لا شيء. تحققت من حسابي الجديد على موقع بيغ فوت دوت كوم. ما من شيء هناك أيضًا.

كان تايريز ينظر إلي بطريقة غريبة منذ غادرنا مكتب فلانري، وسألني:

– هل يمكن أن أطرح عليك سؤالًا يا دوك؟

– سلْ.

– حين تحدث ذلك الثرثار عن الرجل الذي قُتل...

– براندون سكوب.

– نعم. هو. بدوتَ وكأنك تلقيت صعقة كهربائية.

كان ذلك ما شعرت به بالفعل. سألته: « أتتساءل لماذا؟»

رفع تايريز كتفيه.

– عرفتُ براندون سكوب. كان وزوجتي يتشاطران مكتبًا في مؤسسة خيرية في المدينة. كما أن أبي نشأ مع أبيه وعمل لديه في ما بعد. الواقع،

twitter @baghdad_library

كان والدي مكلفًا مهمة تعريف براندون على مجموعة الشركات التي تملكها العائلة.

قال تايريز:

– آه هه. وماذا أيضًا؟

– ألا يكفي هذا؟

لبث تايريز ينتظر. إستدرت لمواجهته، فنظر إليّ بعينين لا ترفّان، وشعرت للحظة أنه يستطيع أن يرى حتى أشد الزوايا حلكة في روحي. لحسن الحظ أن تلك اللحظة مرت. قال تايريز:

– ما تنوي القيام به الآن؟

– إجراء بعض المكالمات الهاتفية. هل أنت متأكد من أنه يستحيل تعقبها إلى هنا؟

– لا أرى كيف يمكن ذلك. سنفعل ذلك بمكالمة جماعية إلى هاتف خلوي، وهو ما سيجعل تعقبها أصعب بكثير.

أومأت برأسي موافقًا. أعد تايريز للمكالمة. وكان علي الاتصال برقم آخر وأقول لشخص ما لا أعرفه، أية أرقام يطلب. توجه تايريز نحو الباب، قائلًا: «سأذهب للاطمئنان إلى تي جاي، وأعود بعد ساعة.»

– تايريز؟

إلتفت إلى الخلف. أردت أن أقول له شكرًا ولكن ذلك لم يبدُ لي ذلك مناسبًا. فهم تايريز ما يدور في خلدي، فقال لي: «أريدك أن تبقى على قيد الحياة يا دوك. من أجل طفلي. هل فهمت؟»

أومأت برأسي إيجابًا، وانصرف. نظرت في ساعتي قبل الاتصال بالهاتف الخلوي لشونا. أجابت بعد الرنة الأولى: «آلو؟»

سألتها: «كيف حال كلوي؟»

– في أحسن حال.

– كم كيلومترًا مشيتما؟

– خمسة على الأقل، بل ستة إلى ثمانية.

بدأت أشعر بالارتياح.

– ماذا سنفعل بعد...

إبتسمتُ وقطعت الاتصال. ثم اتصلتُ بصديقي الذي يعيد توجيه المكالمات وأعطيته رقمًا آخر. تمتم يقول إنه ليس عامل مقسم هاتف، لكنه فعل ما طلبته منه.

أجابت هيستر كرايمشتاين بحدة، وكأنها تنهش سماعة الهاتف: «ماذا؟»

قلت بسرعة: «أنا بِكْ. هل بإمكانهم التنصت علينا أم أننا في إطار حماية خصوصية المحامي مع موكله؟»

ساد تردد غريب للحظة، ثم قالت: «يمكنك التكلم بأمان.»

بدأت كلامي بالقول:

– كان لدي سبب للهرب.

– كالشعور بالذنب؟

– ماذا؟

ساد تردد آخر، أضافت هيستر:

– آسفة يا بِكْ. لقد أفسدتُ الأمور. عندما هربتَ هكذا أصبتُ بالهلع، وقلت بعض الأشياء الغبية لشونا. وتخليت عن مهمة الدفاع عنك.

– لم تخبرني بذلك. أنا بحاجة إليك يا هيستر.

– لن أساعدك على الهرب.

– لا أريد الهرب بعد الآن. أريد الاستسلام، لكن بشروطنا.

– لست في موقع يسمح لك بإملاء الشروط يا بِكْ، سيسجنونك تحت الحراسة المشددة، ولا تأمل الخروج بكفالة.

– لنفترض أنني قدمت دليلًا على أنني لم أقتل ريبيكا شايس.

سادت لحظة أخرى من التردد، وقالت هيستر:

– هل يمكنك أن تفعل ذلك؟

– نعم.

– أي دليل؟

– حجة غياب متينة.

twitter @baghdad_library

– من سيقدمها؟

قلت: «حسنًا، هذا هو الجزء المثير للاهتمام.»

أخذ العميل الخاص كارلسون هاتفه الخلوي، وقال: «نعم؟»

قال شريكه ستون: «لدينا شيء آخر.»

– ماذا؟

– زار بِكْ ثرثارًا تافهًا اسمه فلانري قبل ساعات، ومعه فتى أسود من الأزقة.

قطب كارلسون حاجبيه، وقال:

– إعتقدتُ أن هيستر كرايمشتاين هي محاميته.

– لم يكن يسعى إلى توكيل محامٍ. أراد الاستفسار حول قضية قديمة.

– ما هي؟

– ألقي القبض على أحد صغار المجرمين واسمه غونزاليس بتهمة قتل براندون سكوب قبل ثمانية أعوام. وقد قدمت إليزابيت بِكْ حجة غياب مذهلة لذاك الرجل. أراد بِكْ أن يعرف كل شيء عن الأمر.

شعر كارلسون برأسه يدور. كيف ذلك... ثم قال:

– هل هناك المزيد؟

– هذا كل شيء. أين أنت؟

– سأتحدث إليك لاحقًا يا توم.

أنهى كارلسون المكالمة وطلب رقمًا آخر.

أجاب صوت يقول: «المركز الوطني لتعقب المعلومات.»

– أتعملين حتى وقت متأخر يا دونا؟

– وأهم بالخروج من هنا يا نيك. ماذا تريد؟

– خدمة كبيرة حقًا.

«لا.» ثم تنهدت بعمق وقالت: «ماذا؟»

– أما زلت تحتفظين بالمسدس عيار 38 الذي وجدناه في صندوق ودائع سارة غودهارت؟

– ما به؟

قال لها ما أراد، وعندما انتهى، قالت:

– أنت تمزح، أليس كذلك؟

– تعرفينني يا دونا، لست صاحب حس فكاهة.

– إنها الحقيقة.

تنهدت وتابعت:

– سأقدم طلبًا، ولكن ما من سبيل لتحقيق ذلك الليلة.

– شكرًا دونا. أنت الأفضل.

حين دخلت شونا بهو المبنى سمعت صوتًا ينادي باسمها.

– معذرة، السيدة شونا؟

نظرت إلى الرجل بشعره اللامع والبذلة الغالية الثمن، فسألته: «وأنت؟»

– العميل الخاص نيك كارلسون.

– طابت ليلتك سيدي العميل.

– نعرف أنه اتصل بك.

ربتت شونا على فمها متظاهرة بالتثاؤب، وأجابت:

– لا شك بأنكم تشعرون بالفخر.

– هل سبق لك أن سمعت بتعبير «التواطؤ وإيواء مجرم مرتكب»؟

قالت بنبرة رتيبة مبالغ بها:

– توقف عن إخافتي، أو أتبول هنا على هذا السجاد الرخيص.

– هل تعتقدين بأنني أخدعك؟

مدت يديها نحوه جامعة معصميها، وقالت له: «إقبض علي أيها الوسيم.» ثم ألقت نظرة خاطفة وراءه، وسألته: «أليس من عادتكم أن تأتوا في فريق من شخصين؟»

– أنا هنا وحدي.

– لاحظت ذلك. هل يمكنني أن أصعد الآن؟

twitter @baghdad_library

سوّى كارلسون نظارته، وقال: «لا أعتقد أن الدكتور بِكْ قتل أحدًا.»
جمدها قوله في مكانها.

– لا تسيئي فهمي. ثمة أدلة كثيرة إلى أنه القاتل. زملائي جميعًا مقتنعون بأنه مذنب. وهو لا يزال محل ملاحقة كبرى من الشرطة.

قالت شونا وقد بان الشك جليًا في نبرة صوتها:

– آه هه، ومع ذلك، استطعتَ أن ترى الحقيقة؟

– أظن أن شيئًا آخر يحدث هنا.

– ما هو؟

– كنت أرجو أن تخبريني أنت.

– وإذا شككت أن هذه خدعة؟

رفع كارلسون كتفيه، وأجاب:

– لا أستطيع الكثير حيال ذلك.

فكرت في ذلك، ثم قالت:

– غير مهم، لا أعرف شيئًا.

– تعرفين أين يختبئ.

– لا.

– وإذا كنت تعرفين؟

– لن أخبرك، ولكنك تعرف ذلك.

– أعرف، أظنك لن تخبريني ما معنى الحديث حول أخذ كلبته في نزهة.

هزت رأسها علامة النفي. وأضافت:

– ولكنك لن تلبث أن تعرف.

– تعرفين أنه سيتعرض للأذى إذا ظل هاربًا. صديقك اعتدى على شرطي، وهذا ما يجعله محل مطاردة مفتوحة.

لم تطرف شونا، وأجابت:

– لا أستطيع الكثير حيال ذلك.

– أظنك لا تستطيعين.

– هل بإمكاني أن أسألك شيئًا؟

قال كارلسون: «سلي.»

– لماذا لا تظنه مذنبًا؟

– لست واثقًا. بسبب الكثير من الأمور الصغيرة على ما أظن.

ثم أمال كارلسون رأسه، وسألها:

– أتعلمين أن مقعدًا على متن طائرة متجهة إلى لندن كان محجوزًا باسم بِكْ؟

جالت شونا بنظراتها على البهو، محاولة أن تكسب ثانية أو اثنتين. دخل رجل وابتسم ابتسامة إعجاب لها، لكنها تجاهلته. وأخيرًا قالت: «هراء.»

قال كارلسون:

– أنا عائد من المطار، التذكرة محجوزة منذ ثلاثة أيام. ولكنه طبعًا لم يحضر. الأمر الغريب حقًا هو أن بطاقة الائتمان المستخدمة في شراء التذكرة كانت باسم لورا ميلز. هل يعني هذا الاسم شيئًا لك؟

– هل يُفترض به أن يعني؟

– ربما لا. ما زلنا نحقق في الأمر ولكن يبدو أنه اسم مستعار.

– لِمن؟

رفع كارلسون كتفيه، ثم سألها:

– هل تعرفين امرأة تُدعى ليزا شرمان؟

– لا، ما دورها في الأمر؟

– حجزت لنفسها في الرحلة عينها إلى لندن. وفي الواقع كان من المفترض أن تجلس بجوار رجلنا.

– ولم تحضر هي الأخرى؟

– ليس هذا ما حدث بالضبط. سجلت وصولها للسفر، ولكن عند النداء على ركاب الرحلة، لم تستقل الطائرة مطلقًا. غريب، ألا تظنين ذلك؟

قالت شونا:

– لا أعلم في ما ينبغي أن أفكر.

– لسوء الحظ، لم يستطع أحد أن يعطينا أوصاف ليزا شرمان، فهي لم تسجل أية أمتعة، كما استخدمت آلة تذاكر إلكترونية. فبدأنا البحث، واحزري ما وجدنا.

twitter @baghdad_library

هزت شونا رأسها.

أجاب كارلسون:

– لا شيء. يبدو أنه اسم مستعار آخر. هل سمعت باسم براندون سكوب؟

تجمدت شونا في مكانها وقالت:

– يا للجحيم، ما هذا؟

– لقد زار الدكتور بِكْ، ومعه رجل أسود، محاميًا يُدعى بيتر فلانري اليوم. كان فلانري محامي الدفاع عن مشتبه به في جريمة قتل براندون سكوب. سأله الدكتور بِكْ عن ذلك وعن دور إليزابيت في الإفراج عنه. أتعرفين لماذا؟

بدأت شونا تبحث بداخل حقيبتها.

– هل تبحثين عن شيء ما؟

– عن سيجارة، هل لديك سيجارة؟

– آسف، لا.

– اللعنة.

توقفت ونظرت في عينيه، وسألته:

– لماذا تخبرني كل هذا؟

– لدي أربع جثث. أريد أن أعرف ما يحدث.

– أربع؟

– ريبيكا شايس، ملفين بارتولا، روبرت وولف، وهما الرجلان اللذان وجدناهما قرب البحيرة، وإليزابيت بِكْ.

– روي السفاح هو الذي قتل إليزابيت.

هز كارلسون رأسه علامة النفي.

– ما الذي يجعلك متأكدًا هكذا؟

رفع أمامها الظرف الأسمر، وقال: «أوّلًا، هذا.»

ما هذا؟

– ملف تشريح جثتها.

إبتلعت شونا ريقها. وتملكها الخوف، وأحست بتنميل في أصابعها. ها هو امتحان الحقيقة الفعلي. بذلت جهدًا كبيرًا لتحافظ على نبرة صوتٍ ثابتة، وسألته:

– أيمكنني أن أُلقي نظرة؟

– لماذا؟

لم تجب.

– والأهم من ذلك، لماذا كان بِكْ متلهفًا لرؤيته؟

قالت: «لا أعلم ماذا تعني.» ولكن كلماتها بدت جوفاء في أذنيها، وفي أذنيه، بلا شك.

سألها كارلسون:

– هل كانت إليزابيت بِكْ تتعاطى المخدرات؟

كان السؤال مفاجئًا تمامًا، فأجابت:

– إليزابيت؟ إطلاقًا لا.

– أنت متأكدة؟

– طبعًا، لقد عملت مع مدمني المخدرات. كان ذلك جزءًا من تدريبها.

– أعرف كثيرين من أفراد شرطة الآداب، ممن يستمتعون ببضع ساعات مع المومسات.

– لم تكن كذلك. لم تكن إليزابيت نموذجًا للالتزام الصارم، ولكن المخدرات؟ هذا محال.

رفع الظرف الأسمر مجددًا، وقال لها:

– أظهر تقرير السموم وجود الكوكايين والهيروين في جسمها.

– لا شك بأن روي السفاح أرغمها على تناولها.

قال كارلسون: «لا.»

– ما الذي يجعلك متأكدًا بهذا الشكل؟

– هناك تحاليل أخرى يا شونا، فحوص الأنسجة والشعر. إنها تُظهر إدمانًا يعود إلى الوراء عدة أشهر على الأقل.

شعرت شونا بساقيها تخونانها، فاستندت إلى أحد الجدران، وقالت:

twitter @baghdad_library

– إسمع يا كارلسون، توقف عن ممارسة الألاعيب معي. دعني أرى التقرير.

بدا وكأنه يفكر في الأمر، ثم قال: ما رأيك بهذا؟ سأدعك ترين ورقة واحدة هنا. لك أن تختاري أية ورقة تشائين، ما رأيك؟

– يا للجحيم، ما هذا يا كارلسون؟

– طابت ليلتك يا شونا.

– مهلًا، مهلًا. توقف قليلًا.

لعقت شفتيها، وفكرت في الرسائل الإلكترونية الغريبة. فكرت في هروب بِكْ من رجال الشرطة. فكرت في جريمة قتل ريبيكا شايس، وتقرير السموم الذي لا يمكن أن يكون صحيحًا. فجأة شعرت أن عرضها حول استخدام خدعة التصوير الرقمي لم يعد مقنعًا.

قالت: «صورة، دعني أرى صورة للضحية.»

إبتسم كارلسون وقال:

– هذا مثير جدًا للاهتمام.

– لماذا؟

– ليس ثمة صور هنا.

– ولكنني ظننت...

قاطعها كارلسون قائلًا:

«ولا أنا أفهم ذلك أيضًا. إتصلت بالدكتور هاربر، وهو كان الطبيب الشرعي المولج بهذا. طلبت منه معرفة ما إذا كان شخص آخر قد طلب هذا الملف، وهو في هذه الأثناء يبحث.»

– أتقول إن شخصًا ما سرق الصور؟

رفع كارلسون كتفيه، وقال:

– هيا يا شونا. أخبريني ما يجري.

كانت على وشك أن تفعل ذلك. كانت على وشك أن تخبره عن الرسائل الإلكترونية، وعن الرابط التشعبي لكاميرا الشارع. ولكن بِكْ كان حازمًا. هذا الرجل برغم كل كلامه المنمق، قد يكون العدو. سألته:

– هل يمكنني أن أرى بقية الملف؟

قرّبه منها ببطء. قالت في نفسها: «تبًا للكرامة.» فتقدمت منه وانتزعت الملف من يده. فتحته بحركة سريعة ووجدت الورقة الأولى. فيما كانت عيناها تجوبان الصفحة حتى أسفلها، شعرت بكتلة من الجليد تتكون وتقسو في معدتها. رأت طول الجثة ووزنها فكتمت صرخة.

سألها كارلسون: «ماذا؟»

لم تجب.

رن هاتف خلوي، أخرجه كارلسون من جيب سرواله، وقال مجيبًا: «كارلسون.»

– أنا تيم هاربر.

– هل وجدت السجلات القديمة؟

– نعم.

– أهناك شخص آخر طلب ملف تشريح جثة إليزابيت بِكْ؟

قال هاربر:

– منذ ثلاث سنوات، بعد إدراجه في مستودع المحفوظات مباشرة، طلبه شخص.

– من؟

– والد القتيلة، وهو أيضًا ضابط شرطة يدعى هويت باركر.

twitter @baghdad_library

36

جلس لاري غاندل في مقابل غريفن سكوب. كانا في الخارج، تحت ظلة الحديقة خلف قصر سكوب. وكان الليل قد بسط ظله الحالك فوق البساتين المشذبة. كانت صرارات الليل تدندن لحنًا يكاد يكون جميلًا، وكأنما هي الأخرى في خدمة كبار الأثرياء. وانسابت أنغام البيانو رنانة بعذوبة عبر الأبواب الزجاجية المنزلقة، وكنت أنوار المنزل تضيء الخارج بظلال خفيفة من اللونين الأحمر الناري، والأصفر.

كان كلا الرجلين في سروال من القماش الكاكي السميك. وارتدى لاري قميص بولو أزرق، أما غريفن فارتدى قميصًا حريريًا صنعه له خياطه الخاص في هونغ كونغ. كان لاري ينتظر، وفي يده كوب بيرة يبردها به. راح يراقب جانب الرجل العجوز الجالس والذي ظهر كجانب وجه مسكوك على عملة، في مواجهة الفناء الخلفي الشاسع لمنزله، شامخ الأنف قليلًا، عاقدًا إحدى ساقيه فوق الأخرى، يده اليمنى تتدلى من على ذراع الكرسي، وفي كأسه يلتمع شراب بلون العنبر.

سأل غريفن: «ألا تعرف أين هو؟»

– لا أعرف شيئًا.

– والرجلان الأسودان اللذان أنقذاه؟

– أجهل تمامًا ما دورهما في الأمر، لكن وو يتحرى ذلك.

إحتسى غريفن جرعة من شرابه، وكان الوقت طويلًا وحارًا ودبقًا. ثم سأل لاري:

– هل تعتقد حقًا أنها ما زالت حية؟

كان لاري على وشك الاسترسال في سرد طويل، يقدم فيه الأدلة المؤيدة والأدلة المعارضة، ويُظهر كل الاحتمالات والإمكانيات. ولكنه وعندما فتح فمه، اكتفى بأن أجاب ببساطة «نعم.»

أغمض غريفن عينيه، وسأل ضيفه:

– هل تتذكر يوم ولادة طفلك الأول؟

– نعم.

– هل حضرت الولادة؟

– نعم.

قال غريفن:

– في عهدنا لم نكن نفعل ذلك. كنا نحن الآباء نسير بين جدران قاعة الانتظار، ونقرأ بعض المجلات القديمة. أتذكر الممرضة حين خرجت من الغرفة لتأتي بي. إقتادتني عبر الرواق، ولا أزال أتذكر أنني انعطفت عند زاوية، لأرى أليسون تحمل براندون. كان شعورًا غريبًا جدًا يا لاري. فقد أحسستُني أمتلئ بشيء ما حتى ظننتُني سأنفجر. كاد الشعور يكون أقوى مما يُحتمَل، وأعظم مما يُحتمَل. شعور لا يمكن سبر أغواره أو فهمه. أفترض أن جميع الآباء يختبرون مشاعر مماثلة.

توقف عن الكلام. نظر إليه لاري فرأى الدموع تسيل على خدي العجوز، وتتألق في الضوء الخفيف. لم يحرك لاري ساكنًا. تابع غريفن يقول:

– لعل الشعورين الأكثر بديهية في ذلك اليوم هما السعادة والخشية. الخشية بمعنى أن المرء قد أصبح الآن مسؤولًا عن هذا الشخص الصغير. ولكن ثمة شيئًا آخر أيضًا. شيء لم أدركه، لم أدركه آنذاك في كل حال. لم أدركه حتى اليوم الأول لبراندون في المدرسة.

twitter @baghdad_library

بُح صوت الرجل العجوز، فسعل قليلًا، وشاهد لاري المزيد من الدموع. بدت موسيقى البيانو أرق، وصمتت صرارات الليل، وكأنها تصغي أيضًا. إستأنف سكوب قائلًا:

– إنتظرنا الحافلة المدرسية معًا، وكنت أمسك بيده. كان عمر براندون آنذاك خمس سنوات. رفع عينيه إلي كما يفعل الأطفال في هذه السن. كان يرتدي سروالًا بني اللون عليه، حتى آنذاك، بقعة عشب عند الركبة. أتذكر كيف توقفت الحافلة الصفراء، وصوت بابها عند فتحه. ترك براندون يدي وراح يتسلق الدرجات. أردت أن أمد يدي وأنتزعه من الحافلة وآخذه إلى المنزل، ولكنني وقفت هناك جامدًا. سار في داخل الحافلة وسمعت صوت الباب مرة أخرى وهو يُغلق. جلس براندون بجوار نافذة، وكان باستطاعتي أن أرى وجهه. لوح لي بيده، فلوحت له بدوري، وفيما كانت الحافلة تبتعد قلت لنفسي: «ها هو عالمي كله يختفي.» تلك الحافلة الصفراء بجوانبها المعدنية الواهية، وسائقها الذي لا أعرفه أبدًا، كانا يقلان بعيدًا ما كان في الواقع كل شيء بالنسبة إلي. وآنذاك أدركت ما شعرت به يوم ولادته. إنه الرعب. لا الخشية فقط. الرعب المجرد والصرف. قد نخشى المرض أو الشيخوخة أو الموت، ولكن شيئًا في العالم لا يشبه تلك الكتلة من الرعب التي تكونت في أحشائي حين شاهدت الحافلة تنطلق بعيدًا. هل تفهم ما أقوله؟

أومأ لاري برأسه وأجاب:

– أظنني أفهم.

– أدركت حينئذ، في تلك اللحظة، أن مكروهًا قد يصيبه برغم كل الجهود التي أبذلها، وأنّني لن أكون دائمًا إلى جانبه لأتلقى الضربات عنه. كانت تلك الفكرة تؤرقني. أظن هذا شأننا جميعًا. ولكن عندما حدث ذلك...

توقف عن الكلام، وأخيرًا استدار نحو لاري غاندل. وقال:

– ما زلت أحاول استعادته، ما زلت أحاول أن أعقد صفقة مع الله أقدم له فيها كل شيء مقابل أن يُعيد براندون إلى الحياة بطريقة ما. لن يحدث الأمر بالتأكيد. أدرك ذلك. ولكنك تأتي الآن إلي وتخبرني أنه وفيما ابني، عالمي كله، يتفسخ تحت التراب... ما زالت هي حية.

بدأ يهز رأسه، وأضاف:

– لا يمكنني القبول بذلك يا لاري. هل تفهمني؟

قال لاري: «أفهم.»

– فشلتُ في حمايته مرة. لن أفشل من جديد.

إلتفت غريفن سكوب نحو حديقته، وأخذ جرعة أخرى من شرابه. فهم لاري غاندل، فوقف وسار مبتعدًا في ظلام الليل.

عند العاشرة ليلًا، اقترب كارلسون من الباب الأمامي للمنزل رقم 28 في شارع غودهارت. لم يبالِ كثيرًا بقدومه في ساعة متأخرة، فقد شاهد الأنوار في الطابق الأسفل، ووميض تلفزيون. ولكن حتى من دون ذلك كله، كان ما يقلقه أكبر من أن يكترث لمقاطعة نوم مبكر لشخص ما.

كان على وشك أن يمد يده ليرن الجرس حين فُتِح الباب، فرأى أمامه هويت باركر. لهنيهة، وقف الاثنان كملاكمين يلتقيان في الحلبة، يحملق كل منهما في الآخر، من رأسه حتى أخمص قدميه، فيما الحكم يكرر تعليمات لا معنى لها حول الضربات المنخفضة، وعدم اللكم أثناء الفواصل.

لم ينتظر كارلسون جرس البدء بالمباراة، فسأل هويت:

– هل كانت ابنتك تتعاطى المخدرات؟

كانت ردة فعل هويت باركر الوحيدة أنه رمش بعينيه. وسأل كارلسون:

– لماذا تريد أن تعرف؟

– هل لي أن أدخل؟

قال هويت وهو يخرج ويغلق الباب وراءه:

– زوجتي نائمة، أتمانع لو تكلمنا هنا؟

– كما تشاء.

عقد هويت ذراعيه وترجح فوق عِقبيه قليلًا. كان رجلًا قوي البنية يرتدي سروال جينز أزرق، وقميصًا كان يلائمه أكثر قبل أن يزداد وزنه خمسة كيلوغرامات. يعلم كارلسون أن هويت باركر شرطي مخضرم، ولن تُفيد معه لا المراوغة ولا الدهاء.

twitter @baghdad_library

سأله كارلسون: «هل ستجيب على سؤالي؟»

أجاب هويت: «هل ستخبرني أنت لماذا تريد أن تعلم؟»

قرر كارلسون تغيير التكتيك، فسأله:

– لماذا أخذت صور الجثة من ملف ابنتك؟

أجاب، بغير استهجان أو اعتراض صاخب:

– ما الذي يجعلك تعتقد أنني أخذتها؟

أجاب كارلسون:

– قرأت تقرير التشريح اليوم.

– لماذا؟

– عفوًا؟

– إبنتي ميتة منذ ثماني سنوات، وقاتلها في السجن. ومع ذلك قررتَ النظر إلى تقرير تشريحها اليوم. أود أن أعرف السبب.

كان الحديث يتجه نحو طريق مسدود وبسرعة. فقرر كارلسون أن يقدم القليل، وأن يتخلى عن حذره، وأن يكشف له بعض الأوراق، فيرى ما يحدث. قال لباركر:

– زار صهرك مكتب الطبيب الشرعي في المقاطعة أمس، وطالب برؤية ملف تشريح زوجته. كنت آمل أن أعرف السبب.

– هل رأى تقرير التشريح؟

– لا، هل تعرف ما سبب لهفته لرؤية التقرير؟

– لا.

– ولكنك تبدو قلقًا.

– أنا مثلك تمامًا، أجد هذا السلوك مثيرًا للشبهة.

قال كارلسون:

– وأكثر من ذلك، أردت أن تعلم ما إذا كان قد حصل عليه فعلًا، لماذا؟

رفع هويت كتفيه.

– هل ستخبرني عما فعلته بصور تقرير التشريح؟

أجاب بصوت منخفض: «لا أعلم عما تتحدث.»

– أنت الشخص الوحيد الذي طلب الاطلاع على هذا التقرير.

– وماذا يثبت هذا الأمر؟

– هل كانت الصور موجودة عندما شاهدت الملف؟

إختلجت عينا هويت، ولكنه تأخر قليلًا في الإجابة، ثم قال:

– نعم، كانت موجودة.

لم يتمالك كارلسون نفسه من الابتسام، وقال: «إجابة جيدة.» كان السؤال فخًا وقد تجنبه هويت. تابع يقول لهذا الأخير:

– لو أجبتني بلا، لتساءلتُ لما لم تبلغ عن فقدانها آنذاك، أليس كذلك؟

– لديك عقل شديد الارتياب، أيها العميل كارلسون.

– آه هه. هل تعرف أين يمكن أن تكون هذه الصور؟

– ربما حدث خطأ في تخزينها.

– بالتأكيد. لا يبدو أنك منزعج للغاية بشأن ذلك.

– ماتت ابنتي، وأقفلت قضيتها. لماذا سيزعجني ذلك؟

كانت هذه مضيعة للوقت أو ربما لم تكن كذلك. لم يكن كارلسون يحصل على الكثير من المعلومات ولكن سلوك هويت كشف الكثير.

– إذًا فما زلت تعتقد أن روي السفاح قتل ابنتك؟

– بدون أدنى شك.

رفع كارلسون في يده تقرير التشريح، وسأله:

– حتى بعد قراءة هذا؟

– نعم.

– ألا يقلقك أن الكثير من الجروح حدث بعد الوفاة؟

– بل يريحني ذلك، يعني أن ابنتي عانت أقل.

– هذا ليس ما أعنيه. أقصد الأدلة ضد كيلرتون.

– لا أرى شيئًا في الملف يتناقض مع هذا الاستنتاج.

– إنه لا يشبه الجرائم الأخرى.

قال هويت:

– لا أوافقك الرأي. ما لا يشبه الجرائم الأخرى هو قوة ابنتي البدنية.

twitter @baghdad_library

– لست متأكدًا من أنني أفهم.

– أعلم أن كيلرتون كان يستمتع بتعذيب ضحاياه، وأعلم أنه عادة ما كان يسمهن وهن على قيد الحياة، ولكننا افترضنا أن إليزابيت حاولت الهرب، أو على الأقل المقاومة. وارتأينا أنها قاومته بعنف، ما اضطره إلى إخضاعها، وفي النهاية، إلى قتلها. هذا ما يفسر جروح السكين على يديها، كما يفسر لماذا وسمها بعد موتها.

«فهمت.» كانت تلك لكمة يسرى مفاجئة. حاول كارلسون البقاء على قدميه. كانت إجابة جيدة، إجابة جيدة جدًا. حتى صغرى الضحايا تستطيع التسبب بالكثير من المتاعب. لقد ألغى شرحه كل التناقضات، بصورة رائعة. ولكن بقيت بعض المشاكل.

– وكيف تفسر تقرير السموم؟

– ليس ذا صلة. إن هذا كمن يسأل ضحية اغتصاب عن تاريخها الجنسي. غير مهم ما إذا كانت ابنتي ممتنعة عن المخدرات أو مدمنة.

– أي الاثنتين كانت؟

كرر قوله: «ليس الأمر ذا صلة.»

– لا شيء يُعتبر غير ذي صلة في تحقيق بجريمة قتل. أنت تعرف ذلك جيدًا.

اقترب منه هويت خطوة، وقال له: «كن حذرًا.»

– هل تهددني؟

– لا، أبدًا. أنا فقط أحذرك من المسارعة إلى الانقضاض على ابنتي من جديد.

وقفا متقابلين. رن جرس انتهاء الجولة الأخيرة. لكنهما كانا الآن ينتظران قرارًا سيكون غير مُرضٍ، كيفما مال الحكام.

قال هويت: «إذا كان هذا كل شيء...»

أومأ كارلسون برأسه، وتراجع خطوة. مد باركر يده إلى مقبض الباب.

– هويت؟

إستدار هويت نحوه.

قال كارلسون:

– فقط لكي لا يكون هناك أي سوء تفاهم، لم أصدق كلمة واحدة مما قلته منذ قليل. هل هذا واضح؟

– كل الوضوح.

twitter @baghdad_library

37

عندما وصلت شونا إلى الشقة ألقت بنفسها على البقعة المفضلة لديها من الأريكة. فجلست ليندا إلى جوارها وربتت على حجرها. وضعت شونا رأسها في حجر ليندا، وأغمضت عينيها، فيما راحت ليندا تداعب شعرها.

سألت شونا:

– هل مارك بخير؟

– نعم، أتمانعين أن تقولي لي أين كنت؟

– إنها قصة طويلة.

– إني جالسة هنا فقط بانتظار أن أسمع شيئًا عن أخي.

– لقد اتصل بي.

– ماذا؟

– إنه في أمان.

– الحمد لله.

– ولم يقتل ريبيكا.

– أعلم ذلك.

أدارت شونا رأسها لتنظر إلى الأعلى. كانت ليندا تطرف بعينيها، فقالت لها شونا:

– سيكون بخير.

أومأت ليندا برأسها وأشاحت بوجهها.

– ما الأمر؟

قالت ليندا: «أنا من التقطت تلك الصور.»

إستوت شونا جالسة، فتابعت ليندا تقول:

– جاءت إليزابيت إلى مكتبي، وكانت إصاباتها بالغة. أردت منها الذهاب إلى مستشفى، ولكنها رفضت. أرادت فقط توثيق ما حدث.

– ألم يكن حادث سيارة؟

هزت ليندا رأسها علامة النفي.

– من ضربها؟

– جعلتني أعدها بألا أُخبر أحدًا بذلك.

قالت شونا: «مضت ثماني سنوات، أخبريني.»

– الأمر ليس بهذه البساطة.

– طبعًا ليس بهذه البساطة!

ترددت شونا قليلًا، ثم أضافت: «لمَ تلجأ إليك على أية حال؟ وكيف يمكنك أن تفكري في حماية...» وتلاشى صوتها. ورمت بنظرة قاسية ليندا التي لم يطرف لها جفن، ولكن شونا فكرت في ما قاله لها كارلسون في الطابق السفلي.

قالت شونا بهدوء: «براندون سكوب.»

لم ترد ليندا.

– هو الذي ضربها. يا إلهي، لا عجب في أنها التجأت إليك. لقد أرادت إبقاء الأمر سرًا. لو أنها قصدتني أنا أو ريبيكا، لأرغمناها على الذهاب إلى الشرطة، ولكنك أنت لن تفعلي.

قالت ليندا: «جعلتني أعدها.»

– وهل قبلتِ بذلك، ببساطة؟

– ما كان يُفترض بي أن أفعل؟

– أن تجرّيها جرًّا إلى مركز للشرطة.

– حسنًا، لسنا جميعًا في شجاعتك وقوتك يا شونا.

– دعيني من هذا الهراء.

twitter @baghdad_library

أصرت ليندا، قائلة:

– لم ترد الذهاب. قالت إنها بحاجة إلى المزيد من الوقت، وإنها لا تملك أدلة كافية بعد.

– أدلة على ماذا؟

– على أنه اعتدى عليها، كما أظن. لا أعرف. أبت أن تصغي إلي، ولم أستطع أن أرغمها.

– أجل. ألم يكن هذا متوقعًا؟

– ماذا تعنين؟

– كنتِ منخرطة في مؤسسة خيرية تمولها أسرته، ويرئسها هو. ماذا كان ليحدث لو ذاع خبر أنه ضرب امرأة؟

– لقد جعلتني إليزابيت أعدها.

– وكنت سعيدة جدًا بالصمت. أليس كذلك؟ أردت حماية مؤسستك الخيرية اللعينة.

– هذا ليس عدلًا.

– فضلتِ المؤسسة على سلامتها.

صاحت ليندا:

– أتعرفين حجم أعمال الخير التي نقوم بها؟ أتعرفين عدد الناس الذين نساعدهم؟

قالت شونا: «على حساب دم إليزابيت.»

صفعتها ليندا على وجهها صفعة مؤلمة. ثم راحت كل منهما تحدق إلى الأخرى وهما تتنفسان بصعوبة. وقالت ليندا:

– أردت أن أبوح بالأمر، ولكنها لم تدعني. ربما كنت ضعيفة. لا أعرف ولكن إياك أن تقولي شيئًا كهذا.

– وعندما خُطفت إليزابيت عند البحيرة، بربك ماذا ظننت؟

– ظننتُ أن بين الأمرين صلة، فقصدت والد إليزابيت وأخبرته بكل ما أعرف.

– ماذا قال؟

– شكرني وقال لي إنه على علم بالأمر. كما طلب مني لي ألا أقول شيئًا لأن الوضع دقيق. وعندما أصبح واضحًا أن روي السفاح هو القاتل...

– قررتِ التزام الصمت.

– كان براندون سكوب قد مات. ما الفائدة التي سنجنيها من تشويه سمعته؟

رن جرس الهاتف، فأخذته ليندا، وأجابت، ثم تريثت. ثم أعطت الهاتف لشونا قائلة: «هذا لك.»

أخذت شونا سماعة الهاتف بدون أن تنظر إلى ليندا، وقالت: «آلو؟»

قالت لها هيستر كرايمشتاين: «قابليني في مكتبي.»

– لماذا علي أن أفعل ذلك؟

– لست بارعة في الاعتذار يا شونا. لذلك دعينا نتفق أنني مجرد حمقاء كبيرة وسمينة، ولنطوِ الصفحة. إستقلي سيارة أجرة وتعالي إلى هنا. لدينا رجل بريء علينا إنقاذه.

إقتحم مساعد النائب العام لانس فين غرفة الاجتماعات في مكتب كرايمشتاين، وله هيئة ابن عرس محروم من النوم، وقد تناول مقدارًا كبيرًا من المنبهات. تلاه الشرطيان في قسم جرائم القتل ديمونتي وكرينسكي. كانت وجوه الرجال الثلاثة مشدودة كأوتار البيانو.

وقفت هيستر وشونا إلى الجانب الآخر من الطاولة، ثم دعتهم هيستر بحركة من يدها، وقالت: «تفضلوا بالجلوس أيها السادة.»

نظر فين إليها، ثم رمى شونا بنظرة اشمئزاز صرف، وقال:

– لم آت إلى هنا حتى تتلاعبا بي.

قالت هيستر:

– لا، أنا على ثقة بأنك تتلاعب بنفسك بالقدر الكافي في منزلك.

– إذا كنت تعلمين أين هو...

– إجلس يا لانس، إنك تسبب لي صداعًا.

twitter @baghdad_library

جلس الجميع. رفع ديمونتي حذاءه المصنوع من جلد الثعبان ووضعه على الطاولة. بيديها الاثنتين دفعته هيستر عنها، من دون أن تفارقها الابتسامة، وقالت:

– نجتمع هنا أيها السادة، بهدف واحد: إنقاذ مستقبلكم المهني، فلنحقق ذلك.

– أريد أن أعرف...

– صه يا لانس. أنا أتحدث هنا. عملك هو الإصغاء، وربما هز الرأس علامة الموافقة، وقول أشياء مثل «نعم، سيدتي»، و«شكرًا، سيدتي»، وإلا قُضي عليك.

نظر إليها لانس شزرًا، وقال:

– أنت مَن تساعدين فارًا على الهروب من العدالة، يا هيستر.

– تبدو مثيرًا حين تتحدث بقوة يا لانس، لكنك في الواقع لست قويًا. أصغِ جيدًا لأنني لا أريد أن أكرر ما أقول. سأسدي لك معروفًا يا لانس. ولن أتركك تبدو أحمق كبيرًا في هذه القضية. أحمق، حسنًا، ما من شيء يمكن عمله في هذا الشأن، ولكن ربما إذا أصغيت جيدًا، لن تكون أحمق كبيرًا. هل أنت معي؟ جيد. أوّلًا، عرفتُ أنك حددت وبدقة ساعة وفاة ريبيكا شايس. منتصف الليل، بهامش نصف ساعة، هل نحن متفقون تمامًا على ذلك؟

– وبعد؟

نظرت هيستر إلى شونا، وسألتها:

– هل تريدين أن تقولي له؟

– لا، لا بأس.

– ولكنك أنتِ من قام بكل العمل الصعب.

قال فين: «كفى تفاهات يا كرايمشتاين.»

فُتح الباب وراءهما، وأحضرت سكرتيرة هيستر أوراقًا إلى رئيستها، بالإضافة إلى شريط كاسيت صغير. فقالت لها هيستر:

– شكرًا يا شيريل.

– على الرحب والسعة.

– يمكنك العودة إلى المنزل الآن، تأخري في القدوم غدًا.

– شكرًا.

إنصرفت شيريل، وأخرجت هيستر نظارتها ذات العدستين نصف الدائريتين، والتي تستعملها للقراءة، فوضعتها وبدأت بقراءة الصفحات.

– سئمتُ هذا يا هيستر.

– أتحب الكلاب يا لانس؟

– ماذا؟

– الكلاب، أنا شخصيًا لا أحبها كثيرًا، لكن هذه الكلبة... شونا، هل لديك تلك الصورة؟

– إنها هنا.

ورفعت شونا عاليًا صورة كبيرة لكلوي ليراها الجميع، وقالت:

– إنها كلبة من نوع الكولي الملتحي. أليست لطيفة يا لانس؟

وقف لانس فين، وكذلك فعل كرينسكي. أما ديمونتي فلم يتزحزح من مكانه. قال لانس:

– تحملت ما فيه الكفاية.

قالت هيستر:

– إذا انصرفتَ الآن، فستبول هذه الكلبة على مستقبلك المهني كمطفأة حرائق.

– ما الذي تقولينه؟

أعطت فين ورقتين، وتابعت تقول:

– تلك الكلبة تثبت أن بِكْ لم يرتكب الجريمة. كان في مقهى كينكوز الليلة الماضية. دخله مع هذه الكلبة، وعلمتُ أنه تسبب بإحداث بعض البلبلة. وها هي إفادات أربعة شهود مستقلين أكدوا قدوم بِكْ. لقد استأجر كمبيوترًا لبعض الوقت، أثناء وجوده هناك، وتحديدًا، من الثانية عشرة وأربع دقائق، وحتى الثانية عشرة والدقيقة الثالثة والعشرين صباحًا، وفقًا لسجلات فواتيرهم.

إبتسمت ابتسامة عريضة، وقالت: «إليكم، لكل منكم نسخة.»

twitter @baghdad_library

– أتتوقعين مني أن أقبل ما تقولين، كما هو؟

– لا، تحقق من الأمر.

ألقت هيستر بنسخة إلى كرينسكي وأخرى إلى ديمونتي. أخذ كرينسكي نسخته وسأل عما إذا كان بإمكانه استخدام الهاتف. فقالت كرايمشتاين:

– طبعًا، ولكن إذا كنت تنوي إجراء مكالمات مدفوعة، أرجو أن تضعها على حساب قسم الشرطة.

ونظرت إليه بابتسامة في غاية العذوبة، وأضافت: «شكرًا جزيلًا.»

قرأ فين الورقة، فتحول لون وجهه إلى الرمادي.

سألته هيستر:

– هل تفكر في توسيع نطاق ساعة الوفاة قليلًا؟ لا تتردد، ولكن أتعلم؟ كانت ثمة أشغال تُجرى على الجسر ليلتذاك. بِكْ مغطى من ناحية الوقت.

كان فين يرتجف. وتمتم سرًا ما يشبه كلمة «ساقطة».

قالت هيستر كرايمشتاين، وهي تطقطق بلسانها:

– كفى، كفى يا لانس، يجدر بك أن تشكرني.

– ماذا؟

– فكر فقط كيف كان بإمكاني سحقك. تخيل نفسك أمام كل تلك الكاميرات، وكل تلك التغطية الإعلامية المبهجة، جاهزًا للإعلان عن القبض الكبير على هذا القاتل الشرير. وقد وضعت أفضل ربطة عنق معبرة عن السلطة لديك، وتلقي خطابًا مهمًا حول الحفاظ على أمن الشوارع، حول الجهد الجماعي المبذول للقبض على هذا الوحش، برغم أن الفضل كله يجب أن يُنسب إليك. فتلتمع أضواء الكاميرات في وجهك، وأنت تبتسم وتدعو الصحفيين بأسمائهم الأولى، فيما ترسم في مخيلتك أجمل الصور لمكتبك الكبير المصنوع من خشب السنديان في قصر الحاكم. وفجأة أرمي القنبلة، وأُقدم إلى وسائل الإعلام حجة الغياب الدامغة هذه. تخيل ذلك يا لانس. قل لي يا لانس، ألست مدينًا لي؟

كانت عينا فين تقدحان شررًا. وقال:

– ومع ذلك فقد اعتدى على شرطي.

– لا يا لانس، لم يفعل. فكر في الأمر قليلًا يا صديقي. أنت، مساعد النائب العام فين لانس، تسرعت باستنتاج خاطئ. فأرسلت قوات الهجوم العاملة بإمرتك لمطاردة رجل بريء، وهو ليس مجرد رجل بريء، ولكنه طبيب آثر العمل مع الفقراء براتب زهيد على ممارسة الطب في القطاع الخاص الأكثر مردودًا.

إستوت في كرسيها، مبتسمة، وتابعت:

– أوه، هذا رائع. دعني أرى. فيما كان عشرات عناصر الشرطة، يشهرون أسلحتهم مطاردين هذا الرجل البريء في عملية باهظة الكلفة جدًا، حاصره أحدهم، وهو شاب وضخم الجثة ومتهور، في أحد الأزقة، وانهال عليه ضربًا. لم يكن في المكان شهود، فأخذ هذا الشاب على عاتقه أن يجعل هذا الرجل الخائف يدفع الثمن. وما كان من الدكتور دايفيد بِكْ المسكين، والمضطهد، وقد أضيف أيضًا «الأرمل»، إلا أن دافع عن نفسه.

– لن يُصدقوا أبدًا هذه الرواية.

– بل سيُصدقونها بالطبع، يا لانس. لا أريد المفاخرة، ولكن مَن أبرع مني، أنا الأَمَة الفقيرة، في نسج الروايات؟ مهلًا. أنت لم تسمعني بعد أتكلم في الفلسفة عن المقارنة بين هذه القضية وقضية ريتشارد جول، ذلك الشرطي الذي حوكم في قضايا الإرهاب، أو عن الحماسة المفرطة في النيابة العامة، أو عن اللهفة إلى إلصاق التهمة بالدكتور دايفيد بِكْ، نصير المحرومين، إلى حدّ أنهم زرعوا أدلة في منزله.

– زرع أدلة؟

كان فين على وشك الإصابة بنوبة صرع، وتابع: «هل فقدت عقلك؟»

– هيا يا لانس، نحن نعلم أن الدكتور دايفيد بِكْ ما كان ممكنًا أن يرتكب هذه الجريمة. لدينا حجة غياب متينة بشهادة أربعة شهود. وسنجد أكثر من أربعة قبل أن ينتهي هذا الأمر، وكلهم شهود مستقلون وغير متحيزين، يؤكدون أنه لم يرتكبها. لذلك، كيف وصلت تلك الأدلة إلى هناك؟ أنت مَن زرعتها يا سيد فين، أنت وقوات الهجوم العاملة لديك. وحين أنتهي منك

twitter @baghdad_library

سيبدو أكبر مزوري الوقائع في تاريخ النيابات العامة أشبه بالمهاتما غاندي إذا ما قورنوا بك.

شد فين قبضتيه، وأخذ بعض الأنفاس المتشنجة، ثم عاد إلى الخلف في كرسيه. بعد ذلك، بدأ حديثه ببطء، قائلًا:

– حسنًا، لنفترض أن حجة الغياب هذه تأكدت.

– ستتأكد.

– لنفترض أنها تأكدت، ماذا تريدين؟

– حسنًا، هذا سؤال وجيه للغاية. أنت في مأزق يا لانس. إذا اعتقلته، ستبدو كالأحمق، وإذا ألغيتِ أمر الاعتقال، ستبدو كالأحمق. لا أرى وسيلة لإخراجك من هذا المأزق.

وقفت هيستر كرايمشتاين، وبدأت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وكأنها تبحث عن خاتمة، ثم قالت:

– لقد نظرت في الأمر، وفكرت فيه مليًا، وأظنني توصلت إلى طريقة للتخفيف من الأضرار. هل يهمك أن تعلم ما هي؟

رماها فين بنظرة نارية أخرى، وقال: «أنا مصغٍ.»

– أنت تصرفت تصرفًا ذكيًا واحدًا في هذا الأمر. تصرف واحد فقط، لكنه ربما كان كافيًا. بقيتَ بعيدًا عن وسائل الإعلام. وذلك برأيي، لأنه سيكون في غاية الإحراج أن تحاول أن تشرح للصحافة كيف تمكن هذا الطبيب من الإفلات من المطاردة. ولكن هذا جيد، فكل ما نُشر في وسائل الإعلام يمكنك أن تنسبه إلى تسريبات مجهولة المصدر. إليك ما العمل يا لانس: أدعُ إلى مؤتمر صحفي. قل فيه إن التسريبات كاذبة، وإن الدكتور بِكْ محل بحث بصفته شاهدًا، لا أكثر. وقل إنك لا تشتبه بارتكابه هذه الجريمة، بل إنك متأكد من أنه لم يرتكبها، ولكنك علمت أنه كان أحد آخر الذين شاهدوا الضحية على قيد الحياة، وتريد التحدث معه.

– لن ينجح هذا.

– سينجح. ربما لن ينجح من الوهلة الأولى، لكنه سيكون مقبولًا. بفضلي. أنا مدينة لك بخدمة لأن موكلي هرب. لذا فإنني أنا، عدوة النيابة

العامة، سأدعمك. سأخبر وسائل الإعلام كيف تعاونت معنا، وكيف حرصت على عدم الإساءة إلى حقوق موكلي، وأنني والدكتور بِكْ ندعم تحقيقاتك بقوة، ونتطلع إلى العمل معك.

ظل فين ساكنًا.

– الأمر كما قلت لك من قبل يا لانس. يمكنني أن أثرثر في مصلحتك، أو ضدها.

– وفي المقابل؟

– إسقاط جميع التهم السخيفة بالاعتداء ومقاومة الاعتقال.

– محال.

أرشدته هيستر إلى الباب قائلة:

– إلى اللقاء في صفحات الأخبار الطريفة.

تراخت كتفا فين قليلًا، ثم قال بصوت خافت:

– إذا وافقنا، هل سيتعاون موكلك معي؟ هل سيجيب على جميع أسئلتي؟

– رجاءً يا لانس، لا تحاول التظاهر بأنك في وضع يسمح لك بالتفاوض. لقد عرضت عليك صفقة، فاقبلها أو جرب حظك مع الصحافة. هذا اختيارك. والوقت يمر.

وراحت تحرك سبابتها ذهابًا وإيابًا مقلدة رقاص الساعة.

نظر فين إلى ديمونتي، الذي زاد علكًا بمسواكه. أنهى كرينسكي الاتصال الهاتفي وأومأ برأسه لفين إيجابًا. بدوره أومأ فين برأسه لهيستر، وقال لها:

– كيف نفعل ذلك؟

twitter @baghdad_library

38

إستيقظت من النوم، ورفعت رأسي عن الوسادة، فكدت أصرخ. كانت عضلات جسدي جميعها تعاني تصلبًا وألمًا فاقا كل حد، وأحسستُ بأوجاع في أماكن من جسدي لم أكن أدري حتى بوجودها. حاولت دفع ساقيّ خارج السرير، لكنها كانت فكرة سيئة، سيئة جدًا. رويدًا. هذا ما يجب عمله صباح اليوم، التروي.

إحساسي الأكبر بالألم كان في ساقيّ، لتذكيري بأنه وبرغم شبه الماراتون الذي ركضتُه أمس، فإن لياقتي البدنية سيئة على نحو مثير للشفقة. حاولت أن أنقلب إلى جانبي، فشعرتُ في المناطق الحساسة التي هاجمني فيها الآسيوي بألم شبيه بألم تفتق الجروح التي خيطت. كان جسدي يتوق إلى مسكنات للألم، لكنني أدركت أنها ستسبب لي ارتباكًا ذهنيًا، ولم أشأ أن أعاني ذلك.

نظرت إلى ساعة يدي، وكانت تشير إلى السادسة صباحًا. حان الوقت لإعادة الاتصال بهيستر، التي أجابت من الرنة الأولى، وقالت:

– نجحنا. أنت الآن حر طليق.

كان شعوري بالارتياح ضئيلًا.

سألتني: «ماذا ستفعل؟»

يا له من سؤال! أجبت: «لا أعلم.»

«مهلًا.» سمعتُ صوتًا آخر في الخلفية، وقالت لي هيستر: «شونا تودّ التحدث إليك.»

سمعت صوت انتقال السماعة من يد إلى يد. ثم قالت شونا: «يجب أن نتحادث.»

لم تكن المجاملة والكياسة من عادات شونا، هذا صحيح، لكنني سمعتُ في صوتها ما يدل إلى التوتر، وحتى إلى الخوف – وهو ما يصعب تخيله. فراح قلبي يخفق بعنف.

– ما الأمر يا شونا؟

– ليس باستطاعتي أن أخبرك عبر الهاتف.

– يمكنني أن أكون في منزلك بعد ساعة.

– لم أخبر ليندا عن... أنت تعلم.

– ربما حان الوقت لذلك.

– أجل، حسنًا.

ثم أضافت بحنان مفاجئ: «أحبك يا بِكْ.»

– وأنا أيضًا أحبك.

سرتُ إلى الحمام وأنا ما بين القرفصاء والزحف. وساعدني أثاث الغرفة في سيري المتعثر والمؤلم، على ألا أسقط. بقيت تحت الدش حتى نضبت المياه الساخنة، التي ساعدتني على التخفيف من الألم، لكن ليس بالقدر الكثير.

وجد لي تايريز بزة رياضية من المخمل البنفسجي اللون، من مجموعة آل شاربتون تعود إلى حقبة الثمانينيات. فكدت أطالب بميدالية ذهبية كبيرة.

سألني:

– أين تذهب؟

– إلى منزل شقيقتي الآن.

– وبعد ذلك؟

– إلى العمل على ما أظن.

هز تايريز رأسه علامة عدم الموافقة. سألته:

– ماذا؟

twitter @baghdad_library

– إنك تواجه أشرارًا يا دوك.

– أجل. لقد استنتجت ذلك.

– بروس لي لن يدع الأمر يمر.

فكرت في كلامه، فوجدت أنه على صواب. لا يمكنني أن أعود إلى المنزل وأنتظر اتصالًا جديدًا من إليزابيت، حتى لو أردت ذلك. فأنا قبل كل شيء سئمت عدم المبادرة، ولم أعد أرضى بالمكوث متفرجًا. لكن ما لا يقل عن ذلك أهمية، هو أن رجال الشاحنة لن ينسوا المسألة، ويدعوني في سبيلي.

قال تايريز:

– سأحميك يا دوك، وكذلك سيفعل بروتوس، حتى ينتهي هذا الأمر.

هممت بأن أقول له كلامًا شجاعًا، من قبيل: «لا يسعني أن أسألك القيام بهذا»، أو «لديك أيضًا حياتك.» لكن، عند التفكير في الأمر، كان أمامهما إما مساعدتي أو ترويج المخدرات. أراد تايريز أن يساعدني، ولعله كان بحاجة أيضًا إلى أن يساعدني. وأيضًا، لنواجه الأمر، أنا كنت بحاجة إليه. بوسعي تنبيهه وتحذيره من الخطر، لكنه كان يدرك أفضل مني بكثير تلك المخاطر. وهكذا، قبلت في النهاية بإيماءة رأس.

تلقى كارلسون الاتصال الهاتفي من المركز الوطني لتعقب المعلومات بأسرع مما كان يتوقع.

قالت له دونا: «لقد انتهينا.»

– كيف؟

– هل سبق أن سمعت بـ«ن.ت.ب.م.»؟

– قليلًا، نعم.

كان يدرك أن «ن.ت.ب.م.» ترمز إلى «نظام التعرّف البالستي المتكامل»، وهو برنامج كومبيوتر حديث العهد يستخدمه مكتب الكحول والتبغ والأسلحة النارية، لتسجيل المقذوفات والرصاصات الفارغة، ضمن برنامج المكتب الجديد، والمسمى «وقف إطلاق النار».

تابعت دونا تقول:

– ما عدنا بحاجة إلى الرصاصة الأصلية حتى. لم يكن عليهم سوى أن يرسلوا إلينا صور السكانر، فنحولها إلى معطيات رقمية ونطابقها توًا على الشاشة.

– وماذا بعد؟

– كنت على حق يا نيك، إنهما تتطابقان.

أنهى كارلسون الاتصال وأجرى آخر.

عندما أجاب الرجل من الطرف الآخر سأله: «أين الدكتور بِكْ؟»

twitter @baghdad_library

39

إلتقينا بروتوس على الرصيف. قلت «صباح الخير»، لكنه لم يجب. إنني لم أسمع الرجل يتكلم حتى الآن. صعدت في المقعد الخلفي، وجلس تايريز إلى جواري، مبتسمًا ابتسامة عريضة. لقد قتل رجلًا ليلة أمس. صحيح أنه فعل ذلك دفاعًا عن حياتي، لكنني، وحسبما أوحى إلي ارتياحه، لم أكن واثقًا حتى من أنه يتذكر أنه ضغط على الزناد. كان علي أن أفهم، أكثر من أي إنسان آخر، ما يمر به، لكنني لم أفهم. لستُ من كبار المتحمسين للقناعات الأخلاقية المطلقة، فأنا أرى لونًا ثالثًا بين الأبيض والأسود، وأساوم. كانت لإليزابيت رؤية أخلاقية أوضح بكثير، وكانت لتستفظع موت إنسان، غير مبالية بما إذا كان يحاول خطفي، أو تعذيبي، أو ربما قتلي. لعلها كانت لتبالي، حقًا ما عدت أدري. الحقيقة القاسية هي أنني لم أكن أعرف كل شيء عنها. وهي طبعًا لم تكن تعرف كل شيء عني.

كان تدريبي الطبي يمنعني من أن أصدر أي حكم أخلاقي. لا شيء سوى قاعدة فرز بسيطة: الأشد إصابة يُعالَج أوّلًا، بغض النظر عمن يكون أو عما فعل. صاحب الجرح الأخطر هو الأولى بالمعالجة. إنها نظرية جميلة، وأتفهم الحاجة إلى هذا التفكير. ولكن، هب أن مارك ابن شقيقتي، هُرع به إلي مصابًا بطعنة، وفي الوقت عينه جيء بمغتصب الأطفال الذي طعنه، مصابًا برصاصة في الدماغ، تهدد حياته... حسنًا، لنكن جديين. إننا نقوم بالاختيار، ونحن على قناعة بأنه الاختيار الصائب.

قد تعترضون علي قائلين إنني أضع نفسي على منحدر زلق جدًا. وقد أوافقكم الرأي، مع أن بوسعي الرد بأن معظم حياتنا نعيشها على ذلك المنحدر. المشكلة هي في أن للعيش في منطقة ثالثة بين اللونين الأبيض والأسود آثارًا. وهي ليست فقط آثارًا معنوية، تطبع الروح، بل هي آثار حقيقية وملموسة، وأضرار لا يمكن توقعها، تخلفها هذه القرارات. تساءلت عما كان ليحدث لو أنني قلت الحقيقة منذ البداية. وكانت تلك الفكرة تخيفني كثيرًا.

قال تايريز:

– أنت صامت يا دوك.

– نعم.

أنزلني بروتوس أمام شقة ليندا وشونا على طريق ريفرسايد. وقال تايريز:

– سنكون في مكان قريب. إذا ما احتجت إلى شيء فأنت تعرف رقم هاتفي.

– حسنًا.

– المسدس معك؟

– نعم.

وضع تايريز يده على كتفي، وقال لي:

– إما حياتهم أو حياتك يا دوك. فقط واصِل الضغط على الزناد.

هنا، لا منطقة ثالثة بين اللونين الأبيض والأسود.

خرجتُ من السيارة. كانت الأمهات والمربيات يمررن بي، وهن يدفعن عربات الأطفال المتطورة، التي تنثني، ويمكن تغيير شكلها، وتهتز، وتشغل الأغاني، وتميل إلى الوراء، وإلى الأمام، وتحمل أكثر من طفل، بالإضافة إلى مجموعة من حفاضات الأطفال، والمناديل، والوجبات الخفيفة، وعلب العصير (للأشقاء الأكبر سنًا)، وغيارات الملابس، وزجاجات الحليب، وحتى مستلزمات الإسعافات الأولية. كنت أعرف كل هذا من خلال ممارستي الطب، فالانتساب إلى برنامج «ميديكايد للرعاية الطبية» لم يمنع أحدًا من شراء عربات الأطفال الباهظة الثمن من ماركة «بيغ بيريغو». فكان تزاوج هذه الصور الهادئة والطبيعية مع ما عشته مؤخرًا في مشهد واحد، يبسلم قلبي.

twitter @baghdad_library

إلتفت نحو المبنى، فرأيت ليندا وشونا تجريان نحوي. وصلت ليندا إلي أوّلًا وطوقتني بذراعيها. عانقتها بدوري، وخامرني شعور جميل.

سألتني ليندا: «هل أنت بخير؟»

– بخير.

لم تمنعها تطميناتي من تكرار السؤال مرات عدة بطرق مختلفة. وقفت شونا على بعد خطوات مني. إلتقت نظراتنا فوق كتف شقيقتي، فرأيتها تمسح الدموع من عينيها، وابتسمت لها.

واصلنا العناق والقبلات أثناء ركوب المصعد. كانت شونا أقل فيضًا بالمشاعر من عادتها، ووقفت على مسافة بعيدة بعض الشيء. قد يظن مَن يرى الأمر من الخارج أن هذا منطقي، وأن شونا تفسح المجال للأخت وأخيها في خلال لمّ الشمل الدافئ هذا. لكن من يفعل هذا لا يستطيع التمييز بين شونا وشير. كانت شونا ثابتة المزايا على نحو رائع، فهي متطيرة، ومتطلبة، وطريفة، وسخية، ومخلصة إلى أبعد مما يتخيله عقل. ولا تضع أقنعة أبدًا، ولا تمثل. وإذا بحثتم في قاموس الأضداد عن نقيض عبارة «الزهرة الخجولة» ترون صورتها المنشرحة. كانت شونا تعيش حياتها على الملأ، ولم تكن لتتراجع ولو ضُربت على رأسها بمطرقة.

أحسست بوخز يتصاعد في داخلي.

عندما وصلنا إلى الشقة تبادلت ليندا وشونا نظرة سريعة. فتركت ليندا ذراعي، وقالت لي:

– شونا تريد التحدث إليك على انفراد أوّلًا. سأكون في المطبخ هل تريد شطيرة؟

– شكرًا.

قبّلتني ليندا وعانقتني مرة أخيرة، كما لو أنها تحاول التأكد من أنني ما زلت موجودًا، كائنًا من لحمٍ ودم. ثم خرجت مسرعة من الغرفة. نظرتُ إلى شونا، التي ظلت على مسافة مني. بسطتُ يدي في حركة مغزاها: «ما الأمر؟»

سألتني شونا:

– لماذا هربت؟

– وصلتني رسالة إلكترونية أخرى.

– في حسابك على موقع بيغ فوت؟

– نعم.

– لماذا وصلت متأخرة إلى هذا الحد؟

– كانت تستخدم رموزًا، استغرق فكها مني وقتًا.

– أي نوع من الرموز؟

شرحت لها قصة «السيدة الوطواطة»، و«مراهقون يشعرون بالإثارة»، وعند انتهائي، سألتني:

– ألهذا استخدمت الكمبيوتر في كينكوز؟ هل فككت رموز الرسالة أثناء سيرك مع كلوي؟

– نعم

– ماذا قالت الرسالة الإلكترونية تحديدًا؟

لم أفهم لماذا كانت شونا تطرح كل هذه الأسئلة. فإلى جانب كل ما قلته عنها سابقًا، كانت امرأة لا تكترث إلا بالصورة الكبرى للأمور، ولا تضيع وقتها بالتفاصيل التي تربك بلا طائل. قلت لها:

– كانت تريد مني لقاءها في واشنطن سكوير بارك عند الخامسة من يوم أمس. وحذرتني من أنني قد أكون ملاحقًا. ثم قالت لي إنها تحبني مهما حدث.

– ألهذا هربت إذًا؟ لئلا تتخلف عن اللقاء؟

أومأت برأسي علامة الموافقة، وقلت:

– قالت هيستر أنه لن يُخلى سبيلي قبل منتصف الليل في أفضل تقدير.

– هل وصلت إلى المتنزه في الموعد؟

– نعم.

إقتربت شونا مني خطوة، وسألتني:

– ماذا حدث؟

– لم تأتِ.

– أما زلت مقتنعًا بأن إليزابيث هي التي بعثت إليك الرسالة الإلكترونية؟

– لا تفسير آخر.

twitter @baghdad_library

إبتسمتْ حين قلت ذلك.

سألتها: «ماذا؟»

– هل تتذكر صديقتي ويندي بتينو؟

قلت لها: «زميلتك العارضة، المنفوخة كالحلويات اليونانية.»

جعلها هذا التشبيه تبتسم، وأضافت:

– أخذتني للعشاء ذات مرة مع – ورسمت بأصابعها علامتَي اقتباس – معلمها الروحي. وزعمت أنه يستطيع قراءة الأفكار والتنبؤ بالمستقبل وما إلى هنالك. كان يساعدها على الاتصال بأمها الميتة، التي انتحرت حين كانت ويندي في السادسة من عمرها.

تركتها تواصل حديثها، ولم أقاطعها بالسؤال البديهي «إلامَ ترمين؟» بدا أنها تأخذ وقتًا طويلًا. ولكنني أعلم أنها ستبلغ صلب الموضوع في النهاية. تابعت تقول:

– أنهينا العشاء، وقدم النادل لنا القهوة. كان معلم ويندي الروحي، واسمه أوماي، كما أظن، يحملق بي بعينين لماعتين، فضوليتين، تعرف هذا الصنف من النظرات. وقال لي كيف أنه يحس – استخدم فعل «يحس» – أنني ربما كنت مشككة، وأن علي أن أقول بصراحة ما أفكر فيه. أنت تعرفني. قلت له إن كل ما يفعله مجرد تفاهة، وإنني سئمت أن يسرق مال صديقتي. لم يغضب أوماي، طبعًا، الأمر الذي أثار حفيظتي بشدة. بأية حال أعطاني بطاقة صغيرة وطلب مني أن أكتب عليها ما أريد، كأي شيء هام في حياتي، سواء أكان تاريخًا، أو الحرفين الأولين لاسم حبيب، أو ما أشاء. تفحصت البطاقة، فبدت بطاقة بيضاء عادية. ولكنني سألته عما إذا كان بإمكاني أن أستخدم بطاقة أخرى، فلم يمانع. أخذت بطاقة تعريف مهنية وقلبتها. أعطاني قلمًا، وهنا أيضًا قررت أن أستخدم قلمي الخاص، تحسبًا لاحتمال كون القلم مغشوشًا، ما أدراني؟ كذلك لم يمانع. كتبتُ اسمك. فقط «بِكْ». أخذ البطاقة مقلوبة. رحت أراقب يده لأرى إن كان سيستبدل بطاقة بأخرى، ولكنه اكتفى بأن أعطى ويندي البطاقة، وطلب منها أن تحتفظ بها. ثم أمسك بيدي وأغمض عينيه، وأخذ يرتعش وكأنه مصاب بنوبة صرع. أقسمُ أنني شعرت بشيء يعبرني. ثم فتح أوماي عينيه وقال «من هو بِكْ؟»

جلست شونا على الأريكة، وحذوت حذوها.

– أعرف أن بعضهم يتميز بخفة اليد، وما إلى ذلك. لكنني كنت هناك، وراقبته عن كثب، وكدت أصدقه. يملك أوماي قدرات خاصة. كما قلتَ، لم يكن ثمة تفسير آخر. جلست ويندي بابتسامة رضى عريضة. لم أفهم كيف فعل ذلك.

قلت لها: أجرى عنك بحثًا، كان على علم بصداقتنا.

لا قصد الإهانة، لكن أما كان ليتوقع أن أكتب اسم ابني، أو اسم ليندا؟ كيف علم أنني سأختارك أنت؟

كانت على حق، سألتها:

– هل بت تؤمنين بالقدرات؟

– أكاد. قلت لك إنني كدت أصدقه. كان أوماي على حق، فأنا مشككة. لعل ما قام به يدل إلى كونه وسيطًا روحانيًا، لكنني أعرف أنه ليس وسيطًا. لأنه لا وجود للوسطاء الروحانيين، تمامًا كما لا وجود للأشباح.

توقفت عن الكلام. إنها تفتقر إلى الكياسة، عزيزتي شونا.

ثم تابعت تقول:

– قمت ببعض الأبحاث. من حسنات كوني عارضة أزياء شهيرة أن بوسعي الاتصال بأي شخص، فلا يتمنع عن الإجابة. لذا اتصلت بساحر شاهدت له عرضًا في برودواي قبل سنوات. سمع الرجل روايتي، فضحك. قلت له: «ما المضحك في الأمر؟» طرح علي سؤالًا: «هل فعل هذا المعلم الروحي ما فعله بعد العشاء؟» فوجئت بسؤاله. أي صلة لهذا؟ ولكنني أجبت: «نعم، كيف عرفت؟» سألني عما إذا تناولنا القهوة. ومجددًا قلت: «نعم.» سألني: «هل كانت قهوته سوداء؟» وللمرة الثالثة أجبتُ بنعم.

كانت شونا تبتسم آنذاك، وسألتني: «هل تعرف كيف فعل ذلك يا بِكْ؟»

هززت رأسي بالنفي، وقلت: «لا أعلم.» فتابعت تقول:

– عندما أعطى ويندي البطاقة، مررها فوق فنجان قهوته، وكانت سوداء. إنه سطح عاكس تمامًا كالمرآة. وهكذا رأى ما كتبته. كانت مجرد خدعة رخيصة، في منتهى البساطة أليس كذلك؟ مرر البطاقة فوق قهوتك السوداء، وكأنك تمررها فوق مرآة. ولقد كدت أصدقه. هل تفهم ما أقوله هنا؟

twitter @baghdad_library

قلت لها:

– بالتأكيد، أتعتقدين أنني ساذج مثل ويندي المنفوخة؟

– نعم ولا. إن جزءًا من نجاح خدعة أوماي هو الرغبة في تصديقها يا بِكْ. وقعت ويندي في شركه لأنها كانت ترغب أن تصدق كل ذلك الهراء.

– وأنا أرغب في أن أصدق أن إليزابيت حية؟

– ترغب في ذلك أكثر مما يرغب رجل يموت عطشًا في الصحراء في العثور على واحة. ولكن ليس هذا ما أعنيه.

– إذًا، ما هو؟

– تعلمت أنه إذا كنا لا نجد تفسيرًا آخر لأمرٍ ما، فإن ذلك لا يعني عدم وجود تفسير آخر. بل يعني أننا لا نستطيع رؤيته.

إتكأتُ إلى الوراء وعقدتُ ساقًا فوق ساق. رحت أنظر إليها فتهربت من نظراتي، وهو شيء لم تفعله قط. سألتها: «ماذا يحدث هنا يا شونا؟»

رفضت النظر إلي. فقلت لها:

– ما تقولينه غير منطقي.

– أظنني كنت واضحة للغاية.

– تعرفين ما أعنيه. هذه ليست عادتك. قلت لي بالهاتف إنك تريدين محادثتي على انفراد. لماذا؟ لتخبريني أن زوجتي الميتة لا تزال ميتة؟

هززت رأسي بقوة، وقلت: «لا أصدق هذا.»

لم تبدِ شونا أي رد فعل.

قلت لها: «أخبريني.»

إستدارت نحوي، وقالت «أنا خائفة»، بنبرة بعثت في قشعريرة باردة.

– مم؟

لم يأتني الجواب في الحال. كنت أسمع صوت انهماك ليندا في المطبخ، ورنين الأطباق والأكواب، وصوت باب الثلاجة وهو يُفتح. في النهاية، تابعت شونا تقول:

– التحذير الطويل الذي نقلته إليك منذ قليل، كان موجهًا إليك بقدر ما كان موجهًا إلي.

– لا أفهم.

– رأيتُ شيئًا...

تلاشى صوتها. ثم أخذت نفسًا عميقًا، وحاولت مرة أخرى.

– رأيت شيئًا لا يمكن لعقلي المنطقي تفسيره. كما هي الحال في قصتي مع أوماي. أعرف أنه لا بد من أن يكون ثمة تفسير آخر، ولكنني عاجزة عن التوصل إليه.

بدأت يداها تتحركان، وبدأت أصابعها تعبث بالأزرار، وتسحب خيوطًا وهمية من بذلتها. ثم قالت:

– لقد بدأتُ أصدقك يا بِكْ. أعتقد أن إليزابيت ربما لا تزال حية.

قفز قلبي إلى حلقي.

نهضتْ شونا بسرعة وقالت: «سأذهب لأعد لنفسي كأس ميموزا، هل تشاركني؟»

هززت رأسي بالنفي. فبدت عليها الدهشة، وقالت:

– هل أنت متأكد من أنك لا تريد...

– أخبريني ما رأيت يا شونا.

– رأيت ملف تشريح جثتها.

كدت أسقط أرضًا، ولم أستعد صوتي إلا بعد وقت، فسألتها:

– كيف؟

– هل تعرف نيك كارلسون من مكتب التحقيق الفدرالي؟

– قام باستجوابي.

– يعتقد أنك بريء.

– لم يعطِني هذا الانطباع.

– إختلف الأمر. عندما بدأت جميع تلك الأدلة تشير إليك، شعر أنها مُحكمة بشكل مبالغ فيه.

– هو قال لك ذلك؟

– نعم.

– وصدقته؟

twitter @baghdad_library

– أعلم أن هذا يبدو ساذجًا. ولكن نعم، صدقته.

أنا أثق بتقدير شونا. إذا قالت إن كارلسون صادق، فهو إما كاذب بارع، أو أنه اشتمّ رائحة مكيدة. قلت لها:

– ما زلت لا أفهم، ما علاقة هذا بملف التشريح؟

– أتى إليّ كارلسون، وأراد أن يعرف ما تنوي فعله، فلم أخبره. ولكنه كان يراقب تحركاتك، وعرف أنك طلبت رؤية ملف تشريح جثة إليزابيت، وتساءل عن السبب. فاتصل بمكتب الطبيب الشرعي وحصل على الملف، وأحضره معه لمعرفة إذا كان بإمكاني مساعدته في ذلك.

– هل أطلعك عليه؟

أومأت برأسها إيجابًا.

كان حلقي جافًا، وسألتها:

– هل شاهدتِ صور التشريح؟

– لم يكن ثمة صور.

– ماذا؟

– يظن كارلسون أنّ شخصًا ما سرقها.

– من؟

رفعت كتفيها، وقالت:

– الشخص الآخر الوحيد الذي طلب الملف كان والد إليزابيت.

هويت. كل شيء كان يعود إليه. نظرت إليها، وسألتها:

– هل قرأت شيئًا في التقرير؟

كانت إيماءتها تتسم بالتردد هذه المرة.

– وماذا أيضًا؟

– أشار التقرير إلى أن إليزابيت كانت تتعاطى المخدرات، وحتى إلى وجود آثار مخدرات في جسدها. وقال كارلسون إن التحاليل الطبية تشير إلى أن تاريخ إدمانها المخدرات قديم.

قلت: «مستحيل.»

– ربما، وربما لا، لم يكن ذلك وحده كافيًا لإقناعي. يستطيع الأشخاص إخفاء إدمان المخدرات. هذا مستبعد، وكذلكِ هو احتمال كونها حية. لعل الفحوص كانت مغلوطة أو غير حاسمة. ثمة تفسيرات، أليس كذلك؟ يمكن تفسير الأمر بشكل أو بآخر.

بللت شفتيّ بلساني، وسألتها:

– ما الذي لا تفسير له؟

– وزنها وطولها. ذكر التقرير أن طول إليزابيت 171 سنتمترًا ووزنها أقل من 50 كيلوغرامًا.

شعرتُ بضربة هائلة تهوي على دماغي. فقد كان طول زوجتي 162 سنتمترًا ووزنها أقل من 50 كيلوغرامًا. قلتُ:

– الأرقام غير قريبة حتى.

– غير قريبة.

– إنها حية يا شونا.

قالت، تسليمًا: «ربما.» ثم ألقت نظرة نحو المطبخ، وأضافت: «ولكن ثمة شيء آخر.»

إستدارت شونا ونادت ليندا، التي وصلت إلى باب الغرفة ووقفت عنده. فجأة بدت صغيرة القامة في مئزرها. فركت يديها ومسحتهما على مقدمة المئزر. نظرت إلى شقيقتي محتارًا.

قلت: «ماذا يجري؟»

بدأت ليندا الحديث، فأخبرتني عن الصور الفوتوغرافية، وكيف جاءت إليها إليزابيت وطلبت منها التقاطها، وكيف أنها كانت سعيدة جدًا بالتكتم حول براندون سكوب. لم تجمّل أقوالها أو تقدم تبريرات، ولكنها ربما لم تكن مضطرة إلى ذلك. وقفت هناك وباحت بكل شيء، وانتظرت الضربة المحتومة. أصغيت إليها مطرق الرأس. لم أستطع أن أنظر إلى وجهها لكنني سامحتها بسهولة. لجميعنا نقاط ضعف. جميعنا، بدون استثناء.

twitter @baghdad_library

أردتُ أن أضمها بين ذراعـي، وأؤكـد لها أنني أتفهمها، ولكنني لم أتوصل إلى ذلك. عندما انتهت من كلامها أومأت برأسي وقلت لها: «شكرًا لأنك أخبرتني.»

كانت كلماتي إشارة ضمنية لها بالانصراف، ففهمت ليندا ذلك. جلستُ وشونا في صمت لدقيقة كاملة تقريبًا.

– بِكْ؟

قلت لها: «كذب والد إليزابيت عليّ.»

أومأت برأسها. قلت لها:

– علي أن أتحدث معه.

– لم يخبرك بأي شيء من قبل.

فكرتُ في أن ذلك كان صحيحًا.

– هل تعتقد أن الأمر سيكون مختلفًا هذه المرة؟

لا شعوريًا تحسست المسدس في حزامي، وقلت لها:

– ربما.

رحب بي كارلسون في الرواق، وقال:

– دكتور بِكْ؟

في هذه الأثناء وفي الجانب الآخر من المدينة عقدت النيابة العامة للمقاطعة مؤتمرًا صحفيًا. شكك الصحفيون طبعًا بشروحات فين الملتوية (في ما يخصني). كما حفل المؤتمر الصحفي بالكثير من التراجع في المواقف، وبالاتهامات، وما إلى ذلك. لكن ذلك كله أدى إلى زيادة القضية إرباكًا. الإرباك مفيد، فهو يؤدي إلى عمليات طويلة من إعادة التكوين، والتوضيح، وكشف الحقائق، وكثير من الأمور الأخرى. لكن الصحافة وجمهورها يفضلون سردًا أبسط.

لعل السيد فين كان سيعاني وقتًا أصعب، لولا أن الصدفة شاءت أن تستفيد النيابة العامة من المؤتمر الصحفي عينه، للإعلان عن البدء بالتحقيق مع عدة شخصيات في إدارة العمدة، مع التلميح إلى أن «مخالب الفساد»

– بحسب تعبيرهم – قد تصل حتى إلى مكتب العمدة. وها هي وسائل الإعلام، التي تملك قدرة تركيز لا تزيد عن قدرة طفل لم يتجاوز العامين من عمره، قد انتقلت بتركيزها فورًا إلى هذه اللعبة الجديدة اللامعة، وركلت اللعبة القديمة تحت السرير.

تقدم كارلسون نحوي وقال لي: «أود أن أطرح عليك بعض الأسئلة.»

قلت له: «ليس الآن.»

– كان والدك يملك مسدسًا؟

سمرتني كلماته في مكاني. سألته:

– ماذا؟

– إشترى والدك، ستيفن بِكْ، مسدس «سميث أند ويسون» عيار 38. أظهر تاريخ التسجيل أنه اشتراه قبل وفاته ببضعة أشهر.

– وما علاقة هذا بموضوعنا؟

– أفترض أنك ورثت هذا السلاح. هل هذا صحيح؟

– لن أتحدث إليك.

وضغطت زر المصعد. فقال كارلسون:

– إنه معنا.

إلتفت إليه مذهولًا. فأضاف:

– كان مخبأ في صندوق ودائع سارة غودهارت، مع الصور.

لم أستطع أن أصدق ما أسمع. سألته:

– لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟

إبتسم لي كارلسون بطرف شفتيه. فقلت له:

– صحيح، آنذاك، كنتُ الرجل الشرير.

ثم أضفت متعمدًا أن أدير ظهري نحوه:

– لا أرى صلة لهذا بموضوعنا.

– بل من المؤكد أنك تفعل.

ضغطت زر المصعد مجددًا، فتابع كارلسون يقول:

twitter @baghdad_library

– ذهبتَ لمقابلة بيتر فلانري، وسألته عن جريمة قتل براندون سكوب. أود أن أعرف لماذا.

أبقيتُ إصبعي تضغط على زر المصعد، وسألته:

– هل فعلت شيئًا بالمصاعد؟

– نعم. لماذا قابلت بيتر فلانري؟

قام عقلي ببضعة استنتاجات سريعة. خطرت ببالي فكرة، هي خطيرة في أفضل الظروف. كانت شونا تثق بهذا الرجل، وربما يمكنني الوثوق به بدوري. القليل من الثقة، بأية حال، بالقدر الكافي. فقلت له:

– لأننا، أنا وأنت، تراودنا الشكوك نفسها.

– وما هي؟

– كلانا يتساءل عما إذا كان روي السفاح هو قاتل زوجتي.

عقد كارلسون ذراعيه، وسألني:

– وما علاقة بيتر فلانري بذلك؟

– لقد كنت تتعقب تحركاتي، أليس كذلك؟

– نعم.

– وأنا قررت تعقب تحركات إليزابيت، قبل ثماني سنوات. كان الحرفان الأولان من اسم فلانري وشهرته، ورقم هاتفه، في مفكرتها.

– فهمت. وماذا عرفت من السيد فلانري؟

كذبت فقلت: «لا شيء. إنه طريق مسدود.»

– أوه. لا أعتقد ذلك.

– ما الذي يجعلك تقول ذلك؟

– هل تعلم كيف تُجرى اختبارات الرصاص البالستية؟

– شاهدتها في التلفزيون.

– ببساطة، كل مسدس يترك بصمة فريدة على الرصاصة التي تنطلق منه. كالخدوش أو الأخاديد التي يحملها هذا المسدس دون سواه. تمامًا مثل بصمات الأصابع.

– أعرف هذا.

– بعد زيارتك لمكتب فلانري، طلبت إجراء مطابقة بالستية على المسدس عيار 38 الذي وجدناه في صندوق الودائع الخاص بسارة غودهارت. هل تعلم إلى ما توصلنا؟

هززت رأسي بالنفي، ولكني كنت أعلم.

تريث كارلسون، قبل أن يقول:

– مسدس والدك، ذاك الذي ورثته أنت، هو الذي قتل براندون سكوب.

فُتح باب ودخلت أمّ وابنها المراهق إلى البهو. كان الولد يتذمر، وقد أرخى كتفيه في علامة تحد. كانت شفتا والدته مزمومتين، ورأسها مرفوعًا في وضعية مَن لا يريد أن يسمع. وتقدما نحو المصعد. قال كارلسون شيئًا في جهاز لاسلكي. إبتعد كلانا من أمام المصعد، ونحن نتبادل نظرات تحدّ صامتة.

سألته: «أيها العميل كارلسون، هل تعتقد أنني قاتل؟»

– أتريد الحقيقة؟ ما عدت واثقًا من ذلك.

وجدت إجابته غريبة بعض الشيء. وقلت له:

– تعلم طبعًا أنني لست ملزمًا بالتحدث إليك. وفي الواقع يمكنني الاتصال بهيستر كرايمشتاين في هذه اللحظة، وأعرقل كل ما تحاول القيام به.

إنتفض مستاء، لكنه لم يتكلف عناء إنكار ذلك. بل قال لي:

– ماذا تريد؟

– إمنحني ساعتين.

– لماذا؟

كررتُ: «ساعتين.»

فكر في الأمر، وأجاب: «بشرط واحد.»

– ما هو؟

– أخبرني من هي ليزا شرمان.

أثار قوله حيرتي كليًا، وأجبته: «لا أعرف هذا الاسم.»

– كان من المفترض بكما أن تغادرا البلاد معًا الليلة الماضية.

إليزابيت.

قلتُ له:

twitter @baghdad_library

– لا أعرف عما تتحدث.

رن جرس المصعد وانفتح بابه. فدخلته الأم المزمومة الشفتين، ومعها ابنها المراهق المرتخي الكتفين. إلتفتت نحونا، فأشرت إليها بأن تمسك الباب.

قلت له: «ساعتين.»

أومأ كارلسون برأسه موافقًا على مضض. وقفزت إلى داخل المصعد.

40

«لقد تأخرتِ!» صاح بشونا المصوّر، وهو رجل صغير القامة ذو لكنةٍ فرنسيةٍ مزيفة. «وتبدين مثل... ?comment dit-on (عبارة فرنسية تعني «كيف نقول ذلك؟») مثل شيء يخرج من مصرف مرحاض.»

ردت عليه شونا بانفعال: «تبًا لك يا فريديريك!» بدون أن تعلم أو تهتم ما إذا كان ذلك هو اسمه بالفعل، وأضافت: «من أين أنت بأية حال؟ من بروكلين؟»

رفع يديه في الهواء وقال: «لا يمكنني أن أعمل هكذا.»

هرعت إليهما أريثا فيلدمان، مديرة أعمال شونا، وقالت للمصور:

– لا تقلق يا فرانسوا. خبير التجميل سيصنع بها معجزة، فهي تبدو دائمًا في مظهر سيئ حين تصل. سنعود في الحال.

ضغطت أريثا على مرفق شونا بشدة، بدون أن تفارقها الابتسامة، وقالت لها بصوت خافت:

– يا للجحيم، ماذا جرى لك؟

– أنا في غنى عن هذه التفاهة.

– لا تلعبي دور الفنانة الشهيرة الآن.

– مرت علي ليلة سيئة، أتفهمين؟

– لا، لا أفهم. إجلسي في كرسي التجميل.

twitter @baghdad_library

شهق خبير التجميل مذعورًا عندما رأى شونا. وصرخ:

– ما هذه الجيوب تحت عينيك؟ هل نصور إعلانًا لحقائب «سامسونايت»؟

إكتفت شونا بأن قالت «هاها»، واقتربت من الكرسي، حين قالت لها أريثا، حاملة ظرفًا في يدها:

– وصلك هذا.

نظرت إليه شونا بعينين ضاقتا، وسألتها: «ما هو؟»

– لا أعلم، أوصله ساعٍ منذ عشر دقائق، وقال إنه أمر مستعجل.

ناولت أريثا شونا الظرف، فأخذته بيد، وقلبته بالأخرى. ونظرت إلى الكلمة الوحيدة – شونا – المكتوبة على وجهه بخط يد سيئ ومألوف، فأحست بمعدتها تنقبض.

قالت شونا وهي لا تزال تحملق بالخط:

– إنتظراني ثانية.

– هذا ليس الوقت المناسب...

– ثانية.

إبتعدت مديرة الأعمال وخبير التجميل. ففتحت شونا الظرف، لتسقط منه بطاقة بيضاء كُتب عليها بخط اليد المألوف ذاته. أخذتها شونا وقرأت عليها عبارة مقتضبة: «إذهبي إلى مرحاض السيدات.»

حاولت شونا أن تسيطر على أنفاسها، ووقفت. سألتها أريثا:

– ما الخطب؟

قالت بهدوء حتى هي فوجئت به: «علي دخول المرحاض، أين هو؟»

– في أقصى الممر، إلى اليسار.

– سأعود حالًا.

بعد دقيقتين، دفعت شونا باب المرحاض، فلم يتحرك. طرقته بيدها، وقالت «هذه أنا». ووقفت تنتظر.

بعد ثوانٍ قليلة، سمعت مزلاج القفل يُسحب. تلا ذلك مزيد من الصمت. أخذت شونا نفسًا عميقًا ودفعت الباب مجددًا، فانفتح عريضًا.

خطت على بلاط المرحاض خطوة واحـدة، ثم تجمدت. هناك، في أقصى الغرفة، وأمام الحجرة الأقرب، رأت شبحًا.

كتمت شونا صرخة.

لا الشعر المستعار الأسود، ولا خسارة الوزن، ولا النظارة ذات الإطار السلكي استطاعت أن تخفي ما هو بديهي.

إليزابيت.

– أقفلي الباب، يا شونا.

إمتثلت شونا من دون تفكير. حين استدارت مجددًا، خطت نحو صديقتها القديمة، لكن إليزابيت تراجعت، وقالت لها:

– أرجوك، الوقت لا يتسع لنا.

للمرة الأولى في حياتها، ربما، خانت شونا الكلمات.

قالت إليزابيت:

– عليك أن تُقنعي بِكْ بأنني ميتة.

– فات الأوان قليلًا على هذا.

جابت عينا إليزابيت الغرفة، وكأنها تبحث عن مهرب، ثم قالت:

– كانت عودتي إلى هنا خطأ، خطأ غبيًا جدًا. لا يمكنني أن أبقى هنا. عليك أن تخبريه...

– رأينا تقرير التشريح يا إليزابيت. لقد خرج الجني من القمقم، ولن يعود.

أغمضت إليزابيت عينيها.

قالت شونا: «ماذا حدث؟»

– إرتكبت خطأ فادحًا بعودتي إلى هنا.

– أجل. قلتِ هذا.

بدأت إليزابيت تمضغ شفتها السفلية ثم قالت:

– يجب أن أرحل.

– لا تستطيعين.

– ماذا؟

– لا تستطيعين الهروب مجددًا.

twitter @baghdad_library

– إذا بقيتُ، سيموت.

– هو ميت.

– أنت لا تفهمين.

– لست بحاجة إلى أن أفهم. إن تركته ثانية، لن يبقى حيًا. أمضيت ثمانية أعوام وأنا أنتظر أن ينساك. هذا ما يُفترض حدوثه، كما تعلمين. الجروح تُشفى، والحياة تستمر. ولكن هذه ليست حال بِكْ.

خطت خطوة نحو إليزابيت، وقالت: «لن أدعك تهربين مجددًا.»

وملأت الدمع العيون الأربع.

أضافت شونا وهي تقترب أكثر: «لا يهمني لماذا رحلت. ما يهمني هو أنك عدت.»

قالت إليزابيت بصوت ضعيف: «لا يمكنني البقاء.»

– عليك أن تبقي.

– حتى ولو كان بقائي يعني موته؟

قالت شونا من دون تردد:

– نعم. حتى ولو كان يعني ذلك. وأنت تعلمين أنني على صواب. ومن أجل هذا عدتِ. تعلمين أنك لا تستطيعين الرحيل مجددًا. وتعلمين أنني لن أدعك ترحلين.

خطت شونا خطوة أخرى نحو صديقتها، التي قالت بصوت رقيق:

– تعبت كثيرًا من الهروب.

– أعلم هذا.

– ما عدت أدري ماذا أفعل.

– ولا أنا. ولكن الهروب ليس خيارًا متاحًا هذه المرة. إشرحي له الأمر يا إليزابيت. إجعليه يفهم.

رفعت إليزابيت رأسها، وقالت:

– أتعلمين كم أحبه؟

– نعم، أعلم.

– لا يمكنني أن أدعه يتعرض لمكروه.

– فات الأوان.

كانتا تقفان، لا تفصل بينهما سوى مسافة شبر. أرادت شونا أن تقترب منها وتعانقها، ولكنها بقيت حيث هي.

قالت لها إليزابيت:

– هل من رقم هاتف يصلني به؟

– نعم، أعطاني رقم هاتف خلوي...

– قولي له «الدلفين»، سأنتظره هناك الليلة.

– أجهل ما يعني ذلك.

مرت بها إليزابيت بسرعة، واسترقت نظرة من باب المرحاض، ثم تسللت مبتعدة.

قالت: «سوف يفهم.» وتوارت عن الأنظار.

twitter @baghdad_library

41

كالعادة، جلستُ وتايريز في المقعد الخلفي من السيارة. كانت سماء الصباح رمادية، بلون شواهد القبور. بعدما عبرنا جسرِ جورج واشنطن أرشدت بروتوس في أي اتجاه ينعطف. كان تايريز يتفحص وجهي من خلف نظارته الشمسية، وأخيرًا سألني:

– أين نذهب؟

– إلى منزل والدَي زوجتي.

إنتظرني تايريز لكي أضيف شيئًا. قلت:

– إنه شرطي في المدينة.

– ما اسمه؟

– هويت باركر.

إبتسم بروتوس، وكذلك فعل تايريز.

– هل تعرفه؟

– لم يسبق لي أن عملت مع الرجل شخصيًا، ولكن أجل، سمعتُ اسمه.

– ماذا تعني بقولك «عملت مع الرجل؟»

تجاهل تايريز سؤالي بحركة من يده. وصلنا إلى حدود المدينة. الواقع أنني خضتُ خلال الأيام الثلاثة الماضية عدة تجارب سريالية. وليس المرور في حي طفولتي مع مروجَي مخدرات في سيارة ذات نوافذ داكنة سوى

تجربة أخرى من تلك التجارب. أعطيت بروتوس مزيدًا من الإرشادات، قبل أن نتوقف أمام المنزل المستقل المليء بالذكريات في شارع غودهارت.

ترجلت من السيارة، فانطلق بروتوس وتايريز مبتعدين بسرعة. وصلت إلى الباب وأصغيتُ إلى صوت الجرس الطويل. تلبدت الغيوم أكثر، ثم مزقت السماء صاعقة. ضغطتُ الجرس مجددًا، وأحسست بالألم في ذراعي. لم يبارحني الألم الشديد، بسبب ما عانيته أمس من تعذيب وإرهاق هائل. تساءلت لبرهة عما كان ليحدث لو لم يأتِ بروتوس وتايريز. ثم طردت تلك الفكرة بقوة.

أخيرًا سمعت صوت هويت يسأل: «مَن هناك؟»

– بِكْ.

– الباب مفتوح.

مددت يدي لأفتح، لكنني توقفت قبل سنتمترات من المقبض النحاسي. أمر غريب. أتيت إلى هنا مراتٍ لا تُحصى، لكنني لا أتذكر أبدًا هويت يسأل مَن بالباب. كان من الرجال الذين يفضلون المواجهة المباشرة، لا الاختباء بين الأعشاب. لم يكن يخشى شيئًا، وكانت كل خطوة من خطواته دليلًا على ذلك. حين يُقرع الباب، يفتحه هويت ويواجه الزائر شخصيًا.

ألقيت نظرة خلفي: ما من أثر لتايريز وبروتوس. فلا حكمة في التسكع أمام منزل شرطي في ضاحية يسكنها البيض.

– بِكْ؟

لا خيار لي. فكرت في المسدس. وضعت يدي اليسرى على مقبض الباب، وأبقيت اليمنى قريبة من وركي، تحسبًا. أدرتُ المقبض ودفعت الباب قليلًا، ثم مددت رأسي من خلال الفتحة.

صاح هويت: «أنا في المطبخ.»

دخلتُ وأغلقت الباب خلفي. إنبعثت من الغرفة رائحة مطهر بنكهة الليمون، من النوع الذي يُركب في قابس كهربائي، ووجدتُ تلك الرائحة ثقيلة.

سألني هويت: «أتريد أن تأكل شيئًا ما؟»

أجبت وأنا غير قادر على رؤيته بعد: «لا، شكرًا.»

twitter @baghdad_library

سرت فوق سجادة الموكيت نصف الخشن نحو المطبخ. ولمحت الصور القديمة فوق رف الموقد، ولكنني للمرة الأولى لم أشعر بالألم. عندما وطئت قدماي أرضية المطبخ المشمعة، تركتُ عينيّ تجولان في الغرفة، فكانت خالية. كنت على وشك أن أستدير عندما شعرت بمعدن بارد على صدغي، ثم طوقت يد عنقي وشدتني إلى الوراء بعنف.

– هل أنت مسلح يا بِكْ؟

لم أتحرك أو أقل شيئًا.

أبقى هويت المسدس مصوبًا إلى رأسي، في حين أخذ بيده الأخرى يفتشني، فوجد المسدس، وانتزعه، ورمى به بعيدًا فوق الأرضية المشمعة.

– من أقلك إلى هنا؟

تمكنت من أن أقول: «صديقان.»

– من أي صنف من الأصدقاء؟

– ما معنى هذا يا هويت؟

تراجع عني، فاستدرتُ لأرى المسدس موجهًا إلى صدري. بدت لي الفوهة ضخمة، وأخذت تتسع مثل فم عملاق على وشك أن يبتلعني كاملًا. وكان صعبًا علي أن أبعد عينيّ عن ذلك النفق المظلم البارد المخيف.

سألني هويت:

– هل أتيت إلى هنا لتقتلني؟

– ماذا؟ كلا!

أرغمت نفسي على النظر إليه، فكان غير حليق الذقن، أحمر العينين، مترنحًا. لقد كان يشرب الخمر، وبإسراف. سألته:

– أين السيدة باركر؟

كانت إجابته غريبة:

– بأمان. أرسلتُها بعيدًا.

– لماذا؟

– أظنك تعرف.

لعلي كنت أعرف، أو بدأت أعرف.

– لماذا قد أرغب في إيذائك يا هويت؟

ظل مسدسه مصوبًا نحو صدري، وقال:

– هل تحمل دائمًا سلاحًا خفيًا يا بِكْ؟ بوسعي أن أرمي بك في السجن من أجل هذا.

أجبته:

– ما فعلتَه بي أسوأ بكثير.

إرتخى وجهه وخرج من بين شفتيه أنين خافت.

– جثة مَن أحرقنا يا هويت؟

– أنت لا تعرف شيئًا.

– أعلم أن إليزابيت لا تزال حية.

تراخت كتفاه، لكن سلاحه بقي مصوبًا نحوي. رأيت يده القابضة على المسدس متوترة، ولبرهة كنت واثقًا من أنه سيضغط على الزناد. فكرت في أن أقفز هاربًا، لكنه كان قادرًا على الإجهاز علي برصاصتين.

قال برفق: «إجلس.»

قلت له: «رأت شونا تقرير التشريح. نعرف أن الجثة التي كانت في المشرحة لم تكن لإليزابيت.»

من جديد، قال: «إجلس.» ورفع المسدس قليلًا. وأعتقد أنه كان سيطلق النار لو لم أمتثل. قادني من جديد إلى غرفة العائلة، وجلست على الأريكة البشعة ذاتها التي شهدت أوقاتًا لا تُنسى، لكنني شعرتُ بأنها لم تكن سوى شرارات صغيرة بالمقارنة مع الحريق الهائل الذي سيجتاح هذه الغرفة.

جلس هويت قبالتي، وظل السلاح مصوبًا إلى صدري. لم يدع يده تستريح ثانية واحدة. أفترض أن ذلك جزء من تدريبه كشرطي. بدا مرهقًا، كبالون مثقوب، يتسرب منه الهواء على نحو لا يُرى.

سألته: «ماذا حدث؟»

لم يجب، بل سألني: «ما الذي يجعلك تعتقد أنها حية؟»

twitter @baghdad_library

توقفت. هل أخطأت؟ ألعل هويت لا يعلم؟ لكنني استدركتُ بسرعة، فقد شاهد الجثة في المشرحة. كان هو من تعرّف عليها، لا بد من أنه متورط. لكنني تذكرت الرسالة الإلكترونية.

لا تخبر أحدًا...

هل ارتكبت خطأ بمجيئي؟

أيضًا لا. تلك الرسالة وصلت قبل أن يحدث هذا كله، في عصر آخر تقريبًا. كان علي أن آخذ قرارًا هنا، أن أتصرف.

سألني:

– هل رأيتها؟

– لا.

– أين هي؟

– لا أعلم.

فجأة مال هويت برأسه، وأشار إلي واضعًا إصبعًا على شفتيه أن أصمت. وقف، واقترب من النافذة بخطى صامتة. كانت الستائر كلها مغلقة، فراح يختلس النظر من جانبها.

وقفت، فقال لي:

– إجلس.

– أطلِق علي النار يا هويت.

نظر إلي، فقلت له:

– إنها في ورطة.

– وتظن أن بوسعك مساعدتها؟

قال ذلك ثم أطلق ضحكة ساخرة، وأضاف:

– أنقذتُ حياتكما أنتما الاثنين تلك الليلة، ماذا فعلتَ؟

شعرت بانقباضة في صدري، وقلت له:

– تلقيتُ ضربة أفقدتني الوعي.

– صحيح.

– أنت... – كنت أعاني صعوبة في النطق – أنت أنقذتنا؟

– إجلس.

– إن كنت تعلم أين هي...

أكمل جملتي قائلًا: «لما كان هذا الحديث يدور بيننا.»

خطوتُ خطوة أخرى نحوه، ثم أخرى. صوب المسدس نحوي، لكنني لم أتوقف، بل واصلت التقدم حتى ضغطتْ فوهة المسدس على قفصي الصدري. وقلت له:

– إما أن تخبرني أو تقتلني.

– هل أنت على استعداد فعلًا للمجازفة؟

نظرتُ طويلًا في عينيه، نظرة تحدّ مباشرة، بدون أن يطرف لي جفن، ربما للمرة الأولى خلال علاقتنا الطويلة. مر شيء ما بيننا، برغم أنني غير واثق مما هو. لعله استسلام من جانبه، لا أعلم. لكنني ظللت حيث أنا. وسألته:

– هل تعلم كم أفتقد ابنتك؟

– إجلس يا دايفيد.

– ليس قبل أن...

قال بنبرة رقيقة: «سأخبرك. إجلس.»

ظلت عيناي تحدقان إليه، وأنا أتراجع نحو الأريكة، ثم ثنيتُ ركبتيّ لأجلس فوق الوسادة. ألقى المسدس على المنضدة وسألني:

– هل تريد كأسًا؟

– لا

– أنصحك بأن تفعل.

– ليس الآن.

رفع كتفيه وسار نحو إحدى خزائن المشروبات الأفقية الأبواب، والمكسوة من الداخل بالقماش المزركش. كانت قديمة ومتقلقلة، وكؤوسها غير منظمة، يرتطم واحدها بالآخر. كنت على يقين تام بأن هذه ليست زيارته الأولى اليوم إلى تلك الخزانة. راح يصب كأسه بتباطؤ زائد، وأردت استعجاله. ولكنني شعرت بأنني مارست عليه ما يكفي من الضغط في الوقت الحاضر.

twitter @baghdad_library

خلته بحاجة إلى ذلك، كان يستجمع أفكاره، وينظمها، ويقيّم وجهات النظر. وهذا كان طبيعيًا.

أمسك بالكأس بكلتا يديه، وغرق في الكرسي. وبدأ حديثه يقول لي:

– لم أحبك كثيرًا قط. لم يكن ذلك موجهًا ضدك شخصيًا. فأنت من عائلة جيدة، ووالدك كان رجلًا ممتازاً، ووالدتك... صدقًا، بذلتُ جهدًا.

كان يمسك الكأس بيد، ويعبث بشعره بالأخرى، وتابع يقول:

– لكنني ظننتُ أن علاقتك بابنتي كانت... – ونظر إلى السقف، يبحث فيه عن الكلمات – حائلًا أمام نموها. واليوم أدرك كم كان كلاكما محظوظًا جدًا.

إنخفضت حرارة الغرفة عدة درجات. حاولت ألا أتحرك، وأن أهدئ أنفاسي، وأن أفعل أي شيء لعدم إثارة اضطرابه. قال لي:

– سأبدأ بتلك الليلة عند البحيرة، حين أمسكا بها.

– مَن أمسك بها؟

نظر إلى كأسه، وقال: «لا تقاطعني. فقط أصغِ.»

أومأت برأسي ولكنه لم يرَني. ظل يحدق في شرابه، باحثًا عن الإجابات في قعر الكأس بالمعنى الحرفي للتعبير. ثم قال:

– أنت تعرف من أمسك بها، أو يجب أن تكون قد عرفت. إنهما الرجلان اللذان عُثر عليهما مدفونين هناك.

فجأة جال بعينيه على الغرفة بنظرة سريعة شاملة. ثم أخذ سلاحه بسرعة ووقف يتفقد النافذة من جديد. أردت أن أسأله عما يتوقع رؤيته في الخارج، ولكنني لم أشأ أن يتوه عن روايته.

تابع يقول:

– وصلت وشقيقي إلى البحيرة متأخرين، تقريبًا بعد فوات الأوان. وأعددنا لاعتراضهم على الطريق الترابي، حيث الصخرتان الكبيرتان. أتعرفهما؟

ألقى نظرة خاطفة نحو النافذة، ثم عاد ينظر إلي. أعرف الصخرتين اللتين تكلم عنهما، كانتا على مسافة نحو ثمانمئة متر من بحيرة شارماين. وهما ضخمتان، ومستديرتان، ولهما الحجم نفسه تقريبًا، تحرسان الطريق من كلا الجانبين. وراجت حول وصولهما إلى هناك أساطير كثيرة.

تابع هويت يقول:

– إختبأنا خلف الصخرتين، كين وأنا. وعندما اقتربوا أطلقتُ النار على إحدى عجلات السيارة. توقفا ليتحققا، وعندما خرجا من السيارة، أطلقت النار على رأسيهما.

ألقى هويت نظرة أخرى من النافذة، ثم عاد إلى كرسيه. وضع المسدس من يده، وعاد للتحديق إلى كأسه. لبثتُ أنتظره في صمت.

إستأنف حديثه يقول:

– كان غريفن سكوب هو مَن كلّف ذينك الرجلين مهمة استجواب إليزابيت، ثم قتلها. لكنني علمتُ وكين بالخطة، فمضينا إلى البحيرة لإيقافهما.

رفع يده وكأنما لإسكات سؤالٍ، برغم أنني لم أجرؤ على فتح فمي. وتابع يقول:

– الطريقة والأسباب غير مهمة. غريفن سكوب أراد إليزابيت ميتة. هذا كل ما أنت بحاجة إلى معرفته. وما كان ليردعه مقتل اثنين من رجاله، فهو يستطيع العثور على كثيرين مثلهما. إنه أشبه بأحد تلك الوحوش الأسطورية التي إذا ما قُطع رأسها ينبت لها رأسان جديدان – وقال وهو ينظر إلي – لا يمكنك أن تحارب هذا النوع من النفوذ يا بِكْ.

أخذ جرعة طويلة من كأسه، وبقيت في مكاني بدون حراك. تابع كلامه وهو يقترب مني ليشد انتباهي:

– أريدك أن تعود إلى تلك الليلة وتضع نفسك مكاننا. على الطريق الترابي جثتان لرجلين، أرسلهما لقتلك أحد أقوى الرجال نفوذًا في العالم. ولن يتورع عن قتل أبرياء في سبيل الوصول إليك. ماذا يمكنك أن تفعل؟ فلنفترض أننا قررنا اللجوء إلى الشرطة. ماذا كنا سنقول لهم؟ إن رجلًا مثل سكوب لا يترك خلفه أدلة. وحتى لو فعل، فبإمرته من أفراد الشرطة والقضاة، أكثر مما في رأسي من شعر. لو لجأنا إلى الشرطة لكنا في عداد الأموات. لذلك، أسألك يا بِكْ: أنت هناك، وعلى الأرض قتيلان، وتعرف أن الأمر لن يتوقف هناك. فماذا تفعل؟

إعتبرت السؤال بلاغيًا لا ضرورة للإجابة عليه. تابع يقول:

twitter @baghdad_library

– عرضتُ هذه الوقائع على إليزابيت، تمامًا كما أعرضها عليك الآن. وقلت لها إن سكوب سيمحونا من الوجود للوصول إليها. لو هربتْ مثلًا، أو اختبأتْ، لعذبنا حتى نبوح بمكانها، أو قد يلاحق زوجتي أو شقيقتك. وسيقوم بكل ما هو مطلوب للعثور على إليزابيت وقتلها.

إقترب مني، وسألني: «هل تفهم الآن؟ هل ترى ما كان الحل الوحيد؟»

أومأت برأسي علامة الموافقة لأن الأمر بدا فجأة بمنتهى الشفافية، وقلت: «كان عليك أن تجعلهم يعتقدون أنها ميتة.»

إبتسم، فاجتاحت جسدي كله قشعريرة جديدة. وقال:

– كنت قد ادخرت بعض المال، وأخي كين ادخر المزيد. كما كانت لدينا اتصالات مع أشخاص نافذين. فتوارت إليزابيت عن الأنظار، وتم تهريبها إلى خارج البلاد، حيث قصت شعرها، وتعلمت التنكر. ربما كان في ذلك شيء من المبالغة، إذ لم يعد أحد للبحث عنها. أمضت الأعوام الثمانية الأخيرة، تتنقل بين بلدان العالم الثالث، عاملة مع الصليب الأحمر أو اليونيسف، أو أي منظمة تستطيع الانضمام إليها.

إنتظرتُ المزيد. ثمة أمور كثيرة لم يخبرني إياها بعد. تغلغلت هذه المعلومات الجديدة إلى داخلي، وهزتني في الصميم. إليزابيت كانت حية. كانت حية طوال السنوات الثماني الماضية. تتنفس وتعيش وتعمل... كان ذلك أكثر من أن يمكن استيعابه، كإحدى المسائل الرياضية المعقدة التي تجعل الكمبيوتر يتعطل.

– لعلك تتساءل عن الجثة التي كانت في المشرحة.

سمحت لنفسي بإيماءة.

– في الواقع، كان الأمر في غاية البساطة. نستقبل دائمًا جثثًا لنساء مجهولات الهوية. فنحتفظ بها في قسم الطب الشرعي، إلى أن يسأم منها شخص ما، وآنذاك ندفنها في مقابر الفقراء في جزيرة روزفلت. لذلك مكثت أنتظر ظهور جثة لامرأة بيضاء تشبه إليزابيت. وطال ذلك أكثر مما توقعت. لعل المرأة كانت هاربة طعنها قوادها، لكننا لن نعرف ذلك بشكل مؤكد أبدًا. كما لم يكن ممكنًا أن نترك قضية مقتل إليزابيت مفتوحة. كنا بحاجة إلى

مجرم، فاخترنا روي السفاح. كان معلومًا أن روي السفاح يسم وجوه ضحاياه بحرف «ك»، فوسمنا وجه الجثة. بقيت مشكلة التعرّف على الجثة. فكرنا في إحراقها حتى يتعذر التعرّف عليها. ولكن ذلك كان سيثير مشكلة سجلات الأسنان وما إلى ذلك، لذا جازفنا. كان الشعر مناسبًا، ولون البشرة والعمر قريبين. فألقينا جثتها في بلدة ذات مركز طب شرعي صغير. وأجرينا نحن المكالمة المجهولة مع الشرطة للتبليغ عن الجثة. وحرصنا على الوصول إلى المشرحة بالتزامن مع وصول الجثة إليها. لم يبقَ أمامي سوى التعرّف على الجثة بعينين دامعتين. هكذا يتم التعرّف على هوية غالبية ضحايا جرائم القتل، من قِبل أحد أفراد العائلة. وهكذا، تعرّفت عليها أنا، وأكد كين هويتها. مَن قد يشك في ذلك؟ لماذا قد يكذب والد ضحية وعمها في أمر كهذا؟

قلت له:

– أقدمت على مجازفة كبيرة.

– ولكن أي خيار آخر كان متاحًا؟

– لا بد من أنه كانت هناك طرق أخرى.

إقترب مني أكثر، حتى شممتُ رائحة أنفاسه، ورأيت تراخي طيات الجلد تحت عينيه. قال لي:

– مرة أخرى يا بِكْ، أنت على ذلك الطريق الترابي ولديك جثتان. تبًا! أنت تجلس هنا مفكرًا في أمر بات من الماضي. أخبرني: ماذا كان يجب أن نفعل؟

لم أملك جوابًا. أضاف هويت، وهو يعود بظهره إلى الخلف قليلًا:

– كانت ثمة مشاكل أخرى أيضًا. لم نكن واثقين إطلاقًا من أن رجال سكوب ستنطلي عليهم هذه الخدعة. ولكن من حسن حظنا أن ذينك السافلين كان يُفترض بهما مغادرة البلاد بعد الجريمة. وقد وجدنا معهما تذكرتَي سفر إلى بوينس آيرس. كانا من صغار المجرمين الذين لا يوثق بهم، وهذا ما ساعدنا. فانطلت الخدعة على رجال سكوب، إلا أنهم استمروا بمراقبتنا، ليس لاعتقادهم بأنها لا تزال حية، ولكن لخشيتهم من أنها ربما أعطت أحدنا بعض الوثائق التي التي تقود إلى الإدانة.

– أية وثائق؟

twitter @baghdad_library

تجاهل هويت السؤال، وتابع:

– منزلك، وهاتفك، وربما عيادتك، تحت مراقبة أجهزة التنصت منذ ثماني سنوات، وكذلك منزلي وهاتفي.

ذلك كان تفسير الرسائل الإلكترونية الحذرة. راحت عيناي تتنقلان في الغرفة، فقال هويت:

– تفحصت المنزل أمس، إنه خالٍ من أجهزة التنصت.

حين سكت عن الكلام للحظات، جازفتُ بطرح سؤالٍ عليه:

– لماذا اختارت إليزابيت العودة الآن؟

– لأنها حمقاء.

للمرة الأولى سمعت في صوته غضبًا. إنتظرته بعض الوقت حتى سكن قليلًا، وتراجعت الانتفاخات الحمراء في وجهه. ثم قال بهدوء:

– الجثتان اللتان دفناهما.

– ما بهما؟

– كانت إليزابيت تتابع الأخبار عبر الإنترنت. وعندما قرأت خبر العثور عليهما، تبادر إلى ذهنها، كما إلى ذهني، أن رجال سكوب قد يدركون الحقيقة.

– حقيقة أنها لا تزال حية؟

– أجل.

– ولكن ما دامت خارج البلاد، فالعثور عليها سيكون صعبًا جدًا.

– هذا ما قلته لها، ولكنها قالت إن ذلك لن يردعهم، وإنهم سيطاردونني أو يطاردون أمها، أو يطاردونك أنت. لكن – وتوقف مجددًا عن الكلام وخفض رأسه – أجهل ما إذا كان لذلك كله أية أهمية.

– ماذا تعني؟

– أحيانًا أظنها أرادت للأمر أن يحدث.

راح يتلاعب بكأسه، ويرجرج مكعبات الثلج، وأضاف:

– أرادت أن تعود إليك يا دايفيد. أعتقد أن الجثتين كانتا مجرد ذريعة.

إنتظرت مجددًا. شرب جرعة أخرى، واسترق النظر من النافذة مرة أخرى. وعاد ليقول لي:

– حان دورك.

– ماذا؟

– أريد بعض الإجابات الآن. مثلًا، كيف اتصلت بك؟ كيف تمكنت من الفرار من الشرطة؟ أين تظنها الآن؟

ترددتُ، ولكن ترددي لم يدم طويلًا. أي خيار كان لدي؟ فأجبته:

– إتصلت بي إليزابيت بواسطة رسائل إلكترونية مجهولة المصدر. واستخدمت رموزًا أنا وحدي أستطيع فهمها.

– أي نوعٍ من الرموز؟

– أشارت إلى أشياء من ماضينا.

أومأ هويت برأسه، وقال:

– عرفتُ أنهم ربما كانوا يراقبونك.

– نعم.

غيرتُ جلستي على الأريكة، وسألته:

– كم تعرف عن فريق غريفن سكوب؟

بدا مرتبكًا، وسألني:

– فريقه؟

– أيعمل لديه رجل آسيوي قوي البنية؟

غاب كل لون من وجه هويت، كانسياب الدم من جرح نازف. ونظر إلي في رهبة، وكأنه على وشك أن يرسم إشارة الصليب.

قال بنبرة خافتة: «إريك وو.»

– صادفتُ السيد وو بالأمس.

– مستحيل.

– لماذا؟

– لو صادفتَه لما كنت الآن حيًا.

– حالفني الحظ.

أخبرته القصة، فبدا على وشك البكاء. وقال:

– لو أن وو وجدها، لو أنه وصل إليها قبل أن يصل إليك...

twitter @baghdad_library

أغمض عينيه، وحاول أن يطرد الصورة من مخيلته. فقلت له:

– لم يجدها.

– ما الذي يجعلك واثقًا؟

– أراد وو أن يعرف سبب وجودي في المتنزه. لو أنه وجدها، لمَ يتكلف عناء هذا السؤال؟

أومأ برأسه ببطء. ثم أنهى كأسه، وصب لنفسه كأسًا أخرى، وقال:

– ولكنهم باتوا يعلمون أنها حية. وهذا يعني أنهم سيسعون إلينا.

قلتُ بشجاعة تفوق بكثير ما أشعر به:

– سنقاومهم.

– لم تسمع ما قلته لك من قبل. الوحش الأسطوري، كلما قُطع له رأس، نبتت له رؤوس.

– ولكن البطل هو مَن يتغلب دائمًا على الوحش.

ضحك هازئًا بقولي، وكنت أستحق هزءه. لم تفارقه عيناي. دقت ساعة الحائط. واصلتُ التفكير. ثم قلت له:

– عليك أن تخبرني بقية القصة.

– إنها غير مهمة.

– إنها مرتبطة بمقتل براندون سكوب، أليس كذلك؟

حاول النفي بهزة غير مقنعة من رأسه.

– أعلم أن إليزابيت قدمت لهيليو غونزاليز حجة غياب.

– الأمر غير مهم يا بِكْ. صدقني.

– صدقتك من قبل، وحلّ بي ما حلّ.

شرب جرعة أخرى. تابعتُ أقول له:

– كانت إليزابيت تحتفظ بصندوق ودائع باسم سارة غودهارت. وهناك عثروا على تلك الصور الفوتوغرافية.

– أعرف. كنا على عجلة من أمرنا في تلك الليلة، ولم أعلم أنها أعطتهما المفتاح. أفرغنا جيوبهما، ولكنني لم أتحقق من أحذيتهما أبدًا. ما كان ذلك ليكون مهمًا، ولا كنت أتوقع أن يُعثر عليهما.

قلت له:

– تركت إليزابيت في ذلك الصندوق ما هو أكثر من الصور.

وضع هويت كأسه بعناية على المنضدة. فتابعت قائلًا:

– مسدس أبي القديم كان هناك أيضًا. من عيار 38، أتتذكره؟

نظر هويت بعيدًا، وقال بصوت رق فجأة:

– مسدس «سميث أند ويسون»، ساعدته بنفسي على انتقائه.

أحسستُني أرتجف من جديد. ثم سألته:

– أكنت تعلم أن براندون سكوب قُتِلَ بذلك المسدس؟

أغمض عينيه بشدة، كطفل يحاول أن يطرد حلمًا سيئًا. لكنني قلت له:

– أخبرني ما حدث.

– أنت تعلم ما حدث.

لم أستطع السيطرة على ارتجافتي. وقلت:

– أخبرني، في كل حال.

كان لكل كلمة أسمعها وقع اللكمة علي.

– إليزابيت قتلت براندون سكوب.

هززتُ رأسي. هذا ليس صحيحًا.

– لقد عملتْ إلى جانبه في تلك المؤسسة الخيرية، وكان اكتشافها الحقيقة مسألة وقت ليس إلا. كان براندون يلعب دور رؤساء العصابات ويدير عمليات إجرامية، كالمخدرات والدعارة، ومَن يعلم ماذا أيضًا.

– هي لم تخبرني قط.

– لم تخبر أحدًا قط، ولكن براندون عرف. في البداية، أوسعها ضربًا بمثابة تحذير. وطبعًا، لم أعلم بالأمر حينذاك، فقد أخبرتني أنها تعرضت لحادث سيارة.

قلت له مصرًا: «هي لم تقتله.»

– كانت بحالة دفاع عن النفس. حين رفضت الكف عن التحقيق في نشاطاته، اقتحم براندون منزلكما، حاملًا سكينًا. هاجمها... فأطلقت عليه النار. كانت بحالة دفاع مشروع عن النفس.

twitter @baghdad_library

لم أستطع التوقف عن هز رأسي. لكنه تابع يقول:

– إتصلت بي باكية، فذهبتُ إلى منزلكما. وعندما وصلت إلى هناك – وتوقف عن الكلام ليلتقط أنفاسه – كان قد فارق الحياة، وكانت إليزابيت تمسك بالمسدس. أرادت مني أن أتصل بالشرطة، ولكنني أقنعتها بالعدول عن الأمر. سواء أكانت بحالة دفاع عن النفس أم لا، فإن غريفن سكوب سيقتلها، وأسوأ. طلبت منها أن تمهلني ساعات قليلة. كانت مضطربة جدًا ولكنها وافقت أخيرًا.

قلت له: «نقلتَ الجثة إلى مكانٍ آخر.»

أومأ برأسه علامة الموافقة، وقال:

– كنت مطلعًا على موضوع غونزاليز، فذلك النذل كان يسير إلى حياة حافلة بالإجرام. لي خبرة في هذا النوع من البشر. وسبق له أن نجا من إدانة بجريمة قتل بسبب خطأ في الشكل. فمَن أفضل منه لإلصاق التهمة به؟

كان الأمر يتضح لي تمامًا. قلت له:

– ولكن إليزابيت لم تقبل بذلك.

قال:

– لم أنتظر منها أن تقبل. سمعتُ خبر الاعتقال عبر وسائل الإعلام، فقررت أن تختلق حجة الغياب الشهيرة تلك. لإنقاذ غونزاليز من... – ورفع إصبعين في إشارة اقتباس ساخرة – ظلم فادح.

هز رأسه باستياء.

– ورطة. لو أنها فقط تركت ذلك التافه يتحمل العاقبة لانتهى الأمر في حينه.

قلت:

– إكتشف رجال سكوب أنها قدمت حجة الغياب تلك.

– سرب الخبر إليهم شخص ما من الداخل. فبدأوا بالتفتيش، وسرعان ما اكتشفوا التحقيق الذي تقوم به إليزابيت. وأصبحت بقية الرواية واضحة.

– إذًا فما جرى تلك الليلة عند البحيرة كان من أجل الانتقام.

فكر في الأمر، وقال:

– الانتقام هو جزء من الدافع، والجزء الآخر هو التغطية على حقيقة براندون سكوب. كان بطلًا ميتًا، والحفاظ على صورته تلك كان يعني الكثير لوالده.

فكرتُ: «وأيضًا لشقيقتي.» ثم قلت لهويت:

– لا أفهم بعد لماذا احتفظت بالمسدس في صندوق ودائع.

– لأنه الدليل.

– على ماذا؟

– على أنها قتلت براندون سكوب، وعلى أنها فعلت ذلك دفاعًا عن النفس. مهما كان ليحدث، لم ترد إليزابيت أن يُلقى اللوم في ما فعلتْه على أي شخص آخر. ألا تجد أن هذا تفكير ساذج؟

لا، لم أوافقه الرأي. جلست هناك محاولًا استيعاب الحقيقة، لكن ذلك لم يحدث. حتى تلك اللحظة، بأية حال، لأن تلك لم تكن الحقيقة الكاملة. أعرف ذلك أكثر من أي شخص. نظرت إلى حميّ، إلى جلده المترهل، وشعره المتساقط، وبطنه المندلق، وجسده المتراخي، برغم أنه ما زال يثير الإعجاب. كان هويت يظن نفسه يعلم حقيقة ما حدث لابنته، ولكنه لم يعلم كم كان على خطأ.

سمعت قصفة رعد، وراح المطر يقرع النوافذ مثل قبضات صغيرة. قلت له:

– كان بوسعك أن تخبرني.

هز رأسه، بقوة أكبر هذه المرة، وسألني:

ماذا كنت ستفعل يا بِكْ؟ تتبعها؟ تهربان معًا؟ كانوا سيدركون الحقيقة ويقتلوننا جميعًا. كانوا يراقبونك، ولا يزالون. لم نخبر أحدًا، ولا حتى والدة إليزابيت. وإذا كنتَ بحاجة إلى دليل على صواب ما فعلناه، فانظر حولك. لقد مرت ثمانية أعوام، وكل ما فعلتْه أنها بعثت ببضع رسائل إلكترونية مجهولة المصدر، وانظر ما حدث.

سمعنا صوت باب سيارة يُغلق، فوثب هويت نحو النافذة كهر ضخم. ونظر من جديد، ثم قال لي:

– إنها السيارة ذاتها التي وصلتَ بها، وبداخلها رجلان أسودان.

twitter @baghdad_library

– أتيا من أجلي.

– هل أنت متأكد من أنهم لا يعملان مع سكوب؟

– كل التأكيد.

في تلك اللحظة، رن هاتفي الخلوي الجديد. فأخذته لأجيب، وسألني تايريز:

– هل كل شيء على ما يرام؟

– نعم.

– أخرج.

– لماذا؟

– أتثق بذلك الشرطي؟

– لست متأكدًا من ذلك.

– أخرج.

قلت لهويت إن علي أن أذهب، لكنه بدا أكثر شعورًا بالإرهاق من أن يكترث للأمر. إستعدت مسدسي وأسرعت نحو الخارج، لأرى تايريز وبروتوس ينتظرانني. كانت شدة المطر قد تراجعت، ولكن أحدًا منا لم يبالِ.

قال تايريز:

– ثمة اتصال لك. قف هناك.

– لماذا؟

– إنه موضوع شخصي، ولا أريد سماعه.

– ولكنني أثق بك.

– إفعل فقط ما أقوله لك يا رجل.

إبتعدت إلى حيث لا يسمعانني. ورأيت خلفي ستارة النافذة ترتفع، وهويت يسترق النظر إلى الخارج. نظرت إلى تايريز، الذي أشار إلي بأن أضع الهاتف على أذني، ففعلت. بعد هنيهة من الصمت، قال تايريز:

– الخط مفتوح، تكلم.

ثم سمعتُ صوت شونا تقول لي: «رأيتُها.»

تجمدت حيث أنا. تابعت شونا:

– تطلب منك أن تقابلها هذا المساء في الدلفين.

فهمتُ. ثم انقطع الاتصال. سرت مجددًا نحو تايريز وبروتس، وقلت:

– علي الذهاب بمفردي إلى مكان ما، حيث لا يمكن أن يتبعني أحد.

ألقى تايريز نظرة خاطفة نحو بروتوس، ثم قال لي:

– أدخل إلى السيارة.

twitter @baghdad_library

42

قاد بروتوس السيارة كالمجنون. كان يسير في الطرقات ذات الاتجاه الواحد في الاتجاه المعاكس، وينعطف بالسيارة انعطافات كاملة بغتة. كما اندفع بين السيارات من أقصى يمين الطريق إلى أقصى يساره، لينعطف يسارًا متجاوزًا إشارة المرور الحمراء. وقد كسبنا وقتًا ممتازًا.

كان في محطة قطار الأنفاق في آيلين قطار يتجه نحو بورت جرفيس ينطلق بعد عشرين دقيقة، ومن هناك أستطيع استئجار سيارة. عندما أوصلاني، بقي بروتوس في السيارة، فيما رافقني تايريز إلى مكتب حجز التذاكر.

قال لي:

– قلت لي أن أهرب ولا أعود.

– صحيح.

– ربما عليك أن تفعل الأمر عينه.

مددت له يدي لأصافحه، لكنه تجاهلها، وعانقني بشدة. قلت له بصوت رقيق: «شكرًا.»

فسحب قبضته، وحرك كتفيه حتى استوت سترته عليه، ثم ثبت نظارته الشمسية، وقال: «نعم، لا بأس.» ولم ينتظرني لأضيف شيئًا بل عاد أدراجه إلى السيارة.

وصل القطار وانطلق في موعده. وجدت مقعدًا وتهالكت فيه. حاولت أن أفرغ ذهني، لكن عبثًا. ألقيت نظرة من حولي. كانت المقطورة شبه خالية، ما خلا طالبتين جامعيتين ومعهما حقيبتا ظهر مليئتان، تثرثران بلغة المراهقات التي تتميز بمفرادت مثل «هكذا» و«تعرفين». جالت عيناي في المكان فرأيت جريدة – كانت صحيفة فضائح مدينية – تركها أحدهم على مقعد.

ذهبت إلى حيث كانت الجريدة، وأخذتها. كانت صورة الغلاف لنجمة شابة اعتُقلت بتهمة السرقة من أحد المتاجر. قلبت الصفحات على أمل أن أقرأ بعض الطرائف، أو أقف على آخر الأخبار الرياضية. كنت أبحث عن أي شيء لا أهمية له أتلهى به. لكن عينيّ وقعتا على صورة... لي. الرجل المطلوب. مدهش كم بدوتُ شريرًا في تلك الصورة المعتمة، كإرهابي من الشرق الأوسط.

وآنذاك رأيت الخبر، فتعرض عالمي الذي كان متزعزعًا قبل قليل إلى هزة جديدة.

لم أكن أقرأ المقال، بل هامت نظراتي على طول الصفحة. لكنني وللمرة الأولى قرأت اسمَي الرجلين اللذين عُثر على جثتيهما بقرب البحيرة، وكان أحدهما مألوفًا.

ملفين بارتولا.

غير ممكن.

ألقيت الصحيفة من يدي، واندفعت أفتح الأبواب المنزلقة بين العربات، حتى وجدت مراقبًا بعد عربتين، فسألته:

– أين المحطة المقبلة؟

– ريدجمونت، نيوجرسي.

– هل من مكتبة بالقرب من المحطة؟

– لا أعلم.

ومع ذلك، نزلت هناك.

ثنى إريك وو أصابعه، وبدفعة صغيرة وشديدة، خلع الباب.

twitter @baghdad_library

لم يستغرق منه وقتًا طويلًا العثور على الرجلين الأسودين اللذين ساعدا الدكتور بِكْ على الفرار. كان للاري غاندل أصدقاء في قسم الشرطة، أعطاهم وو أوصاف الرجلين، وراح يبحث في سجلات أصحاب السوابق. بعد ساعاتٍ عدة لمح وو صورة مجرم يدعى بروتوس كورنوول. أجروا بضع اتصالات وعلموا أن بروتوس يعمل لدى تاجر مخدرات يدعى تايريز بارتون.

أمر بسيط.

تحطم قفل السلسلة، وانفتح الباب واسعًا حتى ارتطم مقبضه بالجدار. رفعت لاتيشا عينيها، مجفلة. كانت على وشك أن تطلق صرخة، ولكن وو تحرك بسرعة، فأطبق بيده على فمها، واقترب بشفتيه من أذنها. ثم تبعه إلى داخل المنزل رجل آخر كلفه لاري غاندل العمل لحسابه.

قال لها وو بصوت يكاد يكون رقيقًا: «صمتًا.»

كان تي جاي على الأرض يلعب بسياراته الصغيرة، فمال برأسه حين سمع الضوضاء وقال: «ماما؟»

إبتسم له إريك، ثم أفلت لاتيشا وركع أرضًا. حاولت لاتيشا إيقافه ولكن الرجل الآخر منعها. وضع وو يده الكبيرة على رأس تي جاي، وداعب شعره، في حين التفت نحو لاتيشا وسألها:

– هل تعرفين أين يمكنني العثور على تايريز؟

ترجلتُ من القطار، وأخذت سيارة أجرة إلى مكتب لتأجير السيارات. أعطاني الموظف ذو السترة الخضراء الجالس خلف المكتب إرشادات للوصول إلى المكتبة. وبلغتها في ثلاث دقائق ربما. كانت مكتبة ريدجمونت مبنى حجريًا عصريًا على الطراز النيوكولونيالي، ذات نوافذ كبيرة، ورفوف من خشب الزان، وشرفات، وأبراج، وبار للقهوة. في مكتب الاستقبال في الطابق الثاني، وجدتُ أمينة مكتبة وسألتها عما إذا كان بإمكاني أن أستخدم الإنترنت.

سألتني: «هل لديك بطاقة هوية؟»

كانت بطاقتي معي، فنظرت إليها وقالت: «يجب أن تكون من سكان المقاطعة.»

قلت لها: «رجاءً. الأمر في غاية الأهمية.»

توقعت منها أن تتشبث برفضها، ولكنها لانت وسألتني:

– كم ستستغرق من الوقت، برأيك؟

– بضع دقائق لا أكثر.

أشارت إلى كمبيوتر خلفي، وقالت:

– الكمبيوتر الذي هناك مخصص للاستخدام السريع. يستطيع مَن يشاء أن يستخدمه لمدة عشر دقائق.

شكرتها وأسرعت نحوه. وعثرت بواسطة متصفح ياهو على موقع نيوجرسي جورنال، وهي الجريدة الكبرى في مقاطعتَي برغن وباسايك. كنت أعرف بدقة التاريخ الذي أحتاج إليه. الثاني عشر من كانون الثاني، يناير منذ اثنَي عشر عامًا. دخلت الأرشيف، وكتبت موضوع البحث.

كان أرشيف الموقع يعود ست سنوات إلى الوراء فقط.

اللعنة!

عدت مسرعًا إلى أمينة المكتبة، وقلت لها:

– أنا بحاجة إلى العثور على مقال في نيوجرسي جورنال، يعود إلى اثنَي عشر عامًا.

– أليس في أرشيفهم الإلكتروني؟

هززت رأسي علامة النفي.

قالت، وهي تضرب بيديها جانبَي كرسيها لتقف:

– الميكروفيلم. في أي شهر؟

– كانون الثاني، يناير.

كانت امرأة سمينة، وتمشي بخطى متعبة. وجدتْ بكرة ميكروفيلم في درج للملفات، ثم ساعدتني على وضعها في القارئة. وحين جلستُ قالت لي:

– حظًا سعيدًا.

حركتُ مقبض تشغيل القارئة، وكأنه خانق وقود في دراجة نارية حديثة. كان الميكروفيلم يتحرك في القارئة مطلقًا صريرًا، وكنت أتوقف

twitter @baghdad_library

كل بضع ثوان لأرى أين وصلت. وفي أقل من دقيقتين، وصلت إلى التاريخ المطلوب. وكان المقال في الصفحة الثالثة.

حالما رأيت العنوان، أحسستُ بعقدة في حلقي.

أقسم أنني أحيانًا أسمع حقًا صرير العجلات، برغم أنني كنت نائمًا في سريري، على مسافة كيلومترات كثيرة من المكان حيث وقع الحادث. لا يزال الأمر مؤلمًا، ربما ليس بقدر ما شعرتُ به ليلة فقدتُ إليزابيت، ولكنها كانت تجربتي الأولى مع الموت ومفهوم فناء البشر، والمآسي، وتلك تجربة لا يتجاوزها الإنسان بشكل نهائي أبدًا. بعد اثني عشر عامًا، لا أزال أتذكر كل تفصيل من تلك الليلة، برغم أن الذكريات تعود إلي في إعصار من الصور: رنين جرس المنزل قبيل الفجر، ورجال الشرطة بوجوههم الواجمة عند الباب، وبينهم هويت، وكلماتهم الهادئة والمختارة بعناية، وإنكارنا، والإدراك البطيء للواقع، ووجه ليندا المنقبض، ودموعي التي سالت بلا توقف، وأمي التي ظلت على رفضها أن تصدق، فراحت تُسكتني وتطلب مني الكف عن البكاء، وعقلها المترنح يسقط إلى الهاوية. راحت تسألني أن أكف عن التصرف كالأطفال، وتصر على أن كل شيء على ما يُرام. وفجأة اقتربت مني، فتعجبتْ من ضخامة دموعي، قائلة إنها ضخمة جدًا كدموع الأطفال، لا كدموع البالغين. ثم أخذتْ إحداها عن وجهي ووضعتها بين إبهامها وسبابتها، وقالت «كفى بكاءً يا دايفيد». وغضبت مني لأنني لم أكف، فراحت تصرخ بي أن أكف عن البكاء، حتى تدخلت ليندا وهويت لتهدئتها، وأعطاها أحدهم منومًا، لمرة لم تكن الأولى ولا الأخيرة. عاد كل ذلك إلى ذهني دفعة واحدة. لكنني حين قرأت المقال، شعرتُ بكياني يهتز بكامله، ولكن في اتجاه جديد تمامًا.

سقوط سيارة في مسيل ماء

قتيل واحد، والسبب مجهول

«عند حوالى الثالثة من فجر أمس سقطت سيارة فورد، توروس، يقودها ستيفن بِكْ من منطقة غرين ريفر، نيوجرسي، من فوق جسر في منطقة

ماهوا التي لا تبعد كثيرًا عن حدود ولاية نيويورك. كان الطريق زلقًا بسبب العاصفة الثلجية، لكن المسؤولين لم يجزموا بأسباب الحادث بعد. الشاهد الوحيد على الحادث، ملفين بارتولا، سائق شاحنة من شايان، وايومينغ...»

توقفت عن القراءة. حادث أم انتحار، لطالما حار الناس في سبب موت أبي. الآن عرفت أنه لم يكن حادثًا ولا انتحارًا.

قال بروتوس: «ما الخطب؟»

– لا أعلم يا رجل.

ثم أضاف بعد التفكير في الأمر: «لا أريد العودة.»

لم يجب بروتوس. فاسترق تايريز النظر إلى صديقه القديم. بدآ يقضيان الوقت معًا منذ الصف الثالث. حتى في ذلك الحين لم يكن بروتوس يهوى الكلام. ربما كان مشغولًا جدًا بتلقي الضرب على قفاه، مرتين يوميًا، مرة في المنزل وأخرى في المدرسة، إلى أن أدرك أن سبيله الوحيد للبقاء، كان في أن يصبح الوغد الأكثر إثارة للرعب في الحي. وفي عامه الحادي عشر بدأ بحمل مسدس إلى المدرسة، وفي عامه الرابع عشر ارتكب أول جريمة قتل.

قال له تايريز: «ألم تتعب من هذا يا بروتوس؟»

رفع بروتوس كتفيه، وأجاب: «هذا كل ما نعرف القيام به.»

تلك كانت الحقيقة، الجامدة، والتي لا يمكن تجاهلها.

رن هاتف تايريز الخلوي، فأخذه وقال: «نعم.»

– مرحبًا يا تايريز.

لم يتعرّف تايريز إلى صاحب الصوت الغريب، فقال: «مَن يتكلم؟»

– تقابلنا أمس، في شاحنة بيضاء.

تجمد الدم في عروق تايريز، وفكر «بروس لي. اللعنة» قال له:

– ماذا تريد؟

– لدي شخص هنا يريد أن يلقي عليك التحية.

بعد برهة صمت قال تي جاي: «أبي؟»

twitter @baghdad_library

خلع تيريز نظارته الشمسية عن عينيه بسرعة، وتجمد جسده. وسأل ابنه: «تي جاي؟ هل أنت بخير؟»

لكن إريك وو عاد إلى الخط، فقال له:

– أبحث عن الدكتور بِكْ يا تايريز. تي جاي وأنا كنا نأمل أن تساعدني لكي أجده.

– لا أعلم أين هو.

– هذا أمر مؤسف.

– أقسم بالله أنني لا أعلم.

قال وو: «فهمت.» ثم أضاف:

– مهلًا يا تايريز، أريدك أن تسمع شيئًا.

43

كانت الريح تهب، والأشجار ترقص، ولون الغروب البنفسجي المخضب بالبرتقالي ينحسر ليحل محله لون القصدير المصقول. وأثار فيّ القلق شعوري بأن هذه الليلة لا تختلف في شيء تقريبًا عما كانت عليه منذ ثماني سنوات، حين أتيت إلى هذه الأراضي المباركة لآخر مرة.

تساءلت عما إذا كان سيخطر ببال رجال غريفن سكوب أن يراقبوا بحيرة شارماين. لم يكن للأمر أهمية كبيرة، فإليزابيت أذكى بكثير من أن تغفل هذا. ذكرتُ سابقًا أن المكان كان مخيمًا صيفيًا قبل أن يشتري جدي الأرض. والرمز الذي استخدمته إليزابيت، الدلفين، هو اسم أحد الأكواخ الذي كان مهجعًا لأكبر الفتيان سنًا. وهو الكوخ الأبعد، ونادرًا ما تجرأنا على زيارته.

صعدت السيارة التي استأجرتها في الطريق الذي كان في ما مضى مدخل الخدمة في المخيم، برغم أنه لم يبقَ منه الكثير. وقد أخفته الأعشاب العالية، فلم يعد يُرى من الطريق الرئيسي، وأصبح كمدخل «كهف الرجل الوطواط».

أبقينا في المكان سلسلة تسد هذا المدخل، ولافتة كُتب عليها «ممنوع التعدي»، تحسبًا لاحتمال دخول غرباء. لا تزال السلسلة واللافتة حيث هما، لكنهما تحملان آثار سنوات الإهمال. أوقفتُ السيارة، وفككتُ السلسلة، ثم لففتها حول جذع شجرة.

twitter @baghdad_library

عدت إلى السيارة، واتجهت نحو المطبخ القديم في المخيم. لم يبقَ منه الكثير، وكان يمكننا أن نرى البقايا الصدئة والمقلوبة لما كانت في الماضي أفرانًا ومواقد طعام. وتناثرت بعض القدور والمقالي على الأرض، إلا أن معظمها طُمر مع الزمن. خرجتُ من السيارة وتنشقت رائحة الأعشاب والنباتات الزكية. حاولت عدم التفكير في أبي، بل في المرجة التي يمكن منها رؤية البحيرة، وفي تلألؤ ضوء القمر الفضي على سطحها الأملس. ومجددًا سمعتُ الشبح القديم، متسائلًا هذه المرة عما إذا لم يكن يصرخ داعيًا إلى الانتقام.

سرتُ في الدرب التي كادت تختفي هي أيضًا. غريب أن تختار إليزابيت هذا المكان للقائنا. ذكرتُ سابقًا أنها لم تكن تحب أبدًا اللعب في أنقاض المخيم الصيفي القديم. بعكسنا، ليندا وأنا، فقد كنا نفرح بعثورنا على أكياس نوم، أو معلبات طعام مفتوحة حديثًا، متسائلين مَن هو المتشرد الذي تركها، وإذا لم يزل قريبًا. أما إليزابيت التي كانت أذكى بكثير من كلينا، فلم تكن تهتم بتلك اللعبة. كانت الأماكن الغريبة وعدم اليقين تبعث في نفسها الخوف.

وصلت إلى هناك في عشر دقائق. اللافت أنني وجدتُ الكوخ لا يزال في حال جيدة. فسقفه وجدرانه لا تزال قائمة، لكن الدرجات الخشبية تفتتت. وبقيت اللافتة التي تحمل صورة الدلفين في مكانها، وقد تدلت بشكل عمودي من مسمار واحد. غزت الكوخ النباتات المعترشة والطحالب، وأنواع شتى من الأعشاب التي لا أعرف لها اسمًا، وأحاطت به، وتسللت إلى الداخل عبر شقوقه ونوافذه، حتى اكتنفته وبات جزءًا لا يتجزأ من المنظر الطبيعي.

سمعتُ صوتًا يقول لي: «لقد عدتَ.»

جفلني الصوت. كان صوت رجل.

جاءت ردة فعلي بدون تفكير. فقد قفزت جانبًا، وسقطتُ أرضًا، وتقلبت، وسحبت المسدس وصوبت. إكتفى الرجل بأن رفع يديه عاليًا. نظرتُ إليه من دون أن أبعد المسدس، فلم يكن كما توقعت. كانت لحيته الكثة تشبه عش طيور أبي الحن بعد هجوم الغربان عليها. وكان شعره طويلًا

ومتلبدًا، ويرتدي أسمالًا ممزقة، تكاد لا تستر جسده. خيل إلي لبرهة أنني عدت إلى المدينة، وأنني أرى متشردًا آخر يتسول. لكن ما رأيته لم يكن وقفة متسول، فالرجل وقف أمامي ثابتًا، ونظر في عينيّ. قلت له:

– يا للجحيم، مَن أنت؟

– مضى وقت طويل يا دايفيد.

– أنا لا أعرفك.

– صحيح، أنت لا تعرفني، ولكنني أنا أعرفك.

ثم أشار برأسه نحو الكوخ خلفي، وأضاف:

– أنت وشقيقتك. كنت أتفرج عليكما تلعبان هنا.

– لست أفهم.

إبتسم. كانت أسنانه، التي لم يفقد أيًا منها، ساطعة البياض وسط لحيته. وقال:

– أنا الغول.

سمعت من البعيد زعيق عائلة إوز، وهي تحط على مياه البحيرة. سألته:

– ماذا تريد؟

قال، وهو لا يزال يبتسم: «لا شيء على الإطلاق. أيمكنني أن أخفض يدي؟»

أومأت برأسي موافقًا.

خفض ذراعيه، وخفضت سلاحي أيضًا، لكنني ظللت متحسبًا. فكرت في ما قاله لي وسألته:

– كم مضى عليك تختبئ هنا؟

– بصورة متقطعة، منذ... – وبدا وكأنه يقوم بحساب على أصابعه – ثلاثين عامًا.

أمام تعبير الذهول الذي بدا على وجهي، ابتسم وقال: «أجل، راقبتك منذ كنت بهذا الحجم.» وأخفض يده إلى مستوى ركبته، وأضاف: «رأيتك تكبر و...» ثم توقف ليقول:

– مضى عليك زمن لم تأتِ فيه إلى هنا يا دايفيد.

– مَن أنت؟

twitter @baghdad_library

– أدعى جيريميا رينواي.

لم يذكرني الاسم بشيء.

– أختبئ هنا من العدالة.

– لماذا تُظهر نفسك الآن؟

رفع كتفيه، وقال: «أظنني سعيدًا برؤيتك».

– وما أدراك بأنني لن أبلغ السلطات عنك؟

– أظنك مدينًا لي بخدمة.

– كيف؟

– أنقذتُ حياتك.

شعرت بأن الأرض تميد تحت قدميّ، وسألته: «ماذا؟»

سألني: «مَن برأيك أخرجك من المياه؟»

فأخرسني الذهول.

– مَن برأيك جرك إلى الكوخ؟ مَن برأيك اتصل طالبًا الإسعاف؟

فتحتُ فمي ولكن الكلمات خانتني. إتسعت ابتسامته، وتابع يسألني:

– مَن برأيك نبش تينك الجثتين لكي يُعثر عليهما؟

قضيتُ بعض الوقت لأستعيد صوتي، ثم نجحت في أن أسأله: «لماذا؟»

أجاب:

– لا يمكنني أن أجزم. إسمع، لقد قمتُ بعمل سيئ منذ زمن بعيد. أظنني رأيت في ذلك فرصة للتكفير، أو شيئًا ما.

– أتعني أنك شاهدت...

أكمل رينواي سؤالي، فقال:

– كل شيء. شاهدتهما يقبضان على زوجتك، وشاهدتهما يضربانك بالمضرب. شاهدتهما يعدانها بانتشالك من البحيرة إذا أخبرتْهم بمكان شيء ما. شاهدت زوجتك تعطيهما مفتاحًا. شاهدتهما يضحكان ويرغمانها على دخول السيارة، فيما أنت لا تزال تحت الماء.

إبتلعت ريقي، وسألته: «هل شاهدتهما يُقتلان بالرصاص؟»

إبتسم رينواي ثانية، وقال: «ثرثرنا بما فيه الكفاية يا بني. إنها بانتظارك الآن.»

– لست أفهم.

كرر قائلًا، وهو يبتعد عني: «إنها بانتظارك، بقرب الشجرة.»

ودونما سابق انذار وثب داخل الغابة، مندفعًا كالغزال بين أشجارها ونباتاتها. وقفت هناك وشاهدته يتوارى بين أجماتها.

الشجرة.

آنذاك ركضتُ. كانت الأغصان تخدش وجهي، لكنني لم أبالِ. توسلت إلي ساقاي لأتوقف ولكنني لم أكترث. واعترضت رئتاي ولكنني أمرتهما بأن تصمدا. عندما انعطفت في النهاية يمينًا عند الصخرة التي تشبه القضيب، ودرتُ مع الدرب، رأيت الشجرة لا تزال هناك. إقتربت منها وشعرت بعيني تغرورقان بالدموع.

كانت الأحرف الأولى من اسمينا «إ. ب. + د. ب.» والمنقوشة فيها قد دكن لونها بمرور السنوات. وكذلك كانت حال الثلاثة عشر خطًا التي نقشناها. حدقت فيها لبرهة، ثم مددت يدي بخجل، ولامست الثلمات. لا أعني ثلمات أحرف أسمائنا، ولا ثلمات الخطوط الثلاثة عشر، بل تتبعت أصابعي الخطوط الثمانية الجديدة، التي لا تزال بيضاء ودبقة بفعل عصارة الشجرة.

ثم سمعتها تقول: «أعرف أنك تعتبر هذا من البلاهة.»

إنفجر قلبي. إلتفتّ خلفي فرأيتها هناك.

كنت عاجزًا عن الحركة، عاجزًا عن الكلام، ووقفت أحدق إلى وجهها. إلى ذلك الوجه البهي، وتينك العينين. أحسستُني أهوي بسرعة في هوة مظلمة. كان وجهها أكثر نحولًا، وعظام وجنتيها أكثر بروزًا، ولا أعتقد أنني رأيت طوال حياتي شيئًا بهذا الكمال.

تذكرت الأحلام التي عذبتني، لحظات الهروب الليلية حين كنت أضمها بين ذراعي، وأداعب وجهها، وفي الوقت عينه أشعر بقوة تشدني بعيدًا. مدركًا وسط ذلك الشعور بالغبطة، أنه شعور غير حقيقي، وأنني لن ألبث أن أعود إلى عالم اليقظة. غمرني الخوف من ألا يكون ما أعيشه سوى حلم من تلك الأحلام، فانقطع الهواء عن رئتيّ.

twitter @baghdad_library

بدت إليزابيت تقرأ أفكاري، فهزت برأسها وكأنما تقول : «نعم، هذه حقيقة.» خطت نحوي خطوة. كدت أتوقف عن التنفس، ولكنني استطعت هز رأسي والإشارة إلى الخطوط المنقوشة، وقلت «أجده أمرًا رومانسيًا.»

كتمت بيدها صرخة باكية، واندفعت نحوي. فتحتُ ذراعي فقفزَت إليهما. ضممتُها إلى صدري بأقوى ما يمكنني أن أضمها. وأغمضت عينيّ. شممتُ عطر الليلك والقرفة في شعرها. دفنَت وجهها في صدري وراحت تنشج بالبكاء. تعانقنا مرة تلو المرة. لا يزال... هذا مكانها. لم تكن انحناءات جسدينا وتجاويفها بحاجة إلى أي إعادة تكيف. وضعت يدي على مؤخر عنقها، ولكن ملمسه لم يتغير. أحسستُها ترتعش، ولا شك بأنها أحستني أرتعش أيضًا.

كانت قبلتنا الأولى رقيقة، ومألوفة، ويائسة بشكلٍ مخيف. قبلة شخصين عادا إلى سطح الماء بعدما أساءا تقدير عمقه. بدأت السنوات تذوب، والشتاء يفسح مجالًا للربيع. جاشت في داخلي انفعالات كثيرة، لم أسع إلى معرفتها أو التمييز بينها، بل تركتها تأتي.

رفعت رأسها ونظرت في عينيّ، وشعرت بنفسي عاجزًا عن الحركة. قالت لي «آسفة»، وشعرت بأن قلبي سيتحطم من جديد.

ضممتها إلي. ضممتُها وتساءلتُ عما إذا كنت سأجازف بإفلاتها. قلت لها:

– فقط لا تتركيني مجددًا.

– لن أتركك أبدًا.

– أتعدينني؟

– أعدك.

بقينا متعانقين، وشعرت بملمس بشرتها الرائع. لامستُ عضلات ظهرها. قبّلت عنقها الممشوق. حتى أنني رفعت عينيّ إلى السماء وظللت أعانقها. كنت أتساءل: كيف؟ كيف يمكن ألا تكون هذه دعابة قاسية أخرى؟ كيف يمكنها ألّا تزال حية وأن تعود إلي؟

لم أبالِ. أردت فقط أن يكون الأمر حقيقيًا، وأن يستمر.

ولكن حتى وأنا أضمها إلي، بدأ رنين الهاتف الخلوي، الذي بدا وكأنه من مادة الأحلام التي عذبتني؛ يبعدني عنها. حدثتني نفسي لبرهة ألا أجيب، ولكن بعد كل الذي حدث، لم يكن هذا خيارًا متاحًا أمامي. كان معنا في ما نعيشه أحباء لنا، ولا يمكننا أن نتخلى عنهم. كان كلانا يدرك ذلك. أبقيتُ ذراعًا حول إليزابيت – كان محالًا أن أدعها تفلت – ووضعت الهاتف على أذني وقلت «آلو.»

سمعتُ صوت تايريز. وفيما كان يتكلم، شعرتُ بأن ما أنا فيه من سعادة بدأ يتلاشى.

twitter @baghdad_library

44

ركنّا السيارة في الباحة المهجورة لمدرسة رايكر هيل الابتدائية، وسلكنا طريقًا مختصرًا يدًا بيد. وحتى في الظلام كان بوسعي أن ألاحظ أنه ما من تغيير حقيقي طرأ منذ كنتُ وإليزابيت نمرح هنا. إلا أن عينَي طبيب الأطفال المتمرستين لم تفتهما ملاحظة إجراءات الوقاية الجديدة. فباتت للأرجوحة سلاسل أقوى، ومقاعد متينة. وفُرشت تحت الألعاب الخارجية المختلفة بُسُط سميكة من العشب الطري تحسبًا لسقوط الأطفال. لكن ملعب كرة السلة وملعب كرة القدم، والملعب الأسفلتي، وملعب المربعات، لم تتغير كلها منذ كنا طفلين.

مررنا بنافذة الصف الثاني، حيث كانت الآنسة سوبيل معلمتنا، لكن وقتًا طويلًا قد انقضى منذ كنا فيه، ولا أظن أن أيًا منا شعر بأكثر من اختلاجة حنين عابرة. توغلنا في الغابة، ونحن لا نزال يدًا بيد. لم يكن أي منا قد سلك هذه الدرب منذ عشرين عامًا ولكننا ما زلنا نعرفها. بعد عشر دقائق وصلنا إلى الفناء الخلفي لمنزل إليزابيت في شارع غودهارت. إلتفتّ إليها فرأيتها تحدق إلى منزل طفولتها بعينين دامعتين.

سألتها: «ألم تعرف والدتك الحقيقة قط؟»

هزت رأسها بالنفي. ثم التفتت إلي، فتركتُ يدها ببطء.

سألتني: «هل أنت واثق؟»

أجبت: «لا خيار لدينا.»

لم أدع لها وقتًا للاعتراض، بل سرت مبتعدًا عنها نحو المنزل. عندما وصلت إلى الباب الزجاجي المنزلق، كوّرتُ يديّ حول عينيّ محاولًا أن أرى ما في الداخل. ما من أثر لهويت. مضيت إلى الباب الخلفي، وكان غير مقفل، فأدرت المقبض ودخلتُ. لم يكن في المكان أحد. كنت على وشك الخروج حين لمحت ضوءًا يومض في المرأب. فذهبت عبر المطبخ إلى حجرة الغسيل، وفتحت باب المرأب ببطء.

كان هويت باركر جالسًا في المقعد الأمامي لسيارته بويك سكايلارك، وكان محركها مطفأ، ويحمل في يده كأسًا. عندما فتحت الباب رفع مسدسه، لكنه رآني فخفضه ووضعه جانبًا. نزلتُ درجتين فبلغت أرض المرأب، ومددت يدي إلى مقبض باب الراكب الأمامي. لم يكن مقفلًا، ففتحته وجلست بجانبه.

سألني، بصوت يحمل أثر السكر: «ماذا تريد يا بِكْ؟»

غصت في مقعدي بحركة فيها الكثير من المبالغة. وقلت له:

– قل لغريفن سكوب أن يطلق سراح الطفل.

– لا أعرف عما تتكلم.

لم يكن جوابه يحمل ذرة من الإقناع.

– فساد، رشاوى، عمليات مشبوهة. إختر المصطلح الذي يروقك يا هويت، أعرف الحقيقة الآن.

– أنت لا تعرف شيئًا.

– تلك الليلة عند البحيرة، عندما عملت على إقناع إليزابيت بألا تلجأ إلى الشرطة.

– سبق لنا أن تحدثنا في هذا.

– أشعر بالفضول يا هويت. ما الذي كنت تخشاه فعلًا؟ أن يقتلوها أو أن يعتقلوك أيضًا؟

وجّه إليّ نظرة خمولة، وقال لي:

– لو لم أقنعها بالهرب لماتت.

twitter @baghdad_library

– لا أشك في ذلك يا هويت، ومع ذلك فإن الحظ حالفك في أن ترمي عصفورين بحجر واحد. فقد تمكنت من إنقاذ حياتها، ومن البقاء خارج السجن.

– ولمَ كنت سأدخل السجن؟

– هل تنكر أنك كنت تتقاضى الرشاوى من سكوب؟

رفع هويت كتفيه وأجاب:

– أتعتقد أنني كنت الوحيد الذي يتقاضى منهم أموالًا؟

– لا.

– إذًا، لماذا سأكون أكثر قلقًا من رجال الشرطة الآخرين؟

– بسبب ما فعلته.

أنهى شرابه، وبحث عن الزجاجة وصب لنفسه كأسًا أخرى. وقال لي:

– لا أعرف عما تتحدث.

– هل تعلم عما كانت إليزابيت تتحرى؟

– عن نشاطات براندون سكوب غير القانونية. دعارة، قاصرات، مخدرات. كان الرجل يلعب دور رجال العصابات.

قلت له وأنا أحاول أن ألجم ارتعاشي:

– وماذا أيضًا؟

– ماذا تعني؟

– لو واصلتُ البحث، لربما اكتشفت جريمة أكبر.

أخذتُ نفسًا عميقًا، وسألته:

– هل أنا على حق هويت؟

إرتخت قسماته عندما قلت ذلك. وأشاح بوجهه عني وراح ينظر عبر زجاج السيارة الأمامي. قلت له:

– جريمة قتل.

حاولت متابعة نظراته، لكنني لم أرَ إلا أدوات العدة المثبتة بانتظام فوق لوحة تعليق. كانت المفكات بمقابضها السوداء والصفراء مصفوفة وفقًا لأحجامها بترتيب كامل، ذات الرؤوس المسطحة إلى اليسار، وذات الرؤوس المتصالبة إلى اليمين، وبين الجهتين ثلاثة مفاتيح ربط ومطرقة.

قلت له: «لم تكن إليزابيت أول شخص أراد النيل من براندون سكوب.» ثم توقفت وانتظرت. إنتظرته حتى نظر إلي. طال ذلك قليلًا، لكنه في النهاية فعل. رأيت ذلك في عينيه، اللتين لم تطرفا، ولم يحاول إخفاء شيء. رأيت ذلك، وعرف أنني رأيته.

– هل قتلت أبي يا هويت؟

شرب جرعة كبيرة من كأسه، وتمضمض بها، ثم ابتلعها بصعوبة. سال بعض الويسكي على ذقنه، فلم يتكلف عناء مسحه. أجابني وهو يغمض عينيه:

– فعلتُ أسوأ. لقد خنته.

كان صدري يغلي غضبًا، لكن صوتي بقي هادئًا على نحو مفاجئ، فسألته:

– لماذا؟

– دعك يا دايفيد. لا شك بأنك عرفت السبب.

إجتاحتني موجة غضب جديدة. بدأتُ أقول: «كان أبي يعمل مع براندون سكوب...» فقاطعني قائلًا:

– أكثر من ذلك. كان غريفن سكوب قد كلفه تعليم ابنه. كانا يعملان جنبًا إلى جنب.

– كما كانت الحال مع إليزابيت.

– نعم.

– وأثناء العمل معه، اكتشف أبي أيّ وحش هو براندون. هل أنا على حق؟

إكتفى هويت بأن شرب الويسكي. فتابعت:

– لم يدرِ ما يفعل. كان يخشى البوح بما يعرف، لكنه لم يستطع تجاهل الأمر. كما كان الشعور بالذنب ينهشه. ذلك كان سبب صمته الكبير في الأشهر التي سبقت موته.

توقفت عن الكلام ورحت أفكر في أبي. كان خائفًا، وحيدًا، ولا مكان يلجأ إليه. لماذا لم أرَ ذلك؟ لماذا لم أنظر خارج حدود عالمي الخاص وأرى ألمه؟ لماذا لم أمد إليه يدي؟ لماذا لم أفعل شيئًا لمساعدته؟

نظرت إلى هويت. كان في جيبي مسدس. كم سيكون الأمر بسيطًا. يكفي أن آخذ المسدس وأضغط على الزناد، فينتهي كل شيء. لولا أنني علمت

twitter @baghdad_library

من تجربتي الشخصية أن ذلك لن يحل شيئًا. بل على العكس، سيزيد الأمور تعقيدًا. قال هويت:

– تابع كلامك.

– في مرحلة ما قرر والدي أن يخبر صديقًا. ولكنه ليس مجرد صديق. إنه شرطي. شرطي يعمل في المدينة حيث تُرْتَكَب جرائم سكوب.

بدأ دمي بالغليان، وعاد يهدد بالثوران. وقلت: «أنت، يا هويت.»

تغير في وجهه شيء ما.

– هل ما أقوله صحيح حتى الآن؟

– بشكل عام، نعم.

– وقد أخبرت عائلة سكوب، أليس كذلك؟

أومأ برأسه علامة الموافقة. وأجاب:

– ظننتُهم سينقلونه، أو يبعدونه عن براندون. لم أفكر قط...

كانت تكشيرة وجهه تفضح مدى كراهيته للتبرير الذي سمع نفسه يقوله. ثم سألني:

– كيف عرفت؟

– إسم ملفين بارتولا أوّلًا. كان هو الشاهد على حادث السيارة المزعوم الذي أودى بحياة أبي. ولكنه بالطبع كان يعمل لحساب سكوب أيضًا.

تراءت لي ابتسامة أبي، فشددتُ قبضتي. ثم تابعتُ أقول:

– ثم كانت تلك الكذبة التي رويتها حول إنقاذك حياتي. لقد عدتَ إلى البحيرة بعدما قتلت وولف وبارتولا، ولكن ليس لإنقاذي. بل نظرت ولم ترَ أية حركة فظننتَني ميتًا.

قال مكررًا كلامي:

– ظننتُك ميتًا، ولم أردك ميتًا.

– هذا تلاعب بالألفاظ.

– لم أشأ أن تتعرض لمكروه قط.

– ولكنك كذلك لم تكن شديد التأثر بموتي. فعدت إلى السيارة وأخبرت إليزابيت أنني غرقت.

– كنت أحـاول إقناعها بـأن تختفي، فساعدني خبر غرقك على إقناعها.

– لا شك بأنك فوجئت حين علمت أنني لا أزال حيًا.

– بل صُدِمت. كيف نجوت على أية حال؟

– هذا ليس مهمًا.

أسند هويت ظهره إلى الخلف وكأنما أنهكه التعب، وقال: «أظنك على حق.» ومن جديد تغيرِ تعبيره. وفاجأني بسؤاله:

– ما الذي ترغب في معرفته بعد؟

– ألا تنكر أيًا من هذا؟

– لا.

– كنتَ على معرفة بملفين بارتولا. أليس كذلك؟

– هذا صحيح.

– أطلعك بارتولا على نيتهم التخلص من إليزابيت. ولا أفهم السبب تمامًا. ربما كان صاحب ضمير، أو ربما لم يردها أن تموت.

– بارتولا صاحب ضمير؟

ضحك هويت ضحكة ساخرة، وقال:

– رجاءً. كان نذلًا مجرمًا. أتى يخبرني ظنًا منه أنه يستطيع أن يلعب لعبة مزدوجة، فيقبض المال من عائلة سكوب ومني. أخبرته أنني سأضاعف أجره وأساعده على الخروج من البلاد إذا ساعدني في تزييف حكاية موتها.

أومأت برأسي، بعدما فهمت الأمر. وقلتُ:

– لهذا أخبر وولف وبارتولا رجال سكوب أنهما سيتواريان عن الأنظار بعد التخلص من إليزابيت. لطالما تساءلت لمَا لم يثر اختفاؤهما الشكوك. ولكن بفضلك كان يُفترض بوولف وبارتولا أن يرحلا بعيدًا.

– نعم

– ماذا حدث؟ هل غدرت بهما؟

– ليس لعهد أمثال وولف وبارتولا أي معنى. مهما كان ما دفعته لهما، فقد علمتُ أنهما سيعودان للمطالبة بالمزيد. سيملان العيش خارج البلاد، أو

twitter @baghdad_library

قد يثملان ويتباهيان بما فعلاه في حانة ما. تعاملت مع هذا النوع من الحثالة طوال حياتي، ولم يكن بوسعي أن أجازف.

– لذلك قتلتَهما.

قال بدون ذرة ندم: «أجل.»

بت أعلم كل شيء، ولكنني أجهل كيف سينتهي الأمر. فقلت له:

– إنهم يحتجزون طفلًا صغيرًا. وقد وعدتهم بأن أسلم نفسي إن أطلقوا سراحه. إتصل بهم، وساعدني لكي تتم المقايضة بسلام.

– ما عادوا يثقون بي.

– عملتَ مع سكوب لفترة طويلة. جِد شيئًا.

راح هويت يفكر في الأمر مليًا. نظر إلى جدار عدته مجددًا وتساءلت عما يرى. ثم رفع المسدس ببطء وصوبه إلى وجهي، وقال: «أظنني وجدت فكرة.»

لم يرف لي جفن. بل قلت له:

– إفتح باب المرأب يا هويت.

لكنه لم يحرك ساكنًا. فمددتُ يدي أمامه، وضغطت زر جهاز التحكم بباب المرأب، الذي أخذ ينفتح وهو يحدث صريرًا. نظر إليه هويت وهو يرتفع. كانت إليزابيت تقف هناك بدون حراك. وعندما انفتح الباب تمامًا، نظرتْ بقسوة في عينَي والدها.

إنتفض هويت.

قلت له: «هويت.»

إلتفت نحوي بغتة، فقبض علي من شعري بإحدى يديه، وبالأخرى وضع مسدسه في عيني، وقال لي:

– قل لها أن تبتعد.

لكني لم أحرك ساكنًا.

– إفعل ذلك أو فستموت.

– لن تفعل ذلك أمامها.

إقترب مني أكثر وقال لي: «اللعنة، افعل ذلك.» كان صوته أقرب إلى توسّل يائس منه إلى أمر عدائي. نظرت إليه فخامرني شعور غريب. ثم شغل

هويت محرك السيارة. نظرتُ إلى الأمام، وأشرت إليها لكي تبتعد عن الطريق. ترددتْ ولكنها في النهاية خطت جانبًا. إنتظر هويت إلى أن ابتعدت تمامًا من طريقه، ثم ضغط دواسة الوقود، فوثبت السيارة إلى الأمام وثبًا، وتجاوزنا إليزابيت بلمح البصر. وفيما كانت السيارة تندفع بنا مسرعة، استدرتُ ورحت أنظر من النافذة الخلفية إلى صورتها تتضاءل رويدًا رويدًا حتى اختفت كليًا.

من جديد.

إستويتُ في مقعدي، وتساءلت عما إذا كنت سأراها من جديد.

تظاهرت بالثقة من قبل، ولكنني كنت أدرك المخاطر. تشاجرنا حول هذا الأمر، فشرحت لها أن علي القيام به. كنت بحاجة إلى أن أتولى أنا حمايتها هذه المرة. لم يرق إليزبيث ذلك، ولكنها تفهمته.

في الأيام القليلة الماضية، علمت أنها حية. هل أنا على استعداد لأن أدفع حياتي ثمنًا لذلك؟ بكل طيبة خاطر. كنت أفهم هذا النوع من المشاعر. غمرني شعور بالصفاء، بينما ركبت السيارة إلى جانب الرجل الذي خان والدي. والذنب الذي أثقل كاهلي طويلًا طويلًا انزاح أخيرًا. أدركت ما علي أن أفعل، ما علي أن أضحي به. وتساءلت عما إذا كان ثمة خيار آخر، وعما إذا مقدرًا للنهاية أن تكون على هذا النحو.

إلتفتّ إلى هويت، وقلت له: «إليزابيت لم تقتل براندون سكوب.»

قال لي مقاطعًا: «أعرف.» ثم قال شيئًا زلزل كياني: «أنا قتلته.»

تجمدتُ. لكنه تابع بسرعة يقول:

– لقد أوسع براندون إليزابيت ضربًا، وكان ينوي قتلها. لذلك قتلتُه حين وصل إلى المنزل. ثم ألصقتُ التهمة بغونزاليز كما قلت من قبل. لكن إليزابيت عرفتْ بما فعلتُه، ولم تقبل بأن يدفع الثمن رجل بريء، فاختلقتْ حجة الغياب. تناهى الأمر إلى رجال سكوب، ما أثار تساؤلاتهم. وحين بدأوا يرتابون بإليزابيت...

لم يبعد هويت عينيه عن الطريق، وبدا وكأنه يستجمع شجاعته، ثم استأنف كلامه:

– ... سامحني الله، تركتهم يرتابون.

twitter @baghdad_library

أعطيته الهاتف، وقلت له: «أجرِ الاتصال.» ففعل.

إتصل برجل يدعى لاري غاندل. سبق لي أن قابلت غاندل مرات عدة على مر السنوات. فوالدانا قد ارتادا المدرسة الثانوية ذاتها. قال له هويت:

– بِكْ معي. سنقابلكم عند الإسطبلات، لكن عليكم إطلاق سراح الصغير.

قال غاندل شيئًا لم أسمعه، فأجابه هويت:

– سنذهب حالما نعلم أن الطفل بخير. وقل لغريفن إن ما يريده معي. يمكننا أن نسوي الأمر من دون إلحاق الأذى بي أو بعائلتي.

تكلم غاندل مجددًا، ثم سمعته ينهي الاتصال. فأعاد هويت الهاتف إلي. سألته:

– هل أنا فرد من عائلتك يا هويت؟

صوب المسدس مجددًا إلى رأسي، وقال لي:

– أخرج مسدسك ببطء يا بِكْ، بإصبعين فقط.

فعلت ما طلبه مني. ثم ضغط على زر النافذة الكهربائية، وقال لي:

– إرمِه من النافذة.

ترددتُ، فدفع فوهة مسدسه في عيني. قذفتُ بالمسدس من السيارة، ولم أسمعه يرتطم بالأرض.

كنا نسير بصمت، في انتظار رنين الهاتف مجددًا. وحين رن، أجبت أنا، وسمعت تايريز يقول لي بصوت رقيق:

– إنه بخير.

أنهيت المكالمة، مطمئنًا.

– إلى أين تأخذني يا هويت؟

– تعلم إلى أين.

– سيقتلنا غريفن سكوب نحن الاثنين.

قال وهو لا يزال يصوب المسدس إلي:

– لا، لن يقتل كلينا.

45

تركنا الطريق العام وسلكنا الطريق الريفي. وأخذت أعداد مصابيح الشارع تتضاءل حتى باتت المصابيح الأمامية للسيارة مصدر الضوء الوحيد. مد هويت يده إلى المقعد الخلفي، وسحب ظرفًا من الورق الأسمر.

– كل شيء هنا يا بِكْ.

– كل ماذا؟

– الأدلة التي جمعها والدك وإليزابيت حول براندون.

أخذتني الحيرة لبرهة. كانت هذه الأدلة معه منذ البداية. ثم تساءلت: السيارة، لماذا جلس هويت في السيارة؟

سألته: «أين النسخ؟»

إبتسم، وكأنه كان مسرورًا بأنني طرحت السؤال. وأجاب:

– لا نسخ. كل شيء هنا.

– لم أفهم بعد.

– سوف تفهم يا دايفيد. آسف، ولكنك كبش الفداء الذي أستخدمه الآن. إنه السبيل الوحيد.

– سكوب لن يصدق.

– بلى، سيصدق. فكما قلتَ، عملتُ لديه لفترةٍ طويلة، وأعلم جيدًا ما الذي يرغب في سماعه. الليلة سينتهي كل شيء.

twitter @baghdad_library

– بموتي؟

لم يجب على سؤالي.

– كيف ستشرح الأمر لإليزابيت؟

– قد ينتهي بها الأمر بأن تكرهني، ولكنها على الأقل ستكون حية.

ظهرت أمامنا بوابة المدخل الخلفي لملكية كبيرة. قلتُ في نفسي: هذه نهاية اللعبة. أشار إلينا حارس الأمن الذي يرتدي الزي الرسمي بيده لكي نعبر البوابة. ظل مسدس هويت مصوبًا نحوي. سرنا عبر الطريق وفجأة، ودونما إنذار، كبح هويت السيارة بقوة. إستدار نحوي مسرعًا، وسألني:

– هل تحمل جهاز تنصت يا بِكْ؟

– ماذا؟ لا.

– هراء. دعني أرى.

ومد يده إلى صدري، فملت مبتعدًا. رفع المسدس إلى أعلى واقترب مني أكثر، ثم بدأ يتحسسني. لم يعد إلى مكانه إلا بعدما اطمأن إلى نتيجة بحثه. وقال ساخرًا:

– أنت محظوظ.

إنطلقنا بالسيارة من جديد. حتى في الظلام ظهرت الحدائق غنية بنباتاتها، وارتسمت الأشجار في ضوء القمر، وتمايلت برغم سكون الهواء. شاهدتُ في البعيد مجموعة من الأنوار، فسار هويت في اتجاهها. ثم رأيت لافتة رمادية باهتة اللون أشارت إلى أننا بلغنا إسطبلات «دروب الحرية». ركنا السيارة في أول موقف شاغر إلى اليسار، ونظرت من النافذة. لا أعرف الكثير في تربية الحيوانات، لكن هذا المكان كان مثيرًا للإعجاب. رأيت مبنى له شكل عنبر ضخم يتسع لاثنَي عشر ملعب كرة مضرب. وكانت الإسطبلات بشكل V وتمتد إلى أبعد ما تراه العين. وفي الوسط رأيتُ نافورة، وحلبات وخطوطًا وحواجز لقفز الأحصنة.

كذلك رأيت رجالًا في انتظارنا.

ظل مسدس هويت مصوّبًا إليّ، وقال لي: «أخرج.»

خرجتُ، ودوى صدى انغلاق باب السيارة في السكون. أتى هويت إلى حيث وقفت، ووضع المسدس في أسفل ظهري. أثارت الروائح في ذهني

صورة مهرجان ريفي. لكنني وعندما شاهدت الرجال الأربعة يقفون أمامي، وقد عرفت اثنين منهم، تلاشت تلك الصورة.

كان الرجلان الآخران، اللذان لم يسبق لي رؤيتهما قط، مسلحين ببندقيتين نصف أوتوماتيكيتين صوباهما إلي. أحسستُ بارتعاشة عابرة. أظنني بدأت أعتاد رؤية الأسلحة مصوبة إلي. وقف أحدهما إلى أقصى اليمين قرب مدخل الإسطبل، في حين استند الآخر إلى سيارة يسارًا.

كان الرجلان اللذان أعرفهما يقفان متقاربين تحت مصباح. أحدهما كان لاري غاندل، أما الآخر فكان غريفن سكوب. دفعني هويت بالمسدس لأتقدم. وفيما كنا نقترب منهم، رأيت باب المبنى الكبير ينفتح.

وخرج منه إريك وو.

راح قلبي يخفق بعنف. كنت أسمع أنفاسي، وأحسستُ بتنميل في ساقي. لعلي اكتسبت مناعة ضد الترهيب بالسلاح، ولكن جسدي تذكر أصابع وو، فتباطأت خطواتي بحركة لا إرادية. رماني وو بنظرة خاطفة، وسار إلى غريفن وأعطاه شيئًا ما.

أوقفني هويت عن السير، ونحن على مسافة عشرة أمتار من الرجال، وصاح:

– لدي خبر سار.

إتجهت كل العيون إلى غريفن سكوب. كنت أعرف الرجل طبعًا. فأنا في النهاية ابن صديق قديم له، وشقيق موظفة أمينة تعمل لديه. وشأن الجميع تقريبًا، كنت أهاب ذلك الرجل الضخم البنية، ذا العينين البراقتين. كان رجلًا يرغب الآخرون في أن يراهم، رجلًا دمث الأخلاق، حلو المعشر، يملك القدرة النادرة على السير فوق الحبل الرفيع الذي يفصل بين الصديق ورب العمل. كان ذلك مزيجًا نادرًا ما ينجح. فرب العمل يخسر هيبته حين يصبح صديقًا، والصديق يصبح محل حسد وامتعاض حين يقوم بدور رب العمل. ولكن تلك ما كانت لتكون مشكلة بالنسبة إلى رجل ذي طاقة هائلة مثل غريفن سكوب. كان رجلًا خُلق ليكون قائدًا.

بدت الحيرة على وجه غريفن سكوب، وقال: «خبر سار يا هويت؟»

twitter @baghdad_library

إصطنع هويت ابتسامة، وقال: «خبر سار جدًا، كما أظن.»

قال سكوب: «رائـع.» وألقى نظرة خاطفة نحو وو، الـذي أومـأ برأسه ولكنه بقي حيث هو. تابع سكوب:

– هات الخبر السار يا هويت، إنني أصغي.

تنحنح هويت، وقال:

– عليك أوّلًا أن تفهم أنني لم أتعمد إيذاءك قط. والواقع أنني بذلت قصارى جهودي لأتأكد من عدم ظهور أية أدلة تسبب الإدانة. ولكنني كنت أيضًا بحاجة إلى إنقاذ ابنتي، يمكنك أن تفهم هذا، أليس كذلك؟

عبَر ظل قاتم وجه سكوب. وسأل هويت بصوت هادئ وأجش:

– هل أفهم الرغبة في حماية الأبناء؟ نعم، يا هويت. أظنني أفهم.

في البعيد، صهل حصان. وما خلا ذلك، كان كل شيء ساكنًا. لعق هويت شفتيه ورفع في يده الظرف الأسمر.

– ما هذا يا هويت؟

– كل شيء. الصور والإفادات والأشرطة، كل ما كانت ابنتي وستيفن بِكْ يملكانه ضد ابنك.

– هل ثمة نسخ؟

– نسخة واحدة فقط.

– أين هي؟

– في مكان آمنٍ، مع محامٍ. إذا لم أتصل به في خلال ساعة وأعطيه كلمة السر، فسينشرها. هذا ليس تهديدًا يا سيد سكوب. ليس في نيتي أبدًا أن أكشف ما أعرفه، فلدي الكثير لأخسره.

قال سكوب: «صحيح، لديك الكثير لتخسره.»

– ولكن بات بوسعك الآن أن تدعنا بسلام. لديك كل شيء، وسأرسل الباقي. ولا داعي لأن تلحق الأذى بي أو بعائلتي.

نظر سكوب إلى لاري غاندل، ثم إلى إريك وو. وبدا التوتر على سحنتَي الرجلين المسلحين الواقفين على طرفَي المكان. قال سكوب:

– وماذا عن ابني يا هويت؟ أحدهم قتله ككلب. هل تنتظر مني أن أسمح لهذا بأن يمر؟

– هذا هو الأمر. إليزابيت لم تقتله.

ضاقت عينا سكوب بتعبير بدا وكأنه اهتمام بالغ، ولكن خُيل إلي أنني قرأت فيهما شيئًا آخر شيئًا أقرب إلى الارتباك. وقال:

– مَن قتله إذًا؟ رجاءً أخبرني.

إبتلع هويت ريقه بصعوبة، والتفت إلي وقال:

– دايفيد بِكْ.

لم أفاجَأ ولم أشعر بالغضب حتى. تابع هويت بسرعة يقول:

– هو قتل ابنك. لقد اكتشف ما كان يجري فانتقم منه.

تظاهر سكوب بأنه شهق، ووضع يده على صدره. أخيرًا نظر إلي، وكذلك فعل وو وغاندل. سألني سكوب وهو ينظر في عينيّ:

– ماذا لديك لتدافع به عن نفسك يا دكتور بِكْ؟

فكرت في الأمر، وأجبت:

– هل سيجدي نفعًا أن أخبرك أنه يكذب؟

لم يجب سكوب على سؤالي مباشرة. بل التفت إلى وو وقال:

– من فضلك، أحضر إلي ذلك الظرف.

كان وو يسير برشاقة فهد. واتجه نحونا، مبتسمًا لي ابتسامة انقبضت لها غريزيًا بعض عضلاتي. ثم توقف أمام هويت ومد يده، فناوله هويت الظرف. أخذه وو بيد، وبالأخرى خطف المسدس من يد هويت، كما لو أنه يخطفه من يد طفل، ورماه خلفه. لم أرَ قط أحدًا يتحرك بمثل هذه السرعة.

قال هويت: «ماذا...»

سدد إليه وو لكمة في معدته، فسقط على ركبتيه. ووقفنا كلنا نشاهده يهوي على أطرافه، وهو يكاد يتقيأ. دار وو حوله، وتريث هنيهة قبل أن يسدد ركلته في قفص هويت الصدري. سمعتُ شيئًا ينكسر، وانقلب هويت على ظهره، وهو يرمش بعينيه، وقد انبسطت ذراعاه وساقاه.

twitter @baghdad_library

إقترب غريفن سكوب وهو يبتسم لهويت، ثم رفع بيده شيئًا ما. حدقتُ إليه لأراه، فكان صغيرًا وأسود اللون.

رفع هويت عينيه، وهو يبصق الدم. واستطاع أن يقول:

– لا أفهم.

عرفتُ ما في يد سكوب. كانت مسجلة صغيرة. ضغط سكوب زر التشغيل، فسمعت أوّلًا صوتي، تلاه صوت هويت:

– إليزابيت لم تقتل غريفن سكوب.

– أعرف. أنا قتلته.

أوقف سكوب المسجلة، ولم ينبس أحد ببنت شفة. نظر سكوب إلى حميّ بعينين تقدحان شررًا. في تلك اللحظة أدركت أشياء كثيرة. أدركت أنه ما دام هويت باركر يعلم أن منزله مراقَب بأجهزة تنصت، فلا شك بأنه يعلم أيضًا أن سيارته مراقَبة كذلك. لهذا غادر المنزل حين رآنا في الفناء الخلفي، ولهذا انتظرني في السيارة. لهذا قاطعني عندما قلت إن إليزابيت لم تقتل براندون سكوب. لهذا اعترف بالجريمة حيث يدرك أنهم يتنصتون عليه. أدركت أنه عندما تحسسني، فلا بد من أنه أحس بجهاز التنصت الذي وضعه كارلسون على صدري، وأنه أراد أن يتأكد من أن الشرطة الفدرالية ستسمع كل شيء، ومن أن سكوب لن يكلف نفسه عناء تفتيشي. أدركت أن هويت باكر أراد أن يدفع بشخصه الثمن، وأنه، وبالرغم من أخطائه الفادحة الماضية، وبالرغم من خيانته أبي، فكل ما جرى كان خدعة، وفرصة أخيرة للتكفير عن الذنب. فهو، لا أنا، من سيضحي بنفسه من أجل إنقاذنا جميعًا. أدركت أيضًا أن عليه القيام بأمر آخر بعد لكي تنجح خطته، فابتعدتُ. وفي اللحظة التي سمعتُ فيها مروحيات مكتب التحقيق الفدرالي تتهيأ للهبوط، في اللحظة التي سمعتُ فيها صوت كارلسون يأمر الجميع بمكبر للصوت بألا يتحركوا، شاهدتُ هويت يمد يده إلى قراب كاحله، ويسحب مسدسًا، ويطلق منه ثلاث رصاصات على غريفن سكوب. ثم شاهدته يدير فوهة المسدس نحوه.

صحت «لا!» لكن صوتي ضاع في دوي الرصاصة الأخيرة.

46

دفنّا هويت بعد أربعة أيام، وشارك في الجنازة الآلاف من رجال الشرطة بزيهم الرسمي. لم تُذَع بعد تفاصيل ما حدث في ملكية سكوب، ولم أكن متأكدًا من أنها ستُذاع يومًا. حتى والدة إليزابيت لم تلح كثيرًا للحصول على أجوبة، ولكن ذلك ربما كان بسبب سعادتها التي بلغت حدّ الهذيان بعودة ابنتها من عالم الأموات. جعلها ذلك لا ترغب في طرح الكثير من الأسئلة، أو في النظر في الشقوق عن كثب. لي تجربة كهذه.

أما في الوقت الراهن، فإن هويت باركر قد مات بطلًا. ولعلها كانت الحقيقة. لستُ أنا الحَكَم الأفضل على ذلك.

كتب هويت اعترافًا طويلًا، قال فيه كل ما أخبرني إياه في السيارة. وقد أطلعني كارلسون على وثيقة الاعتراف، فسألته:

– هل ينتهي الأمر هنا؟

– يبقى علينا توجيه الاتهام إلى وو وغاندل وبعض الآخرين، ولكن وبعد موت غريفن سكوب، بات الجميع مستعدين لعقد الصفقات.

فكرت في أن القضاء على الوحش الأسطوري لا يكون بقطع رأسه، بل بطعنه في قلبه.

قال لي كارلسون:

– كان ذكاءً منك أن تأتي إلي حين خطفوا ذلك الطفل.

twitter @baghdad_library

– أي خيار آخر كان لي؟

– وجهة نظر جيدة.

صافحني كارلسون، وقال لي:

– إعتنِ بنفسك يا دكتور بِكْ.

– وأنت أيضًا.

لعلكم ترغبون في معرفة ما إذا كان تايريز سيسافر إلى فلوريدا، وما ستكون حال تي جاي ولاتيشا. ولعلكم تتساءلون عما إذا كانت شونا وليندا ستبقيان معًا، وما معنى ذلك بالنسبة إلى مارك. لكنني لا أستطيع أن أخبركم شيئًا من ذلك، لأنني لا أعرف.

هذه القصة تنتهي هنا، بعد أربعة أيام من موت هويت باركر وغريفن سكوب. إنها ساعة متقدمة جدًا من الليل، وأنا مستلقٍ في السرير مع إليزابيت، أراقب جسدها يعلو ويهبط خلال نومها. أنا أراقبها دائمًا، ولا أغمض عينيّ كثيرًا. المفارقة أن أحلامي انقلبت. ففي الأحلام أفقدها الآن، وأراني وحيدًا بعد موتها، من جديد. لذلك أضمها كثيرًا. أنا شديد التمسك بها، وشديد الحاجة إليها، وكذلك هي. لكننا سنتجاوز ذلك.

تنقلب إليزابيت نحوي وكأنما تشعر بنظراتي إليها. أبتسم لها، فتبادلني الابتسامة وأشعر بقلبي يطير فرحًا. أتذكر ذلك اليوم عند البحيرة. أتذكر ابتعادي على الزورق. وأتذكر قراري بأن أخبرها الحقيقة. قلت لها:

– يجب أن نتحادث.

– لا أظن ذلك.

– إنّ أيًا منا لا يجيد كتمان الأسرار عن الآخر يا إليزابيت. وهذا سبب المشكلة أصلًا. لو أن كلًا منا قال للآخر كل شيء...

لكنني لم أنهِ كلامي.

أومأت برأسها علامة الموافقة، وأدركتُ أنها تعرف. أدركتُ أنها عرفت منذ البداية. قلت لها:

– إعتقد والدك دائمًا أنك أنت قتلتِ براندون سكوب.

– هذا ما قلته له.

– ولكن في النهاية...

توقفت عن الكلام، ثم بدأتُه من جديد.

– عندما قلتُ في السيارة إنك لم تقتليه، أتظنينه أدرك الحقيقة؟

قالت إليزابيت:

– لا أعلم. أحب أن أعتقد أنه لربما أدركها.

– إذًا فقد ضحى بنفسه من أجلنا.

– أو حاول منعك من أن تضحي بنفسك. أو ربما مات وهو لا يزال يفكر في أنني أنا قتلت براندون سكوب. لن نعرف الحقيقة أبدًا. وهي غير مهمة.

نظر كل منا إلى الآخر.

قلت لها، وصدري منقبض:

– كنتِ تعلمين. منذ البداية كنت...

أسكتتني بإصبع وضعتها على شفتيّ، وقالت: «لا بأس.»

– وضعتِ كل تلك الأشياء في صندوق الودائع، من أجلي.

– أردتُ حمايتك.

– كانت تلك حالة دفاع عن النفس.

قلت ذلك وأنا أتذكر ملمس المسدس في يدي، وارتدادته العنيفة بعدما ضغطت على الزناد.

قالت لي وهي تطوّق عنقي بذراعيها وتجذبني إليها:

– أعلم، أعلم.

الحقيقة أنني أنا مَن كنت في المنزل عندما اقتحمه براندون سكوب منذ ثماني سنوات. أنا من كنت مستلقيًا وحيدًا في السرير عندما تسلل إلى الغرفة وفي يده سكين. تعاركنا، ورحت أتلمس باحثًا حولي عن مسدس أبي. إنقض علي من جديد، فأطلقت عليه النار وقتلته. ثم أصابني الهلع، فهربت. حاولت أن أستجمع أفكاري، وأقرر ما علي عمله. حين استعدتُ رشدي وعدتُ إلى المنزل، وجدتُ الجثة قد اختفت، وكذلك المسدس. أردت أن أخبرها. كنت أنوي أن أخبرها عند البحيرة. ولكنني في النهاية لم أقل شيئًا عن الأمر. حتى الآن.

twitter @baghdad_library

كما قلت لكم سابقًا، لو أنني فقط اعترفت بالحقيقة منذ البداية...

جذبتني إليزابيت إليها، وهمست لي:

– أنا هنا.

هنا، معي، سيستغرق الأمر مني بعض الوقت لكي أعتاده. ولكني سأفعل. تعانقنا واستسلمنا للنوم. غدًا صباحًا سنستيقظ معًا. وبعد غد صباحًا أيضًا. وسيكون وجهها أول ما أراه كل يوم، وصوتها أول ما أسمعه.

أعرف أن هذا سيكفيني دائمًا.

twitter @baghdad_library

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

هارلان كوبن — من أشـهر مؤلّفي روايات التشويق والإثارة الأميركيّين. تتميّـز أعماله بحبـكات منسـوجة بفطنـة ودهـاء، وبنهايات أشـبه بصفعة غير متوقّعة.

أصدر كوبن عددًا من الروايات أشـهرها *Tell No One* التي لاقت نجاحًـا لافتًا، حتّى كعملٍ سـينمائيّ. وكان نجمه قد سـطع منذ إصدار السلسلة التي بناها حول شخصيّة وكيل الأعمال «مايرن بوليتار».

هارلان كوبن هـو الروائيّ الأوّل الذي يحصـد جوائز التميّز الثلاث Edgard Award وShamus Award وAnthony Award بالإضافة إلى جوائز عديدة أخرى.

تُرجمت مؤلّفاته إلى أكثر من 41 لغة، وتخطّت مبيعاتها 50 مليون نسخة في العالم.

«هارلان كوبن هو ملك العصر في لعبة الجذب والتضليل المشوّق» — دان براون

رسالة من شبح — منذ ثماني سـنوات والدكتـور دايفيد بِك يستعيد رعب تلك الليلة. لا يزال يعيشـه كلّ يوم. صفحة البحيرة المتلألئة. ضوء القمر الشـاحب. الصرخات المدوّية. تلك الليلة الملعونة التي فقد فيها زوجته... تلك الليلة التي رآها فيها للمرّة الأخيرة.

يقولون لـه آن الأوان لتمضي فـي حياتك قدمًا، ولتنسـى الماضي نهائيًّا. ولكن، كيف لدايفيد بِك أن ينسـى وقد تلقّى على الكمبيوتر رسالة تتضمّن عبارة لا يعرفها إلّا شخصان: هو وزوجته.

إنّه المسـتحيل يعبث بـه. أتكون زوجتـه حيّـة؟ وإلّا فمن بعث بالرسالة؟ ولمَ حُذِّر من البوح بشأنها لأحد؟

ISBN 978-9953-26-390-8
9 789953 263908

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان .A